شُعَرَاءُ قَتَلَهُمْ شِعْرُهُم

طرفة بن العبد، هدبة بن الخشرم، لبيد بن ربيعة
كعب بن زهير، أعشى همدان، المتنبي، الحطيئة...



إعداد
عادل أنور خضر

دار الكتاب العربي
بيروت – لبنان

شعراء
قَتَلهم شِعرُهم

عادل أنور خضر

مقدّمة المؤلف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيِّد المرسلين، سيِّدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فهذا كتابٌ يضمّ بين دفَّتيه قصصاً عن شعراء اقتُصَّ منهم لقصائد قالوها، وأبياتٍ نظموها؛ فمنهم مَنْ قضى نحبه، ومنهم من عُفي عنه، وتخلَّص من قِصاصه، بنفس السَّبب الذي أَوقَعَهُ، وعرَّضهُ للعقوبة؛ ألا وهو الشعر.

إنّ هذا الكتاب يحكي قصص مزالق اللسان، وما أدراك ما اللسان؟ إنه كما قال أحدهم:

احفظْ لسانكَ أيها الإنسانُ لا يلدغنَّكَ إنهُ ثعبانُ

والويل لمن يُرخي حَبله، ويأمن شره، وصدق رسول الله ﷺ حين قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «ألا أُخبرُكَ برأسِ الأمرِ كُلِّهِ وعمودِهِ وذروتِهِ وسَنامِهِ؟ قلت: بلى يا نبي الله! فأخذ بلسانه قال: كُفَّ عليكَ هذا. فقلت: يا نبيَّ الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلَّم به؟! فقال: ثكلتك أمُّك يا معاذُ، وهل يُكبُّ الناسَ في النَّارِ على وجوهِهم ـ أو على مناخرِهم ـ إلاَّ حَصَائِدُ أَلسنتِهِمْ»(1).

ولسائل أن يسأل: مَا الفائدة لنا اليومَ من عَرض قصص لشعراء قدماء قتلوا أو نُكِّل بهم لأجل شعرهم؟

الجواب: إن الشقي مَنْ يعتبر بنفسه، والحكيمَ مَنْ يعتبر بغيره، فهذا الكتاب يحكي لنا سِير أعلام شعراء أوردهم لسانهم المهالك لنعتبر بهم، ونستخلص من قصصهم نتيجةً مفادها: أن أغلب الأسباب التي عُوقبوا لأجلها كان يقف وراءها التطاول والهجاء، وشتم الأعراض، وهتكَ الأستار.

وهذا يدعونا إلى أن نحتاط مما تلفظه ألسنتنا، وألا نخوض فيما لا طائل تحته، وألا نسترسل في التجادل الذي قد يؤدي إلى التعادي والتقاتل.

فالشعر باللفظ الجميل الحسن يكون ساحراً بليغاً، وباللفظ القبيح يكون منحطاً سافلاً، حقيق بصاحبه أن يُرمى به... .

---

(1) أخرجه الترمذي (الحديث 2616)، وابن ماجه (الحديث 3973)؛ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

وصدق الله حين قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: 24-25].

ومع ذلك، فكما في السجن مظلومون، فكذلك من الشعراء من كانوا مظلومين، عوقبوا وهم لا يستحقون العقاب، وربما قُتلوا لأنه قالوا حقاً لم يحتمله بعض الحكام —كما سيمرّ.

والمتأمِّل في سير الشعراء سيرى أن أغلب العقوبات التي نزلت بهم كانت لأسبابٍ سياسية؛ لتعرّضهم لأرباب الحكم من ملوك أو ولاة. وهذا حال الصحافة اليوم مع الساسة، وكان قديماً هو حال الشعراء؛ لذا كان أرباب الحكم يجمعون حولهم الشعراء، ويفرحون بمدحهم؛ لأنه تثبيت لسلطانهم.

وقد ضمَّ كتابنا هذا قصة ثلاثة وثلاثين شاعراً، في مختلف العصور الأدبية، ووزَّعناهم على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في الشعراء المقتولين.

الفصل الثاني: في الشعراء المعاقبين— بالسجن أو الملاحقة.

الفصل الثالث: في الشعراء المحرِّضين على القتل أو العقاب – وقد حصلوا على ما يريدون.

وقد سمَّيت الكتاب باسم «شُعَرَاء قَتَلَهُمْ شِعرُهُمْ».

وعلى الرغم من كون سمير فراج قد سبق أن ألَّف كتاباً بهذا العنوان، وتابعه بَعدُ الدكتور عائض القرني بنفس الموضوع ولكن تحت عنوان: «قصائد قتلت أصحابها»، إلا أنهما تقاربا في القصص والشعراء، ما نسبته 70%. أما كتابنا هذا فقد اتفق معهما في الفصل الأول بسبعة شعراء فقط، وأتى باثني عشر شاعراً جديداً. وانفرد كتابنا بالفصلين الثاني والثالث، وهو مما لم يذكراه، ومما يجب الاعتناء به.

وبذلك لم يكن الكتابة في الموضوع نفسه من باب التكرار الفجّ الأعمى، بل كان فيه تجديداً وإضافةً مفيدةً للمكتبة العربية، ولولا مخافة تضخيم الكتاب لبلغ عدد شعرائه نحو ستين شاعراً.

وقد يتبادر إلى الذهن أن معنى كلمة «القَتل» يُراد بها سفك الدم وإزهاق الروح فقط؛ وليس بصحيح؛ فهي تعني ـ إضافة إلى إفادتها معنى الإهلاك ـ الإذلال.

وهذا المعنى اللغوي للكلمة بشطريه: الحقيقي والمجازي، هو الذي هداني إلى الكتابة عن الشعراء الذين عُوقبوا وأُذلّوا على شعرهم، أو كان شعرهم سبباً لقتل أو إذلال الغير.

هذا، وقد رتَّبت الشعراءَ بحسب سنيِّ وفاتهم، لا بحسب وقوع قصتهم. وقد قدَّمت كل قصة بترجمة للشاعر، تُطول وتقصر، بحسب الشاعر، وبحسب إفادة ترجمته تلك للقصة.

وبعد، فأرجو أن يجد القارئُ العزيزُ الفائدةَ والمتعةَ في هذا الكتاب، وأن تستقر في نفسه الفكرة التي لأجلها ألَّفناه. واللهَ أسأل أن يُسدِّدَ خطانا، ويُقيلَ عِثارَنا، ويُنطقَ بالحقّ ألسنتَنا. إنه على كل شيء قدير. والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

عادل أنور خضر

حلب: 1431/8/1هـ

2010/7/13م

الفصل الأول

الشعراء المقتولون

طرفة بن العبد(1)

ترجمة الشاعر:

هو شاعرٌ شابّ قُتِل في ربيع عمره، عاش في الجاهلية، وعَلِمَ أحكامها، ولكن.. أبى إلا اختبارها بنفسه، ولم يعتبر بغيره.. هجا ملكاً، وشبَّب بأخته، فجازاه بكتاب فيه أمر قتله، يحمله بيده. صَاحَبَهُ الشيخ المجرِّب، شريكه في الجرم، قرأ كتابه فنجا وحفظ دمه، أما الشابّ المندفع المغتر بشبابه وقومه دون تعقل؛ فقد فوَّت على نفسه فرصة الهرب والحياة، وجعل من نفسه مثلاً يتردّد في كتب الأمثال والأدب.

ولئن كان المملوك جابر في مسرحية سعد الله ونوس قد أخفيت الرسالة المتضمّنة لقتله تحت شَعره فلم يدرِ كنهها، ولم يحتَطْ من سيده لإخلاصه له؛ لقد أسلم شاعرنا للملك قِياد نفسه، بعد أن فرَّط في حَقِّه، وهجا وعرَّض، والمصيبة أنه أصرَّ على حَملِ أَمرِ قتله بيده؛ ولم يَحذَرْ.. إنَّ هذا لجهل وحمق وغرور يَعزّ على الدنيا أن تأتي بمثله.

اسمه عمرو بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، من بني بكر بن وائل, ويُلقَّب بـ«طَرفة» لقوله(2):

لا تُعجِلا بالبكاءِ اليومَ مُطَّرِفا ... ولا أميريكما بالدَّارِ إذْ وَقَفا

أمه وردة بنت عبد العزى من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار. وكان قومه ينزلون بالبحرين.

مات أبوه وهو صغير، فحرمه أعمامه من ميراثه، فعاش في بؤس وفقر، وفي ذلك يقول:

ما تَنْظُرُونَ بِمالِ وَرْدَةَ فيكُمُ ... صَغُرَ البَنُونَ ورَهْطُ وَرْدَةَ غُيَّبُ

قد يَبْعَثُ الأَمْرَ العظيمَ صَغِيرُهُ ... حتى تَظَلَّ لهُ الدِماءُ تَصَبَّبُ

والظُّلْمُ فَرَّقَ بينَ حَيَّيْ وائِلٍ ... بَكْرٌ تُسَاقِيها المنايا تَغْلِبُ

والصِّدْقُ يَأْلَفُهُ الكَرِيمُ المرْتَجَى ... والكِذْبُ يَأْلَفُهُ الدَنِيُّ الأَخْيَبُ

---

(1) مجمع الأمثال: 2/224-228، وجمهرة أشعار العرب: 89-96، وأمالي المرتضى: 1/192-193، وخزانة الأدب: 2/315-424، وأسماء المغتالين (ضمن كتاب نوادر المخطوطات): 2/230-232، وتاريخ اليعقوبي: 1/180-182، والشعر والشعراء: 1/182-186. وقد تعددت القصص في طريقة قتله، وقد اخترنا أن نجمع بين أطرافها، مع ترجيح سياق مجمع الأمثال والجمهرة والأمالي.

(2) القاموس المحيط: طرف، والمزهر في علوم اللغة: 2/441. والطَّرَفة: واحد الطَّرْفاء، وهو الأثل.

ويبدو أن أعمامه استصغروه، فتكاثروا عليه وعلى إخوته وأمه، فسلبوه ما ترك أبوه، مما جعله يعيش حياة بائسة فقيرة، ويستجدي أبناء عمومته، فلما لم يجد طائلاً من مقامه بين قومه، يمَّم وجهه مع خاله المتلمِّس قِبل بِلاط ملك الحيرة عمرو بن هند؛ طمعاً في الثراء والحياة الكريمة.

ويقال: إن أول شعرٍ قاله طرفة - وهو صغير - كان حين خرج مع عمه في سفر، فنصب فخاً، فلما أراد الرحيل قال:

يا لَكِ مِن قُبَّرَةٍ بِمَعْمَرِ ... خَلاَ لَكِ الجَوُّ فَبِيَضي واصْفِري
ونَقِّري ما شِئْتِ أَنْ تُنَقِّرِي ... قد رُفِعَ الفخُّ فماذا تَحْذَرِي

* لا بُدَّ يَوْماً أَنْ تُصَادِي فاصْبِرِي *

ويبدو أن الشعر لم يكن غريباً عن بيت شاعرنا؛ فعمه هو المرقش الأصغر واسمه ربيعة، وعم المرقش الأصغر المرقش الأكبر واسمه عمرو بن سعد، وجده سعد؛ كانوا كلهم شعراء. كما أن خاله المتلمس كان شاعراً أيضاً.

وهو من أشعر الشعراء على قلة شعره، وتعد معلقته الثانية ترتيباً بعد معلقة امرئ القيس. ومن أبياتها:

لِخَولَةَ أَطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ... تَلُوح كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليَدِ
وُقُوفاً بها صَحبي عَليّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولونَ: لا تَهلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ
وَأَعلَمُ مَخرُوطٌ مِنَ الأنفِ مَارِنٌ ... عَتيقٌ متى تَرْجُم به الأرضَ تَزْدَدِ
إذا أَقْبَلَتْ قالُوا: تَأَخَّرَ رَحْلُها ... وإنْ أَدْبَرَتْ قالُوا: تَقَدَّمَ فاشْدُدِ
على مِثلِها أَمضي، إذا قالَ صاحبي ... أَلا لَيتَني أَفديكَ مِنها وَأَفْتَدِي
إذا القومُ قالوا مَن فتًى؟ خِلتُ أَنَّني ... عُنيتُ، فَلَمْ أَكْسَلْ ولم أَتَبَلَّدِ
ألا أيّهذا اللاّئِمي أحْضُرَ الوَغَى ... وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذاتِ هل أنتَ مُخلِدِي
فإنْ كُنْتَ لا تَسْطيعُ دَفعَ مَنيَّتي ... فَدَعْني أُبادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي
فَلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ مِن عِيشَةِ الفَتى ... وَجَدِّكَ لم أَحْفِلْ متى قامَ عُوَّدي
وَكَرّي إذا نادى المضافُ مُحَنَّباً ... كَسِيْدِ الغَضا نبَّهْتَهُ المتَوَرِّدِ
وَتقصِيرُ يوم الدجنِ والدَّجنُ مُعْجِبٌ ... بِبَهكَنَةٍ تَحْتَ الطِّرافِ المعَمَّدِ
فَذَرْنِي أُرَوِّ هامَتي في حَياتِها ... مَخَافَةَ شِرْبٍ في الحَياةِ مُصَرَّدِ
كَرِيمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ في حَياتِهِ ... سَتَعْلَمُ إن مُتَنا غَداً أَيُّنَا الصَّدِي
أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخيلٍ بِمَالِهِ ... كَقَبْرِ غَوِيٍ في البِطَالَةِ مُفْسِدِ

أرى الموتَ يَعتامُ الكِرامَ ويَصطَفي عَقيلَةَ مالِ الفاحِشِ المتَشَدِّدِ
أَرى الدَّهرَ كَنزاً ناقصاً كلَّ لَيلَةٍ وما تَنْقُصِ الأيَّامُ والدَّهرُ يَنفَدِ
فَما لِي أراني وابنَ عَمّيَ مالِكاً متى أَدْنُ منهُ يَنْأَ عَني ويَبْعُدِ؟
يَلُومُ وما أدري عَلامَ يَلُومُني كما لامَني في الحَيِّ قُرْطُ بنُ معبَدِ
فَلَوْ كانَ مَولايَ امرأً هُوَ غَيرُهُ لَفَرَّجَ كَرْبي أَوْ لأنظَرني غَدِي
ولكِنَّ مَولايَ امرُؤٌ هُوَ خانِقي على الشّكرِ والتّسآلِ أَو أنا مُفتَدِي
وظُلمُ ذَوي القُرْبَى أَشَدّ مَضاضَةً على المرءِ مِنْ وَقعِ الحُسامِ المهَنَّدِ
فَذَرْني وخُلقي إنّني لكَ شَاكِرٌ وَلَو حَلَّ بَيتي نائياً عِندَ ضَرْغَدِ
أَنا الرَّجلُ الضَّربُ الذي تَعرِفُونَهُ خَشاشٌ كَرَأسِ الحَيّةِ المتَوَقِّدِ
فآلَيتُ لا يَنفَكُّ كَشحي بِطانَةً لِعَضْبِ رَقيقِ الشّفرتَينِ مُهَنّدِ
حُسامٍ! إذا ما قُمتُ مُنتَصِراً بهِ كَفَى العَودَ منهُ البَدءُ ليس بِمعضَدِ
فإنْ مُتُّ فانعَيني بما أنا أهلُهُ وشُقِّي عَليَّ الجَيبَ يا ابنَةَ مَعبَدِ
ستُبدي لكَ الأيّامُ ما كنتَ جاهِلاً وَيأْتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوَّدِ
ويأتيكَ بالأنباءِ مَنْ لَمْ تَبِعْ لَهُ بَتاتاً ولم تَضرِبْ لهُ وَقتَ مَوعِدِ

وقال ابن قتيبة: هو أجود الشعراء قصيدةً، وله بعد المعلقة شعرٌ حسنٌ. وليس عند الرواةِ من شعره وشعر عبيد بن الأبرص إلا القليل.

وقد قُتل طرفة بالبحرين بأمر من عمرو بن هند ملك الحيرة، وهو في السادسة والعشرين من عمره.

قصة مقتله:

كان عمرو بن المنذر بن امرئ القَيْس يُرَشّحُ أخاه قابوس – وهما ابنا هند بنت الحارث بن عمرو الكندي آكل المرار – ليملكَ بعدَهُ، فقَدِمَ عليه المتلمّس وطَرَفة فجعلهما في صحابة قابوس، وأمرهما بلزومه.

وكان قابوس شاباً يعجبه اللّهو، وكان يركبُ يوماً في الصيد فيرْكُضُ ويتصيَّدُ، وهما معه يركضان، حتى رَجِعَا عشية وقد لَغِبَا(1)، فيكون قابوس من الغد في الشراب، فيقفان بباب سرادقه إلى العشي. وكان قابوس يوماً على الشراب فوقفا ببابه النهارَ كلَّه، ولم يصلا إليه؛ فضَجِرَ طرفة وقال:

فَلَيْتَ لنا مكانَ الملْكِ عمروٍ رَغُوثاً حَوْلَ قُبَّتِنَا تَخُورُ(2)

---

(1) لَغِبا: تَعِبا.

(2) الرُّغوث: النعجة المرضع. تخور: تصوّت.

مِـــــنَ الزّمِـــــرَاتِ أَسْــــبَلَ قَادِمَاهَــــا وضــــــــــــرَّتُهَا مركَّنَـــــــــــة دَرُورُ(1)
يُشَـــــارِكُنَا لنــــــا رَخِــــــلانِ فيهــــــا وتَعْلُوهَــــا الْكِبَــــاشُ فَمَــــا تَنُــــورُ(2)
لَعَمْــــرُكَ إِنَّ قَــــابُوسَ ابْـــــنَ هِنْــــدٍ لَــــيَخْلِطُ مُلْكَـــــهُ نَــــوكٌ كَبِــــيرُ(3)
قَسَـــمْتَ الـــــدَّهْرَ فِي زَمَـــــنٍ رَخِــــيٍّ كَــــذَاكَ الْحُكْــــمَ يَقْصِــــدُ أَوْ يَجُــــورُ(4)
لَنَـــــا يَـــــــوْمٌ وَلِلْكِـــــرْوَانِ يَـــــوْمٌ تَطِــــيُرُ البَائِسَــــــاتِ وَلاَ نَطِــــيرُ(5)
فأَمَّــــــا يَــــــوْمُهُنَّ فَيَــــوْمُ سُـــــوءٍ يُطَــــارِدُهُنَّ بالخَــــربِ الصُّـــــقُورُ(6)
وأمَّــــــا يَوْمُنَــــــا فَنَظَــــــلُّ رَكْبــــــاً وُقُوفــــــاً لاَ نَحُــــــلُّ وَلاَ نَسِــــــيرُ

وكان طرفة عدواً لابن عمه عبد عمرو بن بشر بن مرثد بن سعد، وكان كريماً على عمرو بن هند، وكان سَميناً بادناً، فدخل مع عمرو الحمام، فلما تجرَّدَ قال عمرو بن هند : لقد كان ابنُ عمك طرفَةُ رَآك حين قال ما قال. وكان طرفة هَجَا عبدَ عمرو، وهو زوج أخته، لأمر شكته منه فقال:

ولا خَــــيْرَ فيـــــهِ غــــيرَ أَنَّ لــــه غِــــنًى وَأَنَّ لـــه كَشْــــحاً إذَا قَـــامَ أَهْضَــــمَا(7)
تَظَــــلُّ نســــاءُ الحــــي يَعْكُفْــــنَ حَوْلَــــهُ يقلــن: عَسـيبٌ مــن سَــرَارة مَلْهَمــا(8)
لــــــه شـــــــربتان بالعَشِـــــيِّ وشَـــــرْبَةٌ مــن الليــل حــتى آضَ جَبْســاً مُوَرَّمَــا
كــــأنَّ الســــلاحَ فــــوق شُــــعْبِةِ بَانَــــةٍ تَــــرَى نَفَحــــاً وَرْد الأســــرَّةِ أَصْــــحَمَا
ويَشْـــرَبُ حـــتى يغمـــرَ المحـــضُ قَلْبَـــهُ فــإن أُعطــهِ أَتْــرُكْ لِقَلْــبِيَ مَجْثَمَــا

(1) الزَّمرات: القليلات الصّوف، وخصَّها لأنها أغزر لبناً. أسبل: طال وكمُلَ. قادماها: خلفاها، وأصلهما للناقة لأن لها أربعة أخلاف قَادِمَينِ وآخرينِ؛ فاستعار القادِمينِ للشَّاة. الضَّرّة: لحم الضرع. المركَّنة: التي لها أركان، أي جوانب وأصل؛ وقيل: هي المجتمعة. دَرور: كثيرة الدَّر، أي اللَّبن.

(2) رَخِلان: مثنّى رَخِل؛ وهي الأنثى من الضأنِ تعلوها الكِباش تلحقها. تنور: تنفر. وهو هنا يصف غزارة دَرِّها وكثرة أولادها، وأنها قد أَلِفتِ الذكورَ فما تنفر منها.

(3) قابوس: أخو عمرو بن هند. النَّوك: الحمق.

(4) الرَّخيّ: السَّهل اللَّيِّن.

(5) كِرْوان: جمع كَرَوان؛ وهو الطائر المعروف. والبائساتِ: منصوب على الترحّم كما يقال: «مررتُ بهِ المسكينَ». وفاعل «تطير» ضمير مستتر يعود على «الكروان». ويجوز أنه تكون مرفوعة على أنها فاعل، ولكن النصب أقوى.

(6) نَحس: شؤم وسوء. الخَرِب: جمع خارب؛ وهو ذكر الحبارى.

(7) الهضم: خمص البطون ولطف الكشح، والكلام على الاستهزاء به؛ لبدانته.

(8) سَرارَة الوادي: أفضل موضع فيه. مَلهَم: قرية باليمامة موصوفة بكثرة النَّخل.

فلما قال له ذلك قال عبد عمرو: أيها الملكُ! إنه هجاك بأشدَّ من ذلك. قال: وما هو؟ وأنشده:

* فليت لنا مكانَ الملكِ عمرٍو *

فقال عمرو: ما أُصَدِّقُكَ عليه – وقد صَدَّقه، ولكن خافَ أن يُنْذِرَه، وتدركه الرحِمُ. وكان عمرٌو قد نقمَ عليه أيضاً كونه شبَّب بأخته حين أشرفت عليهما في مجلس شراب فقال طرفة:

ألا لا بأبي الظَّـــــــــي الـــــــــذي يَـــــــبرقُ شَـــــــنفاهُ[1]
ولـــــــولا المِلـــــــكُ القاعِـــــــدُ قـــــــد أَلْثَمَـــــــني فـــــــاهُ

ولبث عمرو زمناً، ثم دَعَا المتلمسَ . وكان قد هجا عمرو بن هند . وطرفَة فقال: لعلّكما قد اشتقتما إلى أهلكما، وسَرَّكما أن تنصرفا.

قالا: نعم. فكتب لهما إلى أبي كَرِب عامِلِه على البحرين وعمان أن يقتلهما، وأخبرهما أنه قد كَتَبَ لهما بِحِبَاءٍ ومعروفٍ، وأعطى كل واحدٍ منهما شيئاً.

وإنما كتب إلى عامله ليقتلهما، ولم يفعل هو هذا؛ هيبة لقبيلتهما بني بكر بن وائل أن تهبَّ ثائرةً عليه، وتنكر فعله، فأراد أن يقتلهما بيد غيره. كما أنه عَلِمَ إنْ هو قَتَلَ طرفة فإن خاله المتلمِّس سيهجوه، فأراد أن يُكفى شرهما معاً.

قال المتلمس: فخرجنا حتى إذا هبطنا بذي الرِّكاب من النَّجف إذا أنا بشيخ عن يساري يتبرَّز، ومعه كِسْرَةٌ يأكلها، ويَقْصَعُ القُمَّلَ، فقلت: تاللهِ إنْ رأيتُ شيخاً أَحْمَقَ وأضعَفَ وأقلَّ عَقْلاً منك!

قال: ما تنكرُ؟ قلت: تتبرَّز، وتأكل، وتَقْصعُ القمل؟

قال: أُخرج خبيثاً، وأُدخِلُ طيباً، وأَقْتُلُ عدواً. وأحْمَقُ مني وألأَمُ حاملُ حَتْفِهِ بيمينه لا يدري ما فيه.. فنبهني وكأنما كنت نائماً.

فلقيتُ غلاماً من أهل الحِيرة يَسْقي غُنيمة له من نهر الحيرة فقلت: يا غلام أتقرأُ؟ قال: نعم.

قلت: اقرأ، فإذا فيه «باسمك اللّهم من عمرو بن هند إلى المكَعْبر، إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمِّس فاقْطَعْ يديه ورجليه، وادفنه حياً»، فألقيتُ الصحيفة في النهر، وذلك حين أقول:

أَلْقَيْتُهَـــا بالثِّـــنْيِ مِـــنْ جَنْـــبِ كَـــافِرٍ كَـــذَلِكَ أقنـــو كـــلَّ قـــطٍّ مُضَـــلِّلِ[2]
رَضِـــيتُ لهـــا لمـــا رَأَيْـــتُ مَـــدَارَهَا يَجُـــولُ بـــه التَّيَّـــارُ في كـــل جَـــدْوَلِ

(1) الشَّنْف: الذي يُلبس في أعلى الأذن، والذي في أسفلها القرط، وقيل: هما سواء.

(2) الثنيّ: مثنى النهر. والكافر ههنا: النهر، وذلك لأنه غطّى ما حوله. أقنو: أجزي. المضلل: الردي فيه الضلال.

وقلت: يا طرفةُ! معك والله مثلُها.

قال: كَلاً ما كان ليكتبَ بمثل ذلك في عقر دار قومي، ولكن حسدتني الجائزة.

فافترقا؛ ومضى المتلمس حتى لحق بملوك الغساسنة بالشام، وقال المتلمس في ذلك:

مَـــنْ مُبْلـــغُ الشُّـــعَرَاءِ عَـــنْ أَخَـــوَيْهِم   نَبَـــأً فَتَصْـــدُقَهُمْ بِـــذَاكَ الأَنْفُـــسُ

أَوْدَى الَّـــذِي عَلِـــقَ الصَّـــحِيفَةَ مِنْهُمَـــا   ونَجَـــا حِـــذَارَ حِبَائِـــهِ المـــتلَمِّسُ

أَلْقَـــى صَـــحِيفَتَهُ ونَجَّـــتْ كُـــورَهُ   وَجْنَـــاءُ محمـــرة المنَاسِـــمِ عِـــرْمِسُ[1]

عَيْرَانَـــةٌ طَـــبَخَ الهَـــوَاجِرُ لَحْمَهَـــا   فكـــأنَّ نُقْبَتَهَـــا أَدِيمٌ أَمْلَـــسُ

أَلْـــقِ الصَّـــحِيفَةَ لاَ أَبَا لَـــكَ إِنَّـــهُ   يُخْشَـــى عَلَيْـــكَ مِـــنَ الْحِبَـــاءِ النَّقْـــرِسُ

فلما قَدِمَ طرفة على عامل البحرين دفع إليه كتاب عمرو بن هند، فقرأه فقال: هل تعلمُ ما أُمرتُ به؟

قال: نعم! أُمرت أن تجيزني وتحسنَ إلي.

فقال: يا طرفةُ! بيني وبينك خُؤولةٌ أنا لها راعٍ حافظٌ؛ فاهرب في ليلتك هذه، فإني قد أُمرت بقتلك، فاخرج قبل أن تصبحَ ويعلمَ بك الناس.

فقال طرفة: اشتدَّت عليك جائزتي، فأردتَ أن أهربَ، وأجعل لعمرو بن هند عليَّ سبيلاً! كلاَّ والله لا أفعلُ ذلك أبداً!

فلما أصبح أمر بحبسه، وجاءت بنو بكر، فقالوا: ما أقدمَ طرفةُ؟

فقرأ عليهم كتاب الملك، ثم حبس طرفة ولم يقتله، وكتب إلى عمرو بن هند: «أن ابعث إلى عملك مَنْ تُريد، فإني غير قاتله»؛ فبعث عمرو بن هند رجلاً من تغلب، فاستعمله على البحرين، فقتل طرفة.

---

(1) العِرمس: الناقة الصُّلبة الشديدة.

عبد عمرو بن عمّار الطائي[1]

كان الحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني ـ لما قُتِل المنذر بن ماء السماء ـ بعثَ رجلاً من أهل بيتِهِ يُقال لهُ: الأبرد. فنزلَ بين العراق والشام، وكان يُسمَّى المليك ـ أي: ليس بملكٍ تامٍّ.

فأتاهُ عبد عمرٍو فامتدحهُ، فوصلَهُ، فلم يرضَ صلتَهُ، فهجاه وقال:

كـــأنَّ ثنـــاياهُ إذا افـــترَّ ضـــاحكاً ... رؤوسُ جـــرادٍ في رؤوسٍ تُحســـحَسُ

فقال: ويلَكم! ائتوني بجراد. فأُتِيَ بجراد، فأمرَ به فوُضِعَ على النَّار، فرآهنَّ يتحرَّكنَ، فقال: ويلكُم! إن ابن عمَّارٍ لم يَهجُني ولكن سَلَحَ عليَّ!

وكان مما هجاه به أيضاً:

قـــل للـــذي دون الصّـــها قـــيم ... ومنطـــني عنـــدنا أحلـــى مـــن الـــدبسِ
لـــو كُنــتَ كَلْــبَ قَنِــيصٍ كُنْــتَ ذَا جِــدَدٍ ... تكـــون أُرْبَتُـــهُ في آخِـــر المِـــرَسِ[2]
لَعـــوْا حَرِيصـــاً يَقُـــول القانِصـــان لـــهُ: ... قُبِّحْـــتَ ذا أنْـــفِ وَجْـــهٍ ثمَّ مُنْـــتَكِسِ
تعلَّمَـــنْ أنَّ شـــرَّ النَّـــاسِ كلِّهـــم ... الأفقـــم الأنـــفِ والأضـــراسُ كالعَـــدسِ
كـــان امـــرأً صـــالحاً فارتـــدَّ مُومســـةً ... حَمـــراً يرهِّزُهـــا رامـــي بـــني مـــرسِ
يمشـــي بطينـــاً ولمـــا يقـــضِ نَهْمَتِـــهِ ... مـــاءُ الرِّجـــالِ علـــى فَخذيـــهِ كـــالقَرَسِ

ثم إنَّ الأسود بن عامر بن جُوين الطَّائي انطلق إلى الشَّام، فنزلَ بالمليك، فنسبهُ فانتسب فعرفه، فقال: أيّ رجل ابن عمَّار فيكم؟

فقال: هو من بيتِ قليلٍ ذليلٍ.

فسرَّ المليك بما سَمِعَ، وطَمِعَ أن يُوقعَ بابن عمَّار، وقال للأسود: لا جرمَ لا تُفارقُني حتَّى أُوتَى به.

وكان ابن عمَّار لما هجا المليك وخاف على نفسه قد لجأ إلى أوس بن حارثة بن لأْمٍ الطائي. وأعطى الأسود المليكَ رهينةً من ولدِهِ، وأراد منه أن يحتال حتى يأتي بابن عمار إليه.

وأقبل الأسود إلى ابن عمار، وذكر له رهنه لولده في سبيله، وأن كلّ ما يريده المليك هو أن يعتذر إليه، فمضى معه.

---

(1) أسماء المغتالين (نوادر المخطوطات): 2/239-241، والأغاني: 24/228 (دار الفكر).

(2) الجُدد: جمع جِدّة؛ وهي القلادة في عنق الكلب. أو الجُدَد: جمع جُدّة؛ وهي العلامة من كل شيء. والأُربة: قلادة الكلب التي يُقاد بها.

إلا أن أوس بن حارثة أحسّ بالمكيدة، وحال بين الأسود وعبد عمرو، فقال الأسود: أتحولُ بيني وبين ابن عمّي؟ فدونكَ، أتُراني كنتُ مُسلِمَهُ للقتل؟!

فانطلق به إلى المليك، فأخذه وضرب عنقه. وفي ذلك يقول أبو قردودة الطائي[1]:

لقــد نَهيــتُ ابــنَ عمَّــارٍ وقلــتُ لــهُ: لا تَأْمَـــنَنْ أحمـــرَ العينـــينِ والشَّـــعَرَهْ
إنَّ الملـــــوكَ إذا حللـــــتَ ســـــاحتَهُمْ طـــارتْ بثوبِـــكَ مـــن نـــيرانِهِمْ شَـــرَرَهْ
أو يَقتُلـــــوكَ فـــــلا نِكـــــسٌ ولا وَرَعٌ عِنـــدَ اللِّقـــاءِ ولا هَوهـــاءةٌ هُمَـــرهْ[2]
يا غـــارةً كانســـجالِ السَّـــيلِ قـــد قَتَلُـــوا ومَنْطِقـــاً مثـــلَ وَشْـــيِ اليَمْنَـــةِ الحِـــبَرَهْ[3]
لقـــد نَصَـــحْتُ لـــهُ والعِـــيسُ بارِكَـــةٌ بـــينَ الحُـــدَيباءِ والمرمـــاةِ والأَمَـــرَهْ[4]
لقـــد نَهيتُـــكَ عمَّـــنْ لا كِفـــاءَ لـــهُ عنـدَ الحِفـاظِ وعـن عـوفٍ وعَـنْ قَطـرهْ
مـــا قتّلـــوهُ علـــى ذَنـــبٍ أَلَمَّ بـــهِ إلا تَواصَـــوا وقـــالوا: قَومُـــهُ خَسَـــرَهْ

وقال المليكُ للأسود بن عامرٍ:

قتلتَ ابنَ عمِّكَ مِنْ خَشينا وفي أهلِهِ يقتُلنَّ الخَشِي[5]

---

(1) والأبيات أيضاً في: الحيوان: 243/4 و332/5، والبيان والتبيين: 222/1، وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال: 11، وسمط اللآلي: 638/2.

(2) الهوهاءة: الضَّعيف الفؤاد الجبان. همار ومهمار ومهمر: أي مهذار ينهمر بالكلام.

(3) انسجال السَّيل: انصبابه وسيلانِه.

(4) الحُديباء: ماء لبني جذيمة بن مالك بن نَصر. المرماة: اسم موضع. الأَمرة: بلدٌ في ديار غنيّ.

(5) الخَشي: الخَوف. والخَشيّ: الخائف.

المنخَّل اليشكري(1)

ترجمة الشاعر:

هو شاعر ابتلاه الله بحسن ظاهر، وجمال باهر، فاستعمل ما وُهب في الإيقاع بزوجة مَلِك!

نعم.. هذا صحيح.. ترك كلّ ما حل، وتنسَّم زوجة مَنْ؟ زوجة ملك...

إنه شاعر جاهلي، والجاهلية فيها الخير ومكارم الأخلاق، وفيها الرذيلة ومساقط الكرامة.

إلا أن العرب ـ بخيّرهم وشريرهم ـ كانوا يأنفون الضيم، وأعظم الضيم عندهم العِرض؛ وللقارئ أن يتذكَّر كيف قتل عمرو بن كلثوم عمرَو بن هند لأجل أمه، أو كيف قتلت جديس طسماً لأجل الشَّموس.. فلا بدَّ أن يكون مصير هذا الشاعر هو القتل، لا سيما وقد ضُبِطَ متلبِّساً، فضلاً عما أَذاعه في شعره من مغامرات ولقاءاتٍ.

إنه المنخَّل بن مسعود بن عامر، من بني يشكر بن بكر بن وائل. شاعر جاهلي مقلّ. اشتهر بعلاقته مع المتجرِّدة زوج النعمان بن المنذر، وقد صرّح بذلك في شعره.

وقيل: إنه كان يشبِّب بأخت النعمان هنداً أيضاً، وقد ذكرها في شعره.

ولكني لا أرى إلا أن هنداً والمتجردة اسمان لشخص واحد؛ للاختلاف الحاصل في اسم المتجردة هل هو ماوية أو هند؟

وعلى كلٍّ، فقد أدى شغف المنخَّل بالمتجردة، وعلاقته بها، إلى حتفه؛ حيث ضبطهما النعمان معاً، فصدَّق ما كان يسمعهُ النظرُ، فأمر به فقُتِلَ نحو (597م).

ولكنْ.. مَنْ هي المتجرِّدة هذه التي أخذ المنخَّلُ بلبِّها؟

يُروى أن المتجرِّدة كانت عند ابن عم لها يقال له: حُلم، وهو الأسود بن المنذر بن حارثة الكلبي، وكانت أجمل أهل زمانها. فرآها المنذر بن المنذر الملك اللخمي فعَشِقَها، فجلس ذات يوم على شرابِهِ ومعه حلم وامرأته المتجرِّدة، فقال المنذر لحلمٍ: إنَّه لقبيحٌ بالرجل أن يُقيمَ على المرأة زماناً طويلاً حتَّى لا يبقى في رأسِه ولا لحيتِه شعرةٌ بيضاءُ إلا عرفتها، فهل لك أن تطلِّق امرأتَكَ المتجردةَ، وأطلِّقَ امرأتي سلمى.

قال: نعم. فأخذ كلّ واحد منهما على صاحبه عَهداً؛ فطلَّق المنذر امرأته سلمى، وطلَّق حلم امرأته المتجردة؛ فتزوَّجها المنذر، ولم يُطْلِقْ لسلمى أن تتزوَّجَ حلماً وهي أم ابنه النعمان بن المنذر – فقال النابغة الذبياني يذكر ذلك:

---

(1) الأغاني: 21/5-7، والأصمعيات: 58-61، والشعر والشعراء: 1/392.

قــد خــادعوا حُلمــاً عــن حــرّةٍ خَــرِدٍ ... حـــتى تبطَّنهـــا الخـــدّاعُ ذو الحُلُـــمِ

ثم مات المنذر بن المنذر فتزوَّجها بعده النعمان بن المنذر ابنه[1]، وكان قصيراً دميماً أبرش.

إذنْ، كان قُبح النعمان سبباً في نظر المتجردة إلى غيره، وكان هذا الغير هو المنخَّل المترع حيويةً وشباباً وحسناً وبهاء.

ولكنْ، ألم يكن المنخل يداري أحياناً لكيلا يفتضحَ؟[2]

أجل، سنحت له فرصة ذهبية؛ حيث حضر مرة مجلس النعمان، فسمع فيه قصيدة النابغة الذبياني في المتجردة التي قالها بناء على إلحاح النعمان، فلما سمع قول النعمان وقد أفحش في وصف جسد المتجردة:

فـــإذا لَمســـتَ لمســـتَ أجْـــثَمَ جاثِمـــاً ... متحيـــزاً بمكانِـــهِ مـــلءَ اليـــدِ

وإذا طَعَنـــتَ طعنـــتَ في مســـتهدفٍ ... رابي المجسّـــةِ ، بالعَبـــيرِ مُقَرْمَـــدِ

وإذا نَزعـــتَ نزعـــتَ عـــن مستحصـــفٍ ... نَـــزْعَ الحَـــزَوَّرِ بالرّشـــاءِ المحْصَـــدِ[3]

وإذا يعـــضّ تَشُـــدُّهُ أعضـــاؤهُ ... عَـــضَّ الكَبـــيرِ مِـــنَ الرّجـــالِ الأدردِ

ويكـــادُ ينـــزِعُ جِلـــدَ مَـــنْ يُصْـــلى بـــهِ ... بلـــوافحٍ ، مثـــلِ السّـــعيرِ الموقَـــدِ

غار المنخل من ذلك، وقال للنعمان: هذه صفةُ معاينٍ.

فهمَّ النعمان بقتل النابغة حتى هرب منه[4]، وخلا المنخل بمجالسته. ثم دارت الدائرة عليه، وضبطه النعمان متلبساً، فأمر به فقُتل نحو (603م).

مقتل المنخل على يد النعمان:

قلنا: إن المنخَّل بلغت به الجرأةُ أَنْ ذكرَ المتجرِّدة في شعره، حيث قال:

إن كنـــتِ عـــاذلتي فسِـــيري ... نحـــوَ العـــراقِ ولا تَحـــوري

لا تســـألي عـــن جُـــلِّ مـــا ... لي واذكـــري كرَمـــي وخِـــيري

وإذا الـــــرِّياحُ تناوحَـــــتْ ... بجوانـــبِ البيـــتِ الكســـيرِ

---

(1) وكان زواج الابن من زوجة أبيه جائزاً في الجاهلية، وكانوا يسمُّونه زواج المقت، لكرههم له.

(2) الأغاني: 2/21-3.

(3) الحزوَّر: القوي. المحصد: الشديد الفتل.

(4) ستمر قصته في الفصل الثاني.

ألفيتِــــــــني هــــــشَّ النـــــــديّ	بِشـــــجير قِــــدحي أو شَـــجيري[1]
وَنَهَـــــى أبـــــو أفعــــى فقلّــــــ	ـــــدني أبـــو أفعـــى جريـــــري[2]
وجُلالـــــــــــةٍ خطّـــــــــارةٍ	هوجــــاءَ جائلــــةَ الضُّـــــفورِ[3]
تعـــدو بأشـــعثَ قـــد وَهَـــى	سِـــــرِبالُهُ باقـــــي المســـــيرِ
فُضُــــلاً علـــى ظهـــرِ الطَّريـــقِ	إليـــكَ علقمـــــةَ بـــنَ صـــيرِ
الواهــــــبُ الكـــــومَ الصّـــــفا	يا والأوانـــــــسِ في الخُـــــدورِ[4]
يُصــــــفيكَ حـــــينَ تجيئُــــــهُ	بالعَصْــــب والحَلْــــي الكثـــيرِ
وفـــــوارسٍ كـــــأُوارِ حـــــرّ	النـــــارِ أحــــلاسِ الــــذُّكورِ[5]
شــــدُّوا دوابـــــرَ بيضِــــهم	في كــــلّ محكمــــةِ القتـــــيرِ[6]
فاســـــــتلأموا وتَلَبَّبُــــــوا	إنَّ التلبّـــــــبَ للمُغــــــــيرِ
وعلــــى الجيــــادِ المضــــمَرا	تِ فـــوارسٌ مثــــل الصُّــــقورِ
يَخْــــرجنَ مـــن خَلَـــلِ الغبـــا	ر يَجِفْـــــن بالــــنَّعَمِ الكثـــيرِ
فشــــفيتُ نفســـي مـــن أولـــــ	ــــئكَ والفـــــوائحِ بالعبـــــيرِ
يـــــرفُلنَ في المســــكِ الـــذكيّ	وصـــــائكٍ كــــدَمِ النّحـــــيرِ[7]
يعكُفْـــنَ مثـــلَ أســـاودِ التَّـــــ	ـــــنومِ لم تُعكَــــفْ لِــــزورِ
ولقـــد دخلـــتُ علـــى الفتـــا	ةِ الخِـــدرَ في اليـــومِ المطـــيرِ
الكاعــــبِ الحســــناءِ تـــــر	فُـــلَ في الـــدِّمَقْسِ وفي الحريـــرِ
فـــــــدفعتُها فتـــــــدافَعَتْ	مَشْــــيَ القطـــاةِ إلى الغـــديرِ
ولثمتُهــــــا فتنفَّســـــــــتْ	كتـــــنفُّسِ الظَّـــــبي البَهـــــيرِ

(1) القِدح الشَّجير: هو المستعار الذي يُتيمَّنُ بفوزهِ. والشَّجير: قِدح يكون مع القِدّاح غريباً من غير شجرتها، وقيل: هو الرَّديء.
(2) الجرير: الزّمام، وحبل يُجعل للبعير بمنزلة العِذار للدابة. والمراد منعه أن يعمل ما يريد.
(3) الجلالة الخطارة: الناقة المسِنَّة تضرب بذنبها يميناً وشمالاً. الضَّفور: جمع ضَفْر؛ وهو مايُشدّ البعير به من مضفور.
(4) الكُوم: جمع كوماء؛ وهي الناقة العظيمة السّنام. الصَّفايا: النُّوق الغزيرة اللَّبن.
(5) الأوار: اللَّهب والوَهج. الأحلاس: جمع حِلْس؛ وهو كل شيء وَلِي ظهر الدابة تحت السَّرج ونحوه. ويقال: فلان من أحلاس الخيل؛ أي هو من الفروسية ولزوم الخيل كالحلس اللازم لظهر الفرس.
(6) القتير: رؤوس مسامير الدّروع.
(7) الصَّائك: وَصْف من صاكَ الطيب يصيك: لزق.

فَـدَنَتْ وقالـت: يا مُنَخَّـلُ   مـا بجسـمِكَ مـن فُتـورِ

مـا شـفَّ جسـمي غـيرُ حُبِّـ   ـك فاهـدئي عـنّي وسـيرِي

وأُحبُّهـا وتُحِبُّـني   ويُحِـبُّ ناقتَهـا بعِـيري

ولقـد شـربتُ مـن المـدا   مَـةِ بالصَّـغيرِ وبالكبـيرِ

ولقـد شـرِبتُ الخمـرَ بالـ   خيـلِ الإناثِ وبالـذُّكورِ

ولقـد شـرِبتُ الخمـر بالـ   ـعبدِ الصـحيحِ وبالأَسِـيرِ

فـإذا سـكِرْتُ فـإنَّني   ربُّ الخوَرْنَـق والسَّـديرِ

وإذا صـحوتُ فـإنَّني   ربُّ الشُّـوَيْهةِ والبعـيرِ

يا رُبَّ يـومٍ للمنخَّـلِ   قـد لهـا فيـه قصـيرِ

يا هنـدُ هـل مـن نائـلٍ   يا هنـدُ للعـاني الأسـيرِ

ومما زاد في افتضاح الأمر وشيوعه أنَّ المتجردة قد أنجبتْ غُلامين جميلين يُشبهان المنخَّل، حتى أن العرب كانت ترميه بهما.

ولما كان كلّ سرّ لا بدّ أن يفتضحَ، وكلّ جواد لا بد أن يكبو؛ فقد أُتِي المخبل من مَأمنه؛ إذ كان للنعمان يومٌ يَركب فيه فيطيلُ المكثَ، وكان المنخَّل يأتي المتجردة في ذلك اليوم الذي يركبُ فيه النعمان، فيطيلُ عندها، حتى إذا جاء النعمان آذنتها بمجيئِهِ وليدةٌ لها موكَّلةٌ بذلك فتخرجُهُ.

وذات يومٍ، ركبَ النعمانُ، وأتاها المنخّل كما كان يأتيها، فلاعبتهُ، وأخذت قيداً فجعلتْ إحدى حَلقتيه في رجلِهِ، والأخرى في رجلِها، وغفلتِ الوليدةُ عن ترقّبِ النعمانِ؛ لأن الوقت الذي يجيء فيه لم يكن قَرُبَ بعد. وأقبل النعمان حينئذ، ولم يُطل في مُكثه كما كان يفعل؛ فدخل إلى المتجرّدة فوجدها مع المنخل قد قيّدت رِجلَها ورجلَهُ بالقيد؛ فأخذه النعمان فدفعه إلى عكب صاحب سجنه ليعذبه، فعذَّبه حتى قتله. وكذلك جزاء المعتدين

حية بن حباب الطابخي[1]

يُروى أن رجلاً من طابخة ، يقال له حباب، وكان شجاعاً فاتكاً، قد قتل رجلاً من بني حباب بن هبل بن كلب بن وَبرة، فَرَهَنَهُم بالدِّية امرأته وابنه حية، وهو صغير، وخرج حُباب في جمع الدِّيَة، فهلك.

وبقيت امرأته وابنه في يدي كلب بن وَبرة، وشبَّ ابنه حية، فشبَّ أحسن فتًى في العرب وأوضأهم، فَعَلِقَ جاريةً من جواري الحيّ، وعَلِقَتْهُ، وفسدتْ به فساداً شديداً، حتى جلس نسوة من كلب ذات ليلة يلعبن، ويتذاكران الشراب، ففطنَّ به، وسمعت بذلك كَلب، وكان قد عَلِق فتاةً منهم ، فطلبته كلب؛ فخرج هارباً، فأدركه أخوها، فرماه حية فقتله.

وانطلق، فلحق بقوم من بلقين، فاستجار بهم، فأجاروه، فعاث في نسائهم، وعلقته امرأةٌ منهم، فطلبته بلقين فأعجزهم.

وهرب حتَّى أتى أمه ليلاً، فقالت : ويلَكَ! إن القوم قاتلوك.

فقال : والله ما أجدُ مذهباً.

فأخفته، وذَكَرَتْ ذلك لظِئرٍ لها، هو أخو ابن لها أرضعته، فقالت : أرسليه.

فأرسلته إليها، فأخذته، فخيَّطت عليه عباءة، فجعلته كهيئة الكرز[2]، ثم طرحته بفناء بيتها، حتى مر بها عدي بن أوس الكلبي، فقالت : يا عديُّ! إني قد أردت أن أَظعنَ، وإني أُريدُ أن تُجيرَ لي كُرزي هذا، وما فيه.

قال : قد أَجرتُهُ. وأمر به، فَحُمِلَ إلى بيته، فلما نَظَرَ إلى الكُرزِ أنكره، ففتَّشَهُ؛ فإذا فيه حيّة، فقال: لا أنعمَ الله بكَ عَيناً . ولكن أجاره.

وبرز حيّة في القوم، فقالت له أمه: ويلَك! مهلاً عن نساء الحي.

فلم يلتفت إليها، ورأته ابنة عدي، فَعَلِقَتْهُ وعَلِقَها، فمكثت بذلك مدة، وعدي لا يعلم، حتى قال حيّة:

مـــا زِلــتُ أطــوِي الحَــيَّ أسمَــعُ حِسَّــهُم، حـــتى وَقَعـــتُ علـــى رَبيبَـــةِ هَـــوْدَجِ
فَوَضَــعتُ كفّــي عِنــدَ مَقطــعِ خصــرِها، فَتَنَفّسَـــــتْ بُهْـــــراً، وَلمـــــا تَـــــنْهَجِ
وَتَنَاوَلَـــــتْ رَأسِـــــي لِتَعـــــرِفَ مَسَّـــــهُ، بمُخَضَّـــبِ الأطـــرَافِ غَـــيرِ مُشَـــنَّجِ
قالَـــت: وَعَـــيشِ أبي وَنَعمـــةِ وَالـــدي، لأُنـــــبّهنَّ الحـــــيَّ إنْ لم تَخـــــرُجِ

---

(1) مصارع العشاق: 276/2، وتزيين الأسواق: 10/2.

(2) الكُرز: خُرج الراعي.

فخرجـــــتُ خِيفــــةَ أَهلِهـــا فتبسَّـــمتْ فَعلِمـــــــتُ أنّ يَمينَهـــــــا لَمْ تُحـــــرَجِ

فلما بلغ عدي بن أوس الخبر، وأُنشدَ الشعرَ، أَمر بحيَّة فَرُبِطَ، ثم أُخرج إلى خارجِ البيوت؛ فقُتِلَ .

أبو عزّة الجُمحَي[1]

ترجمته:

هوَ أَبُو عَزَّةَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُهَيْبِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ جُمَحَ؛ شاعرٌ من قريشٍ.

وكان أبو عزَّة قد أصابه مَرض وسقي ببطنه، فأخرجته قريش من مكة مخافةَ العدوى. فلما طال عليه البَلاء أَخَذَ مُدية فَوَجَأَ بها بطنه ليستريحَ مما كان فيه، فَسَالَ الماءُ من بَطنِهِ وبَرِئَ، وذهب مرضه، وعاد صحيحاً سليماً فأنشأ يقول:

لا هُـــــــمَّ رَبَّ وائـــــــلٍ ونَهْـــــــدِ ... والـــــيعملاتِ والخيـــــول الجُـــــردِ
ورَبَّ مَـــــن يَسْـــــعَى بأَرضِ نَجْـــــدِ ... أَصـــبحتُ عبـــداً لـــكَ وابـــن عَبْـــدِ
أَبـــــرأْتَ مـــــني بَرصـــــاً بِجِلـــــدي ... مـــن بعـــدِ مـــا طعنـــتُ في مَعَـــدِّ

فرجع إلى مكة.

وأدركَ الإسلام، ولم يُسلم، بل انضمَّ إلى جَمعِ المشركين يُعينهم على النَّبي ﷺ، حتى كانت نهايته بأن قَتَلهُ النبي ﷺ صَبراً بعد غزوة أحد، سنة ثلاث للهجرة.

مقتله على يد النبي ﷺ:

خرجَ أبو عزَّة مع قومه بني جُمح في جيش قريش، لما بلغهم أن النبي ﷺ يريد قافلة أبي سفيان، فلما بلغوا بدراً، واقتتل المسلمون والمشركون، أنزل الله نصرَهُ على عباده المؤمنين، ونصرهم بنصره المبين؛ فقتلَ المسلمون وأسروا. وكان من جملةِ مَنْ أسروا أبو عزَّة. وكان رجلاً فقيراً لا مالَ له يفتدي به نفسه، وكان ذا عيالٍ، فَكَلّمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَقَدْ عَرَفْتَ مَا لِي مِنْ مَالٍ، وَإِنّي لَذُو حَاجَةٍ وَذُو عِيَالٍ؛ فَامْنُنْ عَلَيّ صلّى الله عليكَ.

فقال ﷺ: «على ألا تعينَ عليَّ» – يريد بشعره.

فقال: نعم. فَعاهده، وأطلقه، فَقَالَ أَبُو عَزّةَ فِي ذَلِكَ يَمْدَحُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَيَذْكُرُ فَضْلَهُ فِي قَوْمِهِ:

مَـــنْ مُبلِـــغٌ عَـــنّي الرّسُـــولَ مُحَمّـــداً ... بِأَنّـــكَ حَـــقٌ وَالْمَلِيـــكُ حَمِيـــدُ
وَأَنْـــتَ امْـــرُؤٌ تَـــدْعُو إلَى الحَـــقِّ وَالْهُـــدَى ... عَلَيْـــك مِـــنْ اللهِ الْعَظِـــيمِ شَـــهِيدُ
وَأَنْـــتَ امْـــرِؤٌ بُوّئْـــتَ فِينَـــا مَبَـــاءَةً ... لَهَـــا دَرَجَـــاتٌ سَـــهْلَةٌ وَصُـــعُودُ

---

(1) نسب قريش: 397-398، وطبقات فحول الشعراء: 252/1-255، وأسماء المغتالين (نوادر المخطوطات): 263/1، وسيرة ابن هشام: 228/2-229 و50/3 و83، والسنن الكبرى للبيهقي: 65/9.

فَإِنّــــك مَـــــنْ حَارَبْتـــــه لَمُحَـــــارَبٌ شَـــــقِيٌّ وَمَـــــنْ سَـــــالَمْتَهُ لَسَـــــعِيدُ
وَلَكِـــــنْ إِذَا ذُكِّـــــرْتُ بَـــــدْراً وَأَهْلَـــــهُ تَأَوَّبَ مَـــــا بِي حَسْـــــرَةٌ وَقُعُـــــودُ

فلما كان يومُ أُحدٍ، دعاه صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بن خلفٍ الجُمحي ـ وهو سيد جمح يومئذٍ ـ فقال: يَا أَبَا عَزّةَ! إنّك امْرُؤٌ شَاعِرٌ فَأَعِنّا بِلِسَانِك، فَاخْرُجْ مَعَنَا.

فَقَالَ: إنّ مُحَمّداً قَدْ مَنَّ عَلَيّ، فلا أُرِيدُ أَنْ أُظَاهِرَ عَلَيْهِ.

فقَالَ: فَأَعِنّا بِنَفْسِك، فَلَك اللهُ عَلَيّ إنْ رَجَعْتُ أَنْ أُغْنِيَكَ، وَإِنْ أُصِبْتَ أَنْ أَجْعَلَ بَنَاتَك مَعَ بَنَاتِي؛ يُصِيبُهُنّ مَا أَصَابَهُنَّ مِنْ عُسْرٍ وَيُسْرٍ.

فَخَرَجَ أَبُو عَزّةَ فِي تِهَامَةَ، يَدْعُو بَنِي كِنَانَةَ وَيَقُولُ:

إيهـــــاً بَـــــنِي عَبْـــــدِ مَنَـــــاةَ الـــــرُّزَّامْ أَنْـــــتُمْ حُمَـــــاةٌ وَأَبُـــــوكُمْ حَـــــامْ[1]
لا تَعِـــــدُونِي نَصْـــــرَكُمْ بَعْـــــدَ العَـــــامِ لا تُسْـــــلِمُونِي، لا يَحِـــــلّ إِسْـــــلامْ

فلمَّا وقع للمسلمين ما وقع في أُحد، وخرج النبي ﷺ إلى حمراء الأسد لينال من قريش، كان أبو عزّة قد تخلَّف عن قريش؛ فظفر به رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! أقلني.

فقال : «لا والله، لا تسمح عارضيك بمكة تقول: خَدعتُ محمَّداً مرتين.. لا يُلدغُ المؤمنُ مِنْ جُحرٍ مرَّتينِ».

ثم أمر عاصم بن ثابت فضرب عنقه. ولم تعبأ قريش بقتله؛ لأنه كان فقيراً غير ذي سيادة في قومه، وهو الوحيد من مشركي مكة الذي وقع في أسر المسلمين يوم أحد؛ إذ كان المسلمون في شُغل عن الأسر بما أصابهم وأصاب نبيّهم ﷺ.

وهكذا، حقَّ فيه قول أبي الطيب المتنبي:

إذا أنـــــتَ أكرمـــــتَ الكـــــريمَ ملكْتَـــــهُ وإنْ أنـــــتَ أكرمـــــتَ اللئـــــيمَ تمـــــرَّدا

(1) الرُّزّام: جمع رازم؛ وهو الرجل يثبت في مكانه من شدّته في الحرب.

كعب بن الأشرف[1]

ما ظنّك برجل شاعر آذى الله ورسوله، وسعى في الأرض ليفسد فيها.. هل ترى له مصيراً محقَّقاً غير القَتل؟

إنه شاعرٌ بلغت به الجرأةُ وعمى القلب والبصر أَنْ حرَّض على النبي ﷺ، ونفث سمّه في صدور كليمةٍ أعماها الضلال بعد غزوة بدر لتطلب بالثأر لقتلاها.

وليته توقف عند ذلك الحدّ، بل تابع مسيرته الشيطانية، فجعل يلوك بشعره أعراض المسلمين، ويشبِّب بنسائهم، ويتعرَّض به للنبي ﷺ.

فما كان من النبي الكريم الذي لم ينتصر لنفسه[2]، بل كان كلّ همّه وحدة الصفِّ الإسلامي، والحفاظ على كرامة المسلمين؛ أنْ أرسل سريةً إلى ذلك الفاجر العقرب المفسد ليقطع به دابر الشيطان.

ترجمة الشاعر:

إنَّهُ كعب بن الأشرف الطَّائي، أصاب أبوه دماً في الجاهلية، فأتى المدينة، وحالفَ بني النضير؛ فَشَرُفَ فيهم، وتزوَّجَ عقيلة بنت أبي الحقيق، فولدت كعباً.

ونشأ كعبٌ في يهود بني النضير، وتَبِعَ دينَهم، وتشرَّبَ منهم الخبثَ والبغضَ للدين الإسلامي.

وشاركَ قومه اليهودَ في العديد من المؤامرات، نذكر منها:

- محاولة قتل النبي ﷺ بدعوته إلى الطعام، ثم إلقاء حجر عليه من أعلى البيت؛ ولكنَّ جبريل أمين وحي السماء أعلمه بالمؤامرة، فأُحبطت.

- الاستهزاء بالنبي ﷺ لما تحوَّلت القبلة إلى الكعبة المشرَّفة، وطلبهم أن يعود إلى قبلة الأقصى حتى يؤمنوا به، فأجابهم الله بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾...... وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ

---

(1) سيرة ابن هشام: 3/43-47، ودلائل النبوة للبيهقي: 3/187-200، وصحيح البخاري (الحديث 4037)، وصحيح مسلم (الحديث 1801)، وسنن أبي داود (الحديث 2768)، وطبقات ابن سعد: 2/31-34، وفتح الباري: 8/4647-4651، وتاريخ الأمم والملوك: 2/487-491، والكامل في التاريخ: 2/34-37، والبداية والنهاية: 4/8-10.

(2) إنَّ المرّة الوحيدة التي أراد بها النبي ﷺ أن ينتصر لذاته النبوية هي في غزوة أحد بعد أن كُسرت رباعيته، وشجّ رأسه، وسالتْ دماؤه، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ؛ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ». فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: 128].

﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 142، 145].

إلا إنَّهُ نصَّب نفسه زعيماً لمؤامرة عظيمة أراد بها الإيقاع بالمسلمين، واجتثاث دولتهم الموحّدة؛ وذلك بعد غزوة بدر، فأهمدَ اللهُ جثته على يد ثلّةٍ من المؤمنين الصادقين.

مقتل كعب على يد الأنصار:

لَمّا أُصِيبَ أَصْحَابُ بَدْرٍ من المشركين، وكان النصر حليف نبيّ المسلمين؛ قَدِمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ إِلَى أَهْلِ السّافِلَةِ ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ إِلَى أَهْلِ الْعَالِيَةِ بَشِيرَيْنِ بَعَثَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى مَنْ بِالْمَدِينَةِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِفَتْحِ اللهِ ﷻ عَلَيْهِ، وقَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ.

فلمَّا بلغَ كَعْبَ بْنَ الأَشْرَفِ الْخَبَرُ قال: أَحَقٌّ هَذَا؟ أَتَرَوْنَ مُحَمّداً قَتَلَ هَؤُلاءِ الّذِينَ يُسَمّي هَذَانِ الرّجُلانِ – يَعْنِي زَيْداً وَعَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ – فَهَؤُلاءِ أَشْرَافُ العَرَبِ، وَمُلُوكُ النّاسِ. وَاَللّهِ لَئِنْ كَانَ مُحَمّدٌ أَصَابَ هَؤُلاءِ الْقَوْمَ لَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ ظَهْرِهَا.

فَلَمّا تَيَقّنَ عَدُوّ اللهِ الْخَبَرَ خَرَجَ حَتّى قَدِمَ مَكّةَ، ساعياً في إلهاب مشاعر الثأر. فَنَزَلَ عَلَى الْمُطّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ بْنِ ضُبَيْرَةَ السّهْمِيّ وَعِنْدَهُ عَاتِكَةُ بِنْتُ أَبِي الْعِيصِ بْنِ أُمَيّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، فَأَنْزَلَتْهُ وَأَكْرَمَتْهُ. وَجَعَلَ يُحَرّضُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيُنْشِدُ الأَشْعَارَ، وَيَبْكِي أَصْحَابَ الْقَلِيبِ مِنْ قُرَيْشٍ، الّذِينَ أُصِيبُوا بِبَدْرٍ، فقال:

طَحَنَتْ رَحَى بَدْرٍ لِمَهْلِكِ أَهْلِهِ ... وَلِمِثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلّ وَتَدْمَعُ[1]
قُتِلَتْ سَرَاةُ النّاسِ حَوْلَ حِيَاضِهِمْ ... لا تَبْعَدُوا إنّ الْمُلُوكَ تُصَرّعُ
كَمْ قَدْ أُصِيبَ بِهِ مِنَ ابْيَضَ مَاجِدٍ ... ذِي بَهْجَةٍ يَأْوِي إلَيْهِ الضُّيَّعُ
طَلْقُ الْيَدَيْنِ إذَا الْكَوَاكِبُ أَخْلَفَتْ ... حَمّالُ أَثْقَالٍ يَسُودُ وَيَرْبَعُ[2]
وَيَقُولُ أَقْوَامٌ أُسَرّ بِسُخْطِهِمْ: ... إنّ ابْنَ الاشْرَفِ ظَلّ كَعْباً يَجْزَعُ
صَدَقُوا فَلَيْتَ الأَرْضَ سَاعَةَ قُتّلُوا ... ظَلّتْ تَسُوخُ بِأَهْلِهَا وَتُصَدّعُ
صَارَ الّذِي أَثَرَ الْحَدِيثَ بِطَعْنِهِ ... أَوْ عَاشَ أَعْمَى مُرْعَشاً لا يَسْمَعُ
نُبّئْتُ أَنّ بَنِي الْمُغِيرَةِ كُلّهُمْ ... خَشَعُوا لِقَتْلِ أَبِي الْحَكِيمِ وَجُدّعُوا

---

(1) رحى الحرب: معظمها، ومجتمع القتال. تستهلّ: تسيل بالدّمع.

(2) طَلق اليدين: كثير المعروف والكرم. أخلفت: لم يكن معها مطر، وكانت العرب تنسب المطر إلى الكواكب فتقول: «مُطرنا بنوء كذا»، وقد نهانا النبي ﷺ عن اعتقاد ذلك وقوله. يَربَع: أي يأخذ ربع الغنيمة.

وَابْنَـــا رَبِيعَـــةَ عِنْـــدَهُ وَمُنَبِّـــهٌ | مَـــا نَالَ مِثْـــلَ الْمُهْلِكِـــينَ وَتُبَّـــعُ
نُبِّئْـــتُ أَنّ الحَــارِثَ بْـــنَ هِشَـــامِهِمْ | فِي النّـــاسِ يَبْـــنِي الصّـــالِحَاتِ وَيَجْمَـــعُ
لِيَـــزُورَ يَثْـــرِبَ بِالْجُمُـــوعِ وَإِنّمَـــا | يَحْمِـــي عَلَـــى الْحَسَـــبِ الْكَـــرِيمُ الأَرْوَعُ

وأراد أبو سفيان أن يستقوي بقدومه على طلب الثأر، فقال له أبو سفيان: أناشدك الله أدينُنا أحبُّ إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأيُّنا أهدى في رأيك وأقربُ إلى الحق؟ فإنَّا نُطعِمُ الجزورَ الكَوماء، ونَسقي اللبن على الماء، ونطعمُ ما هبَّت الشمال.

فقال ابن الأشرف: أنتم أهدى منهم سبيلاً.

ثم رجع مقبلاً إلى المدينة، وقد أجمع رأي المشركين على قتال رسول الله ﷺ، معلناً بعداوته وهجائه، فأنزل الله فيه وفي قريش: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النِّساء: 51-52].

وفي المدينة، بدأ بنفسه حرباً نفسية كلامية، حيث شبَّب بأم الفضل بنت الحارث زوج العباس عمّ النبي ﷺ فقال:

أَرَاحِـــلٌ أنـــتَ لم تَحلُـــلْ بِمَنقَبَـــةٍ | وتاركٌ أنـــتَ أمَّ الفضـــلِ بالحَـــرَمِ
صَـــفراءُ رادعـــةٌ لـــو تُعصَـــرُ انعصَـــرَتْ | مـــن ذي القـــواريرِ والحِنَّـــاءِ والكَـــتَمِ
يَـــرتَجّ مـــا بـــين كَعبَيهـــا ومِرفَقِهـــا | إذا تَأَتَّـــتْ قِيامـــاً ثم لم تَقُـــمِ
أَشـــباهُ أُمّ حكـــيمٍ إذْ تُواصِـــلُنا | والحبـــلُ منهـــا مَتـــينٌ غَـــيرُ مُنجَـــذِمِ
إِحـــدَى بَـــنِي عـــامرٍ جُـــنَّ الفُـــؤادُ بهـــا | ولـــو تشـــاءُ شَـــفَتْ كَعبـــاً مـــن السَّـــقمِ
فَـــرْعُ النِّســـاءِ وفَـــرْعُ القَـــومِ وَالـــدُها | أهـــلُ التَّحِلَّـــةِ والإيفـــاءِ بِالـــذِّمَمِ
لَم أَرَ شَمسَـــاً بِليـــلٍ قَبلَهـــا طَلَعَـــتْ | حـــتَّى تَجَلَّـــتْ لَنـــا في ليلـــةِ الظُّلَـــمِ

ثم شبَّب بنساء من نساء المسلمين حتى آذاهم، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ.

قَالَ: «فافعل إنْ قدرتَ على ذلكَ».

فَرَجَعَ مُحَمّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَمَكَثَ ثَلاثًا لا يَأْكُلُ وَلا يَشْرَبُ إلا مَا يُعْلِقُ بِهِ نَفْسَهُ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَدَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ:«لِمَ تَرَكْتَ الطّعَامَ وَالشّرَابَ؟».

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! قُلْت لَك قَوْلاً لا أَدْرِي هَلْ أَفِيَنّ لَك بِهِ أَمْ لا؟

فَقَالَ: «إِنَّمَا عَلَيْك الْجُهْدُ».

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إنّهُ لا بُدّ لَنَا مِنْ أَنْ نَقُولَ.

قَالَ: «قُولُوا مَا بَدَا لَكُمْ، فَأَنْتُمْ فِي حِلٍّ مِنْ ذَلِكَ».

فَاجْتَمَعَ فِي قَتْلِهِ مُحَمّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ، وَسِلْكَانُ بْنُ سَلامَةَ بْنِ وَقْشٍ وَهُوَ أَبُو نَائِلَةَ أَحَدُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ ، وَكَانَ أَخَا كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ مِنْ الرّضَاعَةِ، وَعَبّادُ بْنُ بِشْرِ بْنِ وَقْشٍ أَحَدُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، وَالْحَارِثُ بْنُ أَوْسِ بْنِ مُعَاذٍ أَحَدُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، وَأَبُو عَبْسِ بْنِ جَبْرٍ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ.

فَأَتَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ ـ يعني النبي ﷺ ـ قَدْ سَأَلَنَا صَدَقَةً، وَإِنَّهُ قَدْ عَنَّانَا، وَإِنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ أَسْتَسْلِفُكَ.

قَالَ كعبٌ: وَأَيْضاً وَاللَّهِ لَتَمَلُّنَّهُ.

قَالَ مسلمة: إِنَّا قَدْ اتَّبَعْنَاهُ، فَلَا نُحِبُّ أَنْ نَدَعَهُ، حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ شَأْنُهُ، وَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ تُسْلِفَنَا طعاماً.

فَقَالَ: نَعَم، ارْهَنُونِي.

قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ تُرِيدُ؟

قَالَ: ارْهَنُونِي نِسَاءَكُمْ.

قَالُوا: كَيْفَ نَرْهَنُكَ نِسَاءَنَا، وَأَنْتَ أَجْمَلُ الْعَرَبِ؟ – وإنما قالوا هذا لتعجبه نفسه، ويُضرِبَ عن هذا الطلب.

قَالَ: فَارْهَنُونِي أَبْنَاءَكُمْ.

قَالُوا: كَيْفَ نَرْهَنُكَ أَبْنَاءَنَا فَيُسَبُّ أَحَدُهُمْ فَيُقَالُ رُهِنَ بِوَسْقٍ أَوْ وَسْقَيْنِ(1)، هَذَا عَارٌ عَلَيْنَا، وَلَكِنَّا نَرْهَنُكَ السِّلاحَ.

فخرج من عنده على ميعاد، فأتى أصحابه فأخبرهم، فأجمعوا أمرهم على أن يأتُوه إذا أمسى، ثم أتوا رسول الله ﷺ فأخبروه، فمشى معهم حتى أتى البقيعَ، ثم وجَّههم، وقال: «امضُوا على بركةِ الله وعونِهِ».

فمضوا ـ وكانت الليلة قمراء ـ حتى انتهوا إلى حصنه، فهتفَ له أبو نائلة فوثبَ، فأخذت امرأته بملحفته ـ وكان حديث عهد بعُرس ـ وقالت: أسمعُ صوتاً كأنَّهُ يقطرُ دماً.

---

(1) الوَسق: مكيلة معلومة، وهي ستون صاعاً، والصاع خمسة أرطال وثلث.

فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَأَخِي أَبُو نَائِلَةَ، إِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ دُعِيَ إِلَى طَعْنَةٍ بِلَيْلٍ لأَجَابَ.

ودخل مع محمد بن مسلمة وأبي نائلة أَبُو عَبْسِ بْنُ جَبْرٍ وَالْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ. فَقَالَ أبو نائلة لهم: إِذَا مَا جَاءَ فَإِنِّي قَائِلٌ بِشَعَرِهِ فَأَشَمُّهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي اسْتَمْكَنْتُ مِنْ رَأْسِهِ فَدُونَكُمْ فَاضْرِبُوهُ.

فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ كعبٌ مُتَوَشِّحاً وَهُوَ يَنْفَحُ مِنْهُ رِيحُ الطِّيبِ، فَقَالَ أبو نائلة: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ رِيحاً أَطْيَبَ!

فقَالَ كعبٌ وقد أعجبته نفسه: عِنْدِي أَعْطَرُ نِسَاءِ الْعَرَبِ، وَأَكْمَلُ الْعَرَبِ.

فَقَالَ أبو نائلة: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَشُمَّ رَأْسَكَ.

قَالَ: نَعَمْ؛ فَشَمَّهُ، ثُمَّ أَشَمَّ أَصْحَابَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَأْذَنُ لِي ثانيةً. قَالَ: نَعَمْ.

فَلَمَّا اسْتَمْكَنَ مِنْهُ قَالَ لأصحابه: اضْرِبُوا عَدُوّ اللهِ فَضَرَبُوهُ.

فَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَسْيَافُهُمْ، فَلَمْ تُغْنِ شَيْئًا.

قَالَ مُحَمّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ:

فَذَكَرْتُ مِغْوَلاً[1] فِي سَيْفِي ، حِينَ رَأَيْتُ أَسْيَافَنَا لا تُغْنِي شَيْئًا؛ فَأَخَذْتُهُ وَقَدْ صَاحَ عَدُوّ اللهِ صَيْحَةً لَمْ يَبْقَ حَوْلَنَا حِصْنٌ إلاّ وَقَدْ أُوقِدَتْ عَلَيْهِ نَارٌ. فَوَضَعْته فِي ثُنّتِهِ[2]، ثُمّ تَحَامَلْتُ عَلَيْهِ حَتّى بَلَغْتُ عَانَتَهُ؛ فَوَقَعَ عَدُوّ اللهِ. وَقَدْ أُصِيبَ الْحَارِثُ بْنُ أَوْسِ بْنِ مُعَاذٍ، فَجُرِحَ فِي رَأْسِهِ أَوْ فِي رِجْلِهِ؛ أَصَابَهُ بَعْضُ أَسْيَافِنَا.

فَخَرَجْنَا حَتّى سَلَكْنَا عَلَى طريق بَنِي أُمَيّةَ بْنِ زَيْدٍ، ثم طريق بَنِي قُرَيْظَة ، ثُمّ عَلَى طريق بُعَاثٍ، حَتّى أَسْنَدْنَا فِي حَرّةِ العَرِيضِ، وَقَدْ أَبْطَأَ عَلَيْنَا صَاحِبُنَا الحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ، وَنَزَفَهُ الدّمُ، فَوَقَفْنَا لَهُ سَاعَةً، ثُمّ أَتَانَا يَتْبَعُ آثَارَنَا. فَاحْتَمَلْنَاهُ، فَجِئْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ آخِرَ اللّيْلِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلّي، فَسَلّمْنَا عَلَيْهِ فَخَرَجَ إلَيْنَا.

فَأَخْبَرْنَاهُ بِقَتْلِ عَدُوّ اللهِ، وَتَفَلَ عَلَى جُرْحِ صَاحِبِنَا فَبَرِئَ، فَرَجَعَ وَرَجَعْنَا إِلَى أَهْلِنَا، فَأَصْبَحْنَا وَقَدْ خَافَتْ يَهُودُ لِوَقْعَتِنَا بِعَدُوّ اللهِ؛ فَلَيْسَ بِهَا يَهُودِيّ إلاّ وَهُوَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ.

وقد كان مقتله في شهر ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة النبوية.

---

(1) المِغول: السكّين التي تكون في السوط.

(2) الثنَّة: ما بينَ السرَّةِ والعانة.

سالم بن دارة[1]

ترجمتُهُ:

هو سالم ابن دارة، واسم أبيه مُسافع، ابن عُقبة بن يربوع بن كعب بن عديّ بن جُشَم بن عوف بن بُهْثَة بن عبد الله بن غَطَفان. واسم أُمّه سَيقاء، ولُقِّبت بدارة؛ تشبيهاً لها بدارة القمر.

شاعرٌ من مُخضرمي الجاهلية والإسلام، وكان هجَّاءً، قتلهُ هجاؤه، وذلك في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

من أخباره التي تُنبِئ عن سلاطة لسانه: أنه لما عاد عُيينة بن حصن الفزاري إلى الإسلام، وكان قد ارتد في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، قال لأبي بكر: قصتي وقصة الأشعث ـ يريد الأشعث بن قيس الكندي ـ واحدةٌ، فما بالُكم أكرمتُموه وزوَّجتموه، ولم تفعلوا ذلك بي؟!

وكان أبو بكر زَوَّج الأشعث أخته، فأجاب سالم بن دارة عيينة عن ذلك بقوله:

يا عُيينَ بنَ حصنِ آلِ عديٍّ ... أنتَ من قومِكَ الصَّميمِ صميمُ
لستَ كالأشعثِ المعصَّبِ بالتَّا ... جِ غلاماً قد سادَ وهو فَطيمُ
جدُّهُ آكلُ المرارِ وقيسٌ ... خَطبُهُ في الملوكِ خَطبٌ عَظيمُ
إنْ تَكُونا أَتيتما خطَّتا الغَدْ ... رِ سواءكما يقدّ الأديمُ
فلهُ هيبةُ الملوكِ وللأشـ ... ـعث إن حانَ حادثٌ وقديمُ
إنَّ للأشعثِ بنِ قيسِ بنِ معدي ... كربٍ عزّةً وأنتَ بهيمُ

– وأتى سالم بن دارة مرةً عدي بن حاتمٍ الطائي فقال له: قد مَدحتُكَ.

فقال له عديّ: أمسك عليكَ حتى أُنبِئَكَ مالي فتمدحني على حسبه؛ لي ألف ضائنةٍ، وألفا درهمٍ، وثلاثة أعبدٍ، وفرسي هذا حبيسٌ في سبيل الله فقل، فقال:

تَحِنُّ قَلُوصِي في مَعَدٍّ وإنَّما ... تُلاَقِي الرَّبيعَ في دِيَارِ بني ثُعَلْ
وأَبْقَى اللَّيالي من عَدِيّ بن حاتمٍ ... حُسَاماً كلَوْنِ المِلْحِ سُلَّ منَ الخِلَلْ
أَبُوك جَوَادٌ ما يُشَقُّ غُبارُهُ ... وأَنت جَوَادٌ ما تَعَذَّرُ بالعِلَلْ
فإِنْ تَتَّقُوا شَرّاً فمِثْلُكُمُ اتَّقَى ... وإنْ تَفْعَلُوا خَيْراً فمِثْلُكُمُ فَعَلْ

فقال له: أمسكْ عليكَ، لا يبلغُ مالي أكثرَ مِن هذا! وشاطرَهُ مَالَهُ.

---

(1) خزانة الأدب: 2/144-150 و3/266-267، وأسماء المغتالين (نوادر المخطوطات): 2/173-174، والإصابة في تمييز الصحابة: 803-804، والشعر والشعراء: 1/389-391.

قصة قتله:

كثيراً ما كان أول الشرّ يكون شعراً يُقال على سبيل المزاح، فإذا به يتطور حتى يصبح جداً، وهجاء ومهاترة، تُفضي أخيراً إلى القتال، وسيلان الدماء. وهذا ما حصل في قصة سالم بن دارة، حيث تبدأ قصته بأن مرة بن واقع من وجوه بني فَزارة، كانت عنده امرأةٌ من أشراف بني فزارة.

وذات ليلة، فاكهته امرأته، فطلَّقها البتة، واحتملت إلى أهلها، ومرَّة يظن أنه قادرٌ على ردها إن شاء. حتى أتى لذلك عامٌ، وهما كذلك.

ثم خطبها حَمل بن القليب الفَزاري، ورجل آخر من بني فزارة يقال له: علي، وخطبها ابن دارة. فبلغ ذلك مرّة، فأراد أن يُراجِعُها فأبت عليه، واختارت علياً.

فركب مُرّة بن واقع إلى معاوية ـ وقيل: إلى عثمان ـ فقال: إن الأعرابُ أَهلُ جَفاءٍ، وإِنّي قد قُلتُ كلمة بيني وبين امرأتي لم أُرد ما تَبلغُ، فتزوجت رجلاً؛ وإنما أتيتك مبادراً قبل أن يبني بها، فامنع لي امرأتي.

فقال له معاوية: لقد ذكرتَ أَمراً صغيراً في أمر عظيم؛ لا سبيل لك عليها.

ففرَّق بينهما معاوية، وهو يومئذ على الشام عاملاً لعثمان، فقال سالم في ذلك قبل أن يَقدُمَ مُرّة عند معاوية والقوم ينتظرونه:

يا ليــــتَ مُـــــرَّةَ يَأتِيهـــــا فيجعلهـــــا ... خَـــيرَ البِنَـــاءِ ويجـــزي منهمـــا الجَـــازِي

فجاء مرة وقد ابتنى بها علي، فغضب على سالم، وجعل يَشتمه حتى قال: أيها العبد من محوَّلة[1]! ما أنتَ وذِكرَ نسائنا؟!

فقال سالم بن دارة: مهلاً يا مرة! فإني لم أفعل تأبيداً (كأنّه أراد لم آتِ بآبدة) وما بي بأسٌ، ولا ذنبَ لي؛ وإنما مَزحتُ.

فأبى مرّة إلا شَتَمَهُ. فقال سالم وقد غضب:

يا مُـــــرَّ يا ابــــنَ واقــــعٍ يا أَنتَــــا ... أنـــتَ الَّـــذي طلَّقـــتَ عَـــامَ جُعتَـــا
فَضَـــــــمَّها البَــــــدرِيّ إِذْ طَلَّقْتَـــــا ... حَـــــتَّى إذا اصــــــطبحتَ واغْتَبَقْتَـــا
أَصــــــبحتَ مُرتَـــــدَّاً لِمَـــــا تَرَكْتَـــــا ... أَردتَ أَنْ تُرجعَهـــــــــا، كَـــــــــذَبْتَا
أَودَى بَنُـــــو بَـــــدْرٍ بِهـــــا، وأَنْتَـــــا ... تُقسِـــمُ وســـطَ القـــومِ: مـــا فَارَقْتَـــا
قَـــــدْ أَحســـــنَ الله وقَـــــدْ أَسَــــأْتَا ... فَـــــأَدِّ رِزقَهـــــا الَّـــــذي أَكَلْتَـــــا

---

(1) محولة:هم بنو عبد الله بن غطفان، وكان يقال لهم: بنو عبد العزى، فوفدوا على النبي ﷺ فقال: «مَن أنتم؟». فقالوا: نحنُ بنو عبد العزى. فقال ﷺ: «بل أنتم بنو عبد الله!». فسمَّتهم العرب محوَّلة.

ثم تواعدا أن يلتقيا، وعَظُمَ في صدور بني فزارة قول سالم، فأغمضوا على ذلك. ثم تواقف مُرَّة وسالم على رهان، وفيهم يومئذ ابن بيشة أحد بني عبد مناف بن عقيل؛ فقال سالم لجميع بني فزارة: إني أحمد الله كعهدكم وبعدكم، واستعهدكم من مرة.

فقال مرة: والله لا أزالُ أهجوك ما بلَّ ريقي لساني.

وجاءت بنو فزارة بامرأةٍ من بني غراب ترجز يقال لها: غاضرة. فلما رآها سالم نَهَقَ كما يَنهَقُ الحمار ثم قال:

قـــد ســـبَّني بنـــو الغـــرابِ الأحمـــرِ ... جُبنـــاً وجهـــلاً، وتمنَّـــوا منكَـــري

كـــلُّ عجـــوزٍ مـــنهمُ ومُعصِـــرِ ... غاضـــرَ، أدِّي رِشـــوتي لا تغـــدرِي

وأبشِـــرِي بعَـــزَبٍ مصـــدَّرِ ... شـــرَّابِ ألبـــانِ الخـــلايا مقفـــرِ

يحمـــلُ عَـــرْداً كـــالوظيفِ الأعجَـــرِ ... وفَيشـــةً مـــتى تريهـــا تشـــفرِي

حمـــراءَ كـــالنَّورجِ فـــوقَ الأنـــدَرِ ... تقلِـــبُ أحيـــاناً حمـــاليقَ الحِـــرِ(1)

معقَّـــدٍ مشـــعَّرٍ مســـيَّرِ ... كأنَّمـــا أحـــسَّ جـــيشَ المنـــذِرِ

إن تمنعِـــي قَعـــوكِ أمنـــع محـــوري ... لقعـــوِ أخـــرى كعشـــبٍ مـــدوَّرِ

فلما قالها سالم ألهاها الاستماع الرد عليه؛ ثم لوى درعها فكشف عنها، فحجز الناس بينهما وافترقوا، ولابن دارة الظفر.

وعمَّ سالم بني فزارة بالهجاء لما أعانت عليه بنو غراب، وقال يهجو مرة بن واقع الفزاري:

حَدَبْـــدَبَا بَدَبْـــدَبَا مِنـــكَ الآنْ ... اســـتمعوا أُنشـــدكم يا ولـــدانْ(2)

إنَّ بَـــني فـــزارةَ بـــن ذبيـــانْ ... قَـــدْ طَرَقَـــتْ نَاقَـــتُهم بِإنســـانْ

مُشـــيَّأ أَعجِـــبْ بِخلـــقِ الـــرحمنْ ... غَلَبْـــتُمُ النَّـــاسَ بِأكـــلِ الجُـــرْدَانْ

كـــلّ مِتَـــلّ كـــالعمودِ جَوفـــانْ ... وَسَـــرْقَ الجـــارِ ونَيـــكَ البُعْـــرَانْ

وقال قصيدة طويلة في هجوهم:

---

(1) النورج: شيء يدق به أهل الشام حَبَّهم.

(2) حَدَبْدَبَا: كلمة جاء بها في معنى التعجب مما هو فيه. وأصلها لعبة يلعب بها الصبيان. ويختلف في لفظها، فبعضهم يقول: حدبدبا بيائين، وبعضهم يقول: حدندبا، ومنهم من يقول: حديدبا. يقول: اجتمعوا يا صبية لتلعبوا هذه اللعبة. وإنما غرضه أن يعجب الناس مما هو فيه، ويعلمهم أنه في أمر كلعب الصبيان.

بَلِّـــغْ فَــــزارةَ إِنِّي لَــــنْ أُسَـــــالِمَها حـــتَّى يَنيـــكَ زميـــلٌ أمَّ دِينـــارِ[1]
لا تأمَــــنَنْ فــــزارياً خَلــــوتَ بِــــهِ بعـدَ الـذي امتـلّ أَيْـرَ العَـيرِ في النَّـارِ[2]
وإن خَلـــوتَ بـــهِ في الأرضِ وحــدَكما فــاحفظْ قلوصَــكَ واكتُبْهــا بأَســيارِ[3]
إِنِّي أَخــــافُ عليهــــا أَنْ يُبَيِّتُهــــا عــارِي الجــواعِرِ يَغشــاها بقُسْــبارِ[4]
أنا ابـــنُ دارةَ معروفـــاً لـــه نَســـبي وهـــل بـــدارةَ يا للنَّـــاسِ مِـــنْ عَـــارِ
جُرثومـــةٌ نبتـــتْ في العـــزِّ واعتزلَـــتْ تَبغـي الجـراثيمَ مِـنْ عُـرفٍ وإِنْكـارِ[5]
مِـــنْ جِـــذْمِ قَـيسٍ وأخـوالي بنـو أسـدٍ مـن أكـرمِ النَّـاسِ زَنـدِي فـيهمُ واري[6]

فلما سمع زميل بن أبير أحد بني عبد الله بن عبد مناف شَتم أمّه حلف: ألاَّ يأكلَ لحماً، ولا يغسلَ رأسَهُ، ولا يأتِيَ امرأةً؛ حتى يقتله.

فالتقى زميلٌ وابنُ دارةَ مُنحدرٌ إلى الكوفة، وزُميل يريد البادية، فقال له سالم: لا أبا لك! ألم يأنِ لك أن تحلّ يمينك؟

فقال له زميل: إني أعتذرُ إليكَ، والله ما في القوم حديدةٌ إلا أن يكون مَخيطاً[7]. فافترقا.

وسار سالم حتى قَدِم على أخيه في الكوفة فمكث غير بعيد، ثم لحق بقومه بالبادية، ثم وَرَدَ المدينة، ثم خرج منها فَلَقِيَ زميلاً عشاء، وزميل داخل المدينة، فكلَّمه وناداه وقال: ألا تحلّ يمينك؟

وكان زميلٌ قد عزم على الإيقاع به، فتركه حتى إذا انطلق واطمأن، اتبعه وغَشِيَهُ بالسيف؛ فدفع سالمٌ الراحلة، فأدركه زميل فضربه فأصاب مؤخرة الرّحل، وحذا عَضُدَهُ ذباب السيف حَذيةً أوضحت[8]؛ ورجع إلى المدينة يتداوى بها.

---

(1) أمّ دينار: هي أم زميل.

(2) العَير: الحمار. وامتلّ أير العير، أي: شوى أير الحمار في الملة، وهي الرماد الحار. وبنو فزارة يُرمَونَ بأكل أير الحمار مشوياً.

(3) القَلُوص: الناقة الشابة. اكتبها: مِنْ كَتَبَ الناقةَ يَكتُبُها: ختم حياءها (فرجها) أو خزمها بسير أو حلقة حديد لئلا يُنزَى عليها. الأسيار: جمع سَيْر؛ وهو قطعة من الجلد.

(4) عار الجواعر: بارز الاست والفَقْحَة. القُسبار: الذّكر الطويل العظيم.

(5) جُرثومة الشيء: أصله. تبغي: من البَغي، يقال: بغى عليه بغياً: إذا علا عليه واستطال، وأصله: تبغي على الجراثيم. العُرف: المعروف.

(6) الجِذم: الأصل. ورى الزند (كرمى): خرج ناره؛ ويقال: ورت بك زنادي، يقال هذا في التمدح والافتخار.

(7) يريد: لا أملك سلاحاً حديداً لأفي بيميني، إلا مخيطاً إبرةً لا تقتل رجلاً.

(8) الموضِحةُ من الشِّجاج: التي بَلَغَتِ العظمَ فأَوضَحَتْ عنه؛ أي أبدت بياضه. وقيل: هي التي تَقْشِر الجلدةَ التي بين اللحم والعظم أَو تشقها حتى يبدو وَضَحُ العظم، وهي التي يكون فيها القصاص خاصة؛ لأَنه ليس من الشجاج شيء له حدَّ ينتهي إليه سواها،

وحُمِل سالمٌ مصاباً إلى عثمان بن عفان ﷺ، فدفعه إلى طبيب نصراني حتى إذا برأ جرحه، دخل عليه النصراني على حين فجأة فرآه يُشامعُ امرأتَهُ(1)؛ فنقمَ عليه، واحتقنها في نفسه، واحتال في قتله، فقال له: إنِّي لأرى عظماً ناتئاً، فهل لك أن أجعل عليه دواءً حتى يسقط؟

قال سالمٌ: نَعَمْ، فافعل. فسمَّهُ في جرحه، فمات.

وقيل: إن بسرة بنت عيينة بن حصن الفَزاري . ويقال: إنها بنت منظور بن زبان، وكانت تحت عثمان بن عفان . دسَّت إلى الطبيب سماً في دوائه فمات؛ وقال قبل موته:

أبلـــــغ أبا ســـــالمٍ عـــــني مغلغلـــــةً   فـــلا تكـــونن أدنى القـــوم للعـــارِ
لا تأخــــذن مئـــــةً مـــــنهم مجللـــــة   واضـــرب بســـيفك منظـــور بـــن ســـيارِ

وقال الناس لما قتل: قد محوا عن أنفسهم. وفي ذلك يقول الكميت بن معروف:

فـــلا تُكثـــروا فيهـــا الضَّـــجاجَ فإنَّـــهُ   محـــا السَّـــيفُ مـــا قـــالَ ابـــنُ دارةَ أجمعـــا

وأَما غيرها من الشجاج ففيها ديتها.

(1) يشامع امرأته: يلاعِبها ويُضاحِكُها.

هدبة بن الخَشرم[1]

ترجمة الشاعر:

إِنَّهُ هدبة بن الخَشرم بن كُرز بن أبي حية بن الكاهن ـ وهو سلَمة ـ بن عامر بن ثعلبة بن عبد الله بن ذبيان بن الحارث بن سعد بن هُذيم، من قبيلة قضاعة.

كان شاعراً إسلامياً فصيحاً، راويةً للشعر؛ فقد كان راويةً لشعر الحطيئة، والحطيئة كان يروي شعر كعب بن زهير، وكان كعب يروي شعر أبيه. لذلك فقد قيل: إنه آخر فَحلٍ اجتمعت له الرواية إلى الشعر الكثير.

وقد قُتل هدبة خلافةَ معاوية بن أبي سفيان ﵁ بابن عمِّه زيادة بن زيد بن مالك بن عامر بن قرة بن حنيس بن عمرو بن ثعلبة.

قصة مقتل هدبة:

لا بدَّ لكلِّ قتال من رواسبَ نفسية تمهّد له، وإن أول ما هاج الحرب بين بني عامر بن عبد الله بن ذبيان وبين بني رَقاش وهم بنو قرة بن حنيس بن عمرو، وهم رهط زيادة بن زيد؛ أنَّ حوط بن خَشرم أخا هُدبة رَاهنَ زيادة بن زيد على جملين من إبلهما، وكان انطلاقهما من مكان يقال له: الغاية، على يوم وليلة، وذلك في القيظ. فتزودوا الماء في الرّوايا والقرب. وكانت أخت حَوطٍ سلمى بنت خشرم تحت زيادة بن زيد؛ فمالت مع أخيها على زوجها، فوهَّنت أوعية زيادة؛ فَفَنِي ماؤه قبل ماء صاحبه، فقال زيادة:

قـــــد جَعَلَـــــتْ نَفْسِـــــيَ في أَديمِ ... مُحَـــــرَّمِ الـــــدّباغِ ذِي هُـــــزُومِ[2]

ثمّ رَمَـــــتْ بِي عُـــــرُضَ الـــــدّيْمومِ ... في بارحٍ مـــــن وَهَـــــج السَّـــــموم[3]

عند اطّلاع وعرةِ النّجومِ[4]

فكان ذلك أول ما أثبت الضغائن بينهما.

---

(1) الأغاني: 21/254-273، وأسماء المغتالين (ضمن نوادر المخطوطات): 2/274-280، وخزانة الأدب: 9/334-340، والشعر والشعراء: 1/380.

(2) المحرَّم: الذي لم يُدبغ. الهُزوم: الشُّقوق.

(3) العُرض: الجانب. الدّيموم: الصحراء المترامية الأطراف. البارح: الريح الحارّة صيفاً. السَّموم: الحر الشديد.

(4) النّجوم: جمع نَجم؛ وهو ما لا ساقَ له من النَّبات، فلعلّه يريد عند طلوع الأرض الوعرة ذات النبات الذي لا ساق له.

ثم إن هدبة بن خشرم وزيادة بن زيد اصطحبا، وهما مُقبلان من الشام، في رَكبٍ من قومِهما، إلى الحجاز بقصد الحج، فكانا يتعاقبان السَّوق بالإبل، وكان مع هدبة أخته فاطمة، فنزل زيادة فارتجز معرِّضاً بأخته فقال:

عُــــوجي علينـــــا واربَعِــــي يا فاطمَـــــا ... مـــــا دون أن يُـــــرَى البَعـــــيرُ قائمَـــــا[1]

ألا تَـــــرينَ الـــــدَّمعَ مِـــــنّي ســـــاجِمَا ... جِـــــذارَ دارٍ منـــــك لـــــن تُلائمَـــــا[2]

فَعرَّجَـــــــتْ مطَّـــــــرداً عُراهِمَـــــــا ... فَعْمـــــاً يـــــذّ القُطُـــــفَ الرَّوَاسمـــــا[3]

كـــــأنَّ في المثْنَـــــاة مِنـــــهُ عائمَـــــا ... إنّـــــــكَ والله لأَنْ تُبَاغِمَـــــــا[4]

خَـــــوْذاً كـــــأَنّ البُـــــوصَ والمآكمـــــا ... منهـــــا نَقَـــــاً مُخَـــــالطٌ صَـــــرائِما[5]

خـــــيرٌ مـــــن اســـــتقبالكَ السَّـــــمائِمَا ... ومـــــن مُنـــــادٍ يبتغـــــي مُعَاكِمـــــا[6]

فغَضِبَ هدبة حين سَمِعَ زيادة يرتجز بأختِهِ، فَنَزَل فرجز بأخت زيادة، وكانت تُدعى أم حازم، فقال هدبة:

لقـــــــد أراني والغُـــــــلامَ الحازمَـــــــا ... نُزجِـــــي المطـــــيَّ ضُـــــمَّراً سَـــــواهِما[7]

مـــــتى تَظُـــــنّ القُلُـــــصَ الرَّوَاسمـــــا ... والجِلّـــــــةَ النّاجيـــــــةَ العَيَاهِمـــــا[8]

يُـــــــبلِغْنَ أمَّ حـــــــازمٍ وحازمـــــــاً ... إذا هَـــــبَطْنَ مُسْـــــتَحيراً قاتِمَـــــا[9]

ورجَّـــــعَ الحـــــادي لهـــــا الهَمَاهِمَـــــا ... ألا تَـــــرَيْنَ الحُـــــزنَ مـــــني دائمَـــــا[10]

جِـــــذارَ دارٍ منـــــكِ لـــــن تُلائِمـــــا ... واللهِ لا يَشـــــفي الفـــــؤادَ الهائِمَـــــا

---

(1) أي ما بينَ مُناخ البعير إلى قيامه.

(2) الدَّمع السَّاجم: السائل، قليلاً كان أو كثيراً.

(3) مطَّرد: متتابع السَّير. عراهِم: شديد. الفَعْم: الضَّخْم. الرَّسِيم: هو سير فوق العنق. والرَّوَاسم: الإبل التي تسير هذا السير الذي ذكرناه.

(4) المثناة: الزّمام. العائِم. السَّائِح. تُباغِم: تكلَّم؛ من بَغَمت الغزالةُ إذا نادت ولدها بصوتٍ ليّن.

(5) البُوْص: العَجُز. المأكمتان: ما كان عن يمين العجز وشماله. النَّقَا: ما عَظُمَ من الرمل، والصرائم دونه.

(6) السَّمائم: جمع سَموم؛ الحرّ الشديد.

(7) الضمّر السواهم: النوق الصلبة، لا ترهّل في أجسامها.

(8) القُلُص: جمع قَلوص؛ الفتيَّة من الإبل. الرَّواسم: التي تمشي الرَّسيم، وهو نوع من السَّير. الجِلّة: جمع جليل؛ وهي الناجية السريعة. العَياهم: جمع عَيهَم؛ وهي الناقة الشَّديدة السريعة.

(9) المستحير: الطريق في المفازة لا يُعرف أين ينتهي.

(10) الهماهم: جمع هَمهَمة؛ وهو الصوت التي تنوّم المرأة به طفلها؛ استعارهُ هذا لحِداء الإبل.

تَمســــــاحُكَ اللَّبّــــــاتِ والمآكِمَـــــا ولا اللِّمـــــــامُ دون أن تلازِمَـــــــا[1]

ولا اللِّثـــــــــام دون أن تُفاقمـــــــــا ولا الفِقـــــــامُ دون أن تفاغمَـــــــا[2]

* وتعلوَ القوائمُ القوائِما *

فغضب زيادة، فارتجز بأخت هدبة فقال:

أنعــــــتُ آياتٍ لكيمـــــا تعلمـــــــي بالخـــالِ بالكَشْــحِ اللطيــفِ الأهضــمِ[3]

والشَّـــــامةِ الســـــوداءِ بالمخــــدَّمِ أتــــــذكرينَ ليلـــــــةً بإِضَـــــــمِ

وليلةً أخرى بخَيتِ العَلَمِ

فلما سَمِعَ هدبة هذه الأبيات أتى أخته شاهراً عليها سيفَهُ، وقال: مِنْ أينَ عَلِمَ هذه العلاماتِ التي وَصَفَكِ بها؟!

فقالت: ويحكَ! إنَّ النساء أخبرنَهُ عنّي.. فكفَّ عنها. وقال في أخت زيادة:

عُــــوجي علينــــا واربَعــــي يا طارفــــا مــــا دونَ أن يُــــرَى البعــــيرُ واقفــــا

مــــا اهتجــــتُ حــــتَّى هتَّكــــوا الخَوالفــــا غَــــدَوا ورَدُّوا جِلَّـــــةً مَقاذفــــا[4]

ألا تــــــرينَ الأعـــــــينَ الــــــذَّوارِفا حِــــــذارَ دارٍ منــــــكِ أن تُســـــاعِفا

فشتمه زيادةُ، وشتمه هدبة، وتسابَّا طويلاً، فصاح بهما القوم: اركبا لا حملكما الله فإنا قومٌ حجَّاج. وخشوا أن يقع بينهما شرّ فوعظوهما، حتى أمسكَ كلّ واحد منهما على ما في نفسه، وهدبة أشدهما حَنَقاً لأنه رأى أنَّ زيادة قد ضامه إذ زَجَرَ بأخته وهي تسمع قوله، ورجز هو بأخته وهي غائبة لا تسمع قوله. فمضيا ولم يتحاورا بكلمةٍ، حتى قَضَيا حجَّهما، ورجعا إلى عشيرتهما.

وفي الدِّيار، تهاجيا وتفاخرا بأشعار كثيرة، ولما قال هدبة:

ناطُــــوا إلى قَمَــــرِ السَّــــماءِ أُنــــوفَهُم وَعَــــنِ الــــتُّرابِ خُــــدودُهُم لا تُرفَــــعُ

وَلَــــدَت أُميمَــــةُ أَعبُــــداً فَغَــــدَت بِهِــــم ثَجــــلاً إِذا مَشَــــتِ القَــــوائِمُ تَظلَــــعُ[5]

---

(1) اللَّبّات: جمع اللَّبَّة؛ وهو وسط الصدر والمنحَر. المآكم: رؤوس الأفخاذ.

(2) اللِّثام: اللَّثْم. الفِقام: المباضعة. التفاغم: التقبيل. يريد: ليس يشفي فؤادي أن أمسحَ بصدرك وأفخاذك، أو أن تلمي دون أن تلازمي، وليس يشفيه التقبيل دون الجماع، ولا الجماع دون التقبيل، وأن تقع السيقان على السيقان.

(3) الكَشح: جانب البطن من ظاهر وباطن، وهما كشحان. والكشح الأهضم: اللطيف، المنضمّ الجنبين.

(4) الخَوالف: جمع خالفة؛ وهي العمود من أعمدة الخِباء. الجِلَّة: الإبل المسان. المقاذف: جمع مقذف؛ وهو الذي رمي باللحم. أو جمع متقاذف؛ وهو السَّريع العَدو.

(5) الثّجلاء: العظيمة البطن الواسعته.

أَبَـــني أُمَيمَــــةَ إِنَّ طـــــالعَ لــــؤمِكُم لَــــونٌ إذا وَضَـــحَ المراسِــــنُ أَســــفَعُ

غضبَ زيادةُ وأصحابه، فجاؤوا إلى منزل هدبة ليلاً؛ فأخذوه وأباه؛ فشجّوا أباه عَشراً، ووقّفوا هدبةَ، فقال زيادة:

شَــــجَجْنا خَشْــرماً في الـــرَّأسِ عَشــراً ووقَّفنـــــا هُديبــــةَ إذ هجــــانا

فقال هُدبة:

إنَّ الــــدَّهرَ مُؤتَنَــــفٌ طويـــلٌ وشـــرُّ الخيـــلِ أقصـــرُها عِنـــانا

وشـــرُّ القـــومِ كـــلّ فـــتًى إذا مـــا مَرَتْهـــا الحـــربُ بعـــدَ العَضْـــبِ لانا

فمكث هدبة ما شاء الله، حتّى إذا بَرِئَ جمَعَ لهم، فخرجَ إليهم بأصحابه، فوجدوا زيادة ورفيعاً وأدرع، ولم يجدوا من رجال الحيّ غيرَهم، فهرب رُفيع وأدرع لما رَأَيا ما جَمَعَ القوم، وأخذوا زيادة، فجدَّعوه بسيوفهم، حتى إذا ظنّوا أنهم قد قتلوه انصرفوا.

وكان زيادة قد ذَبَّ عن نفسِهِ بالسَّيف فأصاب هُدبةَ فجدَعَ أنفه، فلمَّا خَلَّفوا الحيَّ، وأشرفوا الثَّنِيّة، وجد هذبة شفيف الريح في أنفه، فذهب ينظر فإذا أنفه قد جُدِعَ، فقال لأصحابه: انتظروا حتى آتيكم، فو الله لا أعيش أبداً ورجلٌ قد جَدَعَ أنفي!

فرجع إلى زيادة وهو يقول:

أَحـــوسُ في الحــــيّ وبالــــرَّمحِ خَطِــلْ مــا أحســنَ المــوتَ إذا المــوتُ نَــزَلْ(1)

قــد عَلِمَـــتْ أَنّي إلى الهيجـــا عِجِـــلْ إِنّي امـــرؤٌ لا أقـــربُ الضَّـــيمَ بِغِـــلّْ

فقتلهُ، وأدركَ أصحابه.

بعد قتل هدبة لزيادة توارى عن الأنظار مخافة أن يؤخذ والي المدينة سعيد بن العاص على يده، ويسلِّمه لأهل زيادة القتيل. فلما بلغ سعيداً هرب هدبة أتى بأهله فحبسهم، فلم يجد هدبة سبيلاً إلى إطلاقهم إلا تسليم نفسه؛ فجاء إلى سعيد، وسلّمه نفسه؛ فأطلق سراح أهله.

وأراد سعيدٌ الإصلاح بين الحيينِ، فماطل في تسليم هدبة لعبد الرحمن بن زيد أخو زيادة ووليّ دمه عساه يقبل بالدِّيَة، فما كان من عبد الرحمن إلا أن سارَ إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما شاكياً مُطل سعيد، فحمَّله كتاباً إلى واليه على المدينة يأمره فيه بتسيير هدبة مقيداً صحبة عبد الرحمن إلى الشام لينظر في الدعوى. وعند ذلك سعت عذرة إلى عبد الرحمن تطلب منه رَأبَ الصَّدعِ، وقَبول الدِّية، فرفض وقال:

(1) الأحوس: الشجاع الحَمِس عند القتال. الخَطِل: المقاتل، السريع الطَّعن.

أَنَخْتُمْ علينا كَلْكَلَ الحربِ مُرَّة		فنحن مُنيخُوها عليكم بكلكَلِ
فلا يَدْعُني قومي لزيدِ بنِ مالكٍ		لَئِنْ لم أُعجّلْ ضربةً أو أُعجَّلِ
أبعدَ الذي بالنَّعْفِ نعفِ كُوَيْكِبٍ		رهينةِ رمسٍ ذي ترابٍ وجَندلِ(1)
كريمٌ أصابته دياتٌ كثيرةٌ		فلم يدرِ حتَّى جِينَ من كلِّ مدخلِ
أُذكَّر بالبُقْيا على مَن أصابني		وبُقيايَ أنِّي جاهِدٌ غيرُ مؤتلِي(2)

فلما صاروا بين يدي معاوية قال عبد الرحمن أخو زيادة له: يا أمير المؤمنين! أشكو إليك مَظلَمَتي، وما دُفِعتُ إليه، وجرى عليَّ وعلى أهلي وقُرباي وقتل أخي زيادة، وترويع نسوتي.

فقال له معاوية: يا هدبة! قل.

فقال: إنَّ هذا رجلٌ سَجَّاعة، فإن شئت أن أَقُصَّ عليك قِصّتنا كلاماً أو شعراً فعلتُ.

قال: لا، بل شعراً.

فقال هدبة هذه القصيدة ارتجالاً:

أَلا يا لَقَومي لِلنّوائبِ والدّهرِ		ولِلمرءِ يُردِي نفسَهُ وهُو لا يدرِي
ولِلأرضِ كم من صالحٍ قد تأَكَّمَت		عليه فوارتْهُ بلمّاعةٍ قَفْرِ(3)
فلا تتّقي ذا هَيْبةٍ لجلالِهِ		ولا ذا ضياعٍ هنّ يُتْرَكْنَ للفقرِ

حتى قال:

فَلَمَّا رأَيتُ أَنَّمَا هيَ ضَربَةٌ		مِنَ السَّيفِ أَو إِغضاءُ عَينٍ عَلى وِترِ
عَمَدتُ لأَمرٍ لا يُعيرُ والدي		خزايتَهُ وَلا يُسَبُّ بِهِ قَبري
رُمينا فَرامَينا فصادفَ رَمْيُنا		مَنايا رجالٍ في كتابٍ وفي قَدْرِ
وأنتَ أميرُ المؤمنين فما لنا		وراءَك من مَعدًى ولا عنكَ من قَصْرِ
فإن تكُ في أموالِنا لم نَضِقْ بها		ذِراعاً وإن صبرٌ فنصبِرُ للصّبرِ
وإن يَكُ قَتلٌ، لا أَبا لَكَ، نَصطَبِرْ		عَلى القَتلِ إنّا في الحُروبِ أُلو صَبرِ
وَكَم نَكبَةٍ لَو أنَّ أَدنى مُرورِها		عَلى الدَّهرِ ذَلَّتْ عِندَها نوَبُ الدَّهرِ

فقال له معاوية: أراك قد أقررتَ بقتلِ صاحبهم.

---

(1) النَّعْف: المكان المرتفع فيه صعود وهبوط. كويكب: موضع في ديار سعد بن هذيم.

(2) غير مؤتلي: غير مقصّر في طلب الثأر.

(3) تأَكَّمت: أي صارت أكمة. وتروى: (تلمَّأت) أي: وارت.

ثم قال لعبد الرحمن: هل لزيادةَ ولدٌ؟

قال: نعم، المِسوَر وهو غلام صغير لم يبلغ، وأنا عمه ووليّ دَمِ أبيه.

فقال: إنك لا تَؤمَن على أَخذِ الدّيَة أو قَتلِ الرجل بغير حَقٍ، والمسور أحق بدم أبيهِ.

فردَّه معاوية إلى المدينة، فحُبِسَ ثلاثَ سنين حتى بَلَغَ المسورُ. وقال في سجنه[1]:

طَرِبتَ وأنتَ أحياناً طَروبُ ... وكيف وقد تعلّاكَ المشيبُ

يُجِدّ النّأيِ ذِكرَكَ في فؤادي ... إذا ذهلتْ عن النَّأيِ القلوبُ

يؤرّقُني اكتئابُ أَبِي نمير ... فقلبي مِنْ كآبَتِهِ كئيبُ

فقلتُ لهُ: هَداكَ الله مَهلا ... وخيرُ القولِ ذو اللبِّ المصيبُ

عسى الكربُ الَّذي أمسيتُ فيهِ ... يكونُ وراءَهُ فَرجٌ قَريبُ

فيأمنُ خائِفٌ، ويُفَكُّ عانٍ، ... ويأتي أهلَهُ النَّائي الغريبُ[2]

ألا ليتَ الرِّياحَ مسخَّراتٌ ... بحاجتِنا تباكرُ أو تؤوبُ

فتخبرَنا الشمالُ إذا أَتَتْنا ... وتخبرَ أهلَنا عنَّا الجَنوبُ

فإنَّا قد حَلَلْنا دارَ بَلْوَى ... فتُخطئُنا المنايا أو تُصيبُ

فإنْ يَكُ صَدرُ هذا اليومِ وَلَّى ... فإنَّ غداً لناظِرِهِ قريبُ

وقد عَلِمَتْ سُلَيمى أن عَودِي ... على الحدثانِ ذو أَيدٍ صَليبُ[3]

وأنَّ خليقتي كَرَمٌ وأني ... إذا أبدتْ نواجذَها الحروبُ

أُعِينُ على مكارِمِها وأَغشَى ... مكارهَها إذا كَعَّ الهَيُوب[4]

وقد أبقى الحوادثُ منكَ ركناً ... صَليباً ما تُؤَيِّسُهُ الخطوبُ

على أنَّ المنيةَ قد تُوافي ... لوقتٍ والنوائبُ قد تَنوبُ

وأخذ أهل هدبة بأسوأ الأحوال، فعرضوا على هدبة الزواجَ في السجن حتى يكون له ذرية من بعده تذكره إذا هو قتل بزيادة. فقَبِلَ عَرضَهم، وتزوَّج، فحملت منه بغلامٍ سمَّته على اسمه هدبة.

---

(1) أمالي القالي: 1/71-72.

(2) العاني: الأسير.

(3) ذو أَيَدٍ: ذو قوةٍ وشدَّةٍ.

(4) كَعّ: جَبُنَ وضَعُفَ. الهَيُوب: الذي يخاف النّاس.

ولما بلغَ الغلام سعى قوم هدبة ثانيةً إلى أخي زيادة عبد الرحمن عساهم يستميلوه إليهم، فيقبل بأخذ الدِّية، ويحمل على ذلك ابن أخيه، فانتفض في قومه وقال:

سَـــأَكْذِبُ أَقوامـــاً يقولـــون: إنَّـــني ... ســـآخذُ مـــالاً مـــن دمٍ أنا ثَائِـــرُهْ

فبِاسْـتِ امـرئٍ واسْـتِ الـتي زَحَـرتْ بـهِ ... يســوقُ سَــواماً مــن أخٍ هــو واتِــرُهْ

فأيسوا منه.

ثم إنّ سعيد بن العاص أتى بالمِسوَر ليرى حكمه في قاتل أبيه: أيقتلُ به أم يقبل الدِّيةَ وينجو من الموت، فعرضَ عليه ديّاتٍ كثيرةٍ فَطَمِعَ بها، وهمَّ أن يقبل أخذها، فلمَّا رأتْ أمه طمعه قالت له: واللهِ لئن فعلتَ لأتزوَّجنَّ رجلاً أهبُ له نصيبي من الدِّيات، ثم يُقاسِمُكها.

فصمد، وانقاد، وأقرّ قتله بأبيه.

ثم إنَّ سعيداً حاول آخر محاولةٍ، فأخرجَ هدبةَ من السجن، وأدخله عليه، وهو في قبة له مشرفة، ودخل معه عبد الرحمن بن زيد أخو زيادة ـ ويعرف بالأخزر ـ فقال له سعيد: يا أخزر! قد أعطاك أمير المؤمنين معاوية مئة ألف، وعبد الله بن جعفر مئة ألفٍ، والحسن والحسين مئة ألف، وأنا أُعطيكَ مئة ناقة سُود الحَدَق ليس فيها جَدَّاء ولا حذواء(1)، ولا ذات داء.

فقال عبد الرحمن: أصلح الله الأميرَ، والله لو وهبتَ لي قبتكَ هذه، ثم سكبتَ فيها الذهب حتى يخرجَ من ثقبها ما رضيتُ بها عن دم هذا الأجدع.

ولم يزل سعيد يسأله، ويعرض عليه فيأبى، حتى قال: واللهِ لو أردتُ قَبول الدِّية لمنعني قوله:

لَنَجْـــــــدَعَنَّ بأيـــــــدينا أُنـــــــوفَكُمُ ... ويـــذهبُ القتـــلُ فيمـــا بيننـــا هَـــدَرَا

فقال له هدبة: يا أُخيرز! أبالموتِ تخوِّفني؟! واللهِ لا أُبالي أسقطَ عليّ أم سقطتُ عليه، فاصنع ما أنت صانعٌ.

ثم رُدّ هدبة إلى السجن. وخرج عبد الرحمن فأتى من معاوية بكتاب فيه: «ادفع هدبة إلى أولياء زيادة».

فقال سعيد: يومَ الجمعةِ أدفعه إليكم.

فلمَّا كان يوم الجمعة دفع سعيدٌ هدبةَ إليهم بعد الصلاة، فخرجوا به يسوقونه، فمرَّ بقومٍ جلوس تحت حائط فقال: يا هؤلاءِ! قوموا فإن هذا الحائط واقعٌ عليكم. فقالوا: ما رأينا مثلَ هذا! يُساق إلى الموت، ويَحذر الحائط. فلم يكن إلا قليلاً حتى سقط الحائط.

---

(1) الجَدَّاء: اليايسة الضرع، والمقطوعة الأذن. الحذواء: المسترخية الأذن.

ومرّ على بنَّاءٍ يبني حائطاً، فقال: ويحكَ! عوَّجتَ حائطكَ.

وجعل الناس يتعرَّضون له، ويختبرون صَبره، ويستنشدونه، فأدركه عبد الرحمن بن حسان فقال له: يا هدبة! أتأمرُني أن أتزوَّجَ هذهِ بعدَك. يعني زوجته، وهي تمشي خلفه.

فقال: نعم، إنْ كُنتَ من شَرْطِها.

قال: وما شرطُها؟ قال: قد قلت في ذلك:

فـــلاَ تنكَحِـــي إنْ فَـــرَّق الـــدهرُ بيننـــا   أغـــمَّ القفـــا والوجـــهِ لـــيس بأنزعـــا

وكُـــــوني حَبِيســــــاً أو لأروعَ ماجـــــدٍ   إذا ضَـــنَّ أعشـــاشُ الرّجـــال تَبرَّعـــا

فلما سمعت زوجته مضَتْ إلى جَزَّارٍ، وأخذت شفرته؛ فجَدَعتْ بها أَنفَها، وجاءته تدمى مجدوعةً، فقالت: أتخاف أن يكون بعد هذا نكاحٌ؟

فرَسَفَ في قيوده، وقال: الآن طابَ الموتُ.

ثم خرج يرسف في قيوده، فإذا هو بأبويه يتوقعان الثّكل، فهما بأسوء حال، فأقبل عليهما وقال:

أبلِيـــــانِي اليـــــومَ صَـــــبراً مِنكمـــــا   إنّ حُـــــزْناً إن بـــــدا بادئُ شـــــرّْ

لا أُراني اليــــــــــــومَ إلا ميِّتــــــــــــاً   إنّ بعـــــدَ المـــــوت دارَ المســـــتَقَرّْ

اصـــــبِرَا اليـــــومَ فـــــإِني صـــــابرٌ   كـــــلُّ حَـــــيٍّ لقَضـــــاءٍ وقَـــــدَرْ

فدُفع إلى أخي زيادة ليقتله، فاستأذن في أن يُصلِّي ركعتين، فأُذِنَ له، فصلاهما وخفَّف، ثم التفت إلى مَن حَضَرَ فقال: لولا أن يُظنَّ بي الجزعُ لأطلتهما، فقد كنتُ محتاجاً إلى إطالتهما.

ثم قال لأهله: علامةُ ما بيني وبينكم إنْ جَزعتُ فإني إذا قُطِعَتْ رأسي مَدَدتُ رجلي وقبضتُها، وإنْ أنا بقيتُ ممدودَ الرِّجلين فإني لم أجزع. فلما سقط رأسهُ بقي باسطاً رجليه.

وقال قبل أن يقتل:

إن تقتُلـــــوني في الحديـــــدِ فـــــإنَّني   قتلـــــتُ أخـــــاكم مُطْلقـــــاً لم يُقَيَّـــــدِ

فقال عبد الرحمن أخو زيادة: والله لا قتلته إلا مُطلَقاً من وَثاقِهِ؛ فأُطلِقَ لهُ. فقام إليه، وهزَّ السيفَ، ثم قال:

قـــد علِمـــتْ نفسِـــي وأنـــتَ تعلمُـــهْ   لأقـــتلَنَّ اليـــومَ مَـــن لا أَرحمُـــهْ

فالتفتَ إليه هدبة وقال: يا أَحزر! انحر جَزورَكَ.

فقال عبد الرحمن: بل يقومُ إليكَ مَنْ قَتَلتَ أباهُ ظالماً معتدياً عليه، إن قَبِل ذلكَ منك. قم يا مِسورَ!

فقام إليه المسور، وأمسكَ بعضهم بيده؛ فضربه. فتعلَّق رأسُهُ بجلدةٍ من حلقه، فقال له عمّه: يا ابن أخي! أجهزْ عليه، إياكَ أن تدعْ لهم فَضلةً. فأجهز عليه.

وأما زوجته فإنها ما لبثت بعده زمناً حتى تزوّجت، وأنجبت من زوجها الجديد غلامين، ناكثةً بعهدها الذي أعطت لهدبة.

سُحيم عبد بني الحسحاس[1]

ترجمة الشاعر:

إِنَّهُ سحيم، عبدٌ أسود نوبي أعجمي، مطبوعٌ في الشعر، نشأ في بني الحسحاس؛ وهم بطن من بني أسد بن خزيمة، فدبّ فيهم ودرج، وأدرك الإسلام فأسلم، ولكن إسلامه ـ فيما بدا من شعره وحاله ـ كان رقيقاً لم يخالط قلبه، ولا أغالي إذا قلت: لم يعدُ لفظَ الكلمة فقط.

وفد على عمر بن الخطاب ﷺ، فأنشدَهُ مطلع قصيدته التي يقول فيها:

عُمَـــــيرةَ ودِّعْ إِنْ تَجَهَّـــــزتَ غـــــاديا ... كفـى الشَّـيبُ والإِسـلامُ للمـرءِ ناهيـا

فقال له أمير المؤمنين: «لو قلتَ شعركَ كلَّهُ مثل هذا لأعطيتُكَ عليه».

ولما سمع قوله:

وَبِتْنَـــا وســـادانا إلى علجانـــةٍ ... وحقـــفٍ تهـــاداهُ الـــرِّياحُ تهـــادِيَا[2]

توسِّـــدني كفَّـــاً وتثـــني بمعصـــمٍ ... علـــيَّ وتحنـــو رِجلَهـــا مِـــنْ وَرائِيَـــا

قال: ويلَكَ إنَّكَ لمقتولٌ — وصدق أمير المؤمنين بحدسه؛ لما فيه من تصريح وإشهار بالزنا[3].

ويبدو أنَّ سيده جندل بن معبد همَّ ببيعه، لأمورٍ منكرةٍ بدت منه، فاشتراه عبد الله بن أبي ربيعة لعثمان بن عفان ﷺ، وعَرَضَهُ عليه، فلما رآه أعجب بقوته وصلابته، فلمَّا علم أنه شاعر ردَّهُ ورفض شراءه، وقال: «لا حاجةَ لي إليه فارْدُدْهُ؛ فإنما حَظُّ أهلِ العبدِ الشاعرِ منه إن شَبِعَ أن يَتشبَّبَ بنسائِهم، وإن جَاعَ أن يهجوهم». فردَّه، فاشتراه جندل أبا معبد ثانيةً، بعد أن سمع سحيماً يقول:

أشـــوقاً ولَمّـــا تَمـــضِ لي غـــيرُ ليلـــةٍ ... فكيـــفَ إذا ســـارَ المطـــيُّ بنـــا شَـــهْرا

ومـــا كنـــتُ أخشـــى جنـــدلاً أن يبيعَـــني ... بشـــيء ولـــو أَمسَـــتْ أناملُـــهُ صِـــفرا

أخـــوكُم ومـــولىَ مـــالِكم وحلـــيفُكم ... ومَـــن قـــد ثَـــوى فـــيكم وعاشـــركُم دَهْـــرا

---

(1) الأغاني: 22/303-310، وخزانة الأدب: 2/102-105، والشعر والشعراء: 1/396-397، وطبقات فحول الشعراء: 1/187-188، وكتاب أسماء المغتالين (نوادر المخطوطات): 2/290-291، وتزيين الأسواق: 2/12-13.

(2) علجانة: شجرة معروفة. والحقف: ما تراكم من الرَّمل.

(3) وأظنّ أن قِدم القصيدة وكون الشاعر عبداً جعلت أمير المؤمنين يُضرب عن معاقبة سحيم لشهادته على نفسه بالزّنا، ويكتفي بلومه، وتوقع قتله إنْ هو استمرّ على نفس نهج القول الماضي. ولا أستبعد أن تكون هذه الحادثة وحادثة بيعه في وقت واحد، بل أرجح ذلك؛ لأنَّ إقدام جندل سيد سحيم على بيعه إنما كان لقصيدته اليائية التي سنوردها، والتي حين سمع أمير المؤمنين أبياتاً منها توقع له القتل، وربما أضرب عن معاقبته لأنه رأى سيده مقدم على بيعه، فرأى في ذلك عقوبة! والله أعلم.

ثمَّ وقعَ حدس عثمان ﷺ؛ حيث شبَّب سحيم ببنت جندل، ونال من نساء قومه، وسمع منه فظائع وفضائح، فلما رأى هو وقومه قبح فعله في نسائهم أصلوه على أيديهم ناراً سعيراً — وكان قتله في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ.

ولا بد أن نشير إلى أن سحيم عبد بني الحسحاس كان قبيح الوجه، وفي قبحه يقول:

أتيــــتُ نســـــاءَ الحـــــارثيّينَ غُـــــدوةً ... بوجـــــهٍ يَـــــرَاه اللهُ غـــــيرَ جَميـــــلِ

فشــــبَّهْنَني كلبـــــاً ولســــــتُ بِفوقِـــــهِ ... ولا دونِـــــهِ إن كـــــانَ غـــــيرَ قليـــــلِ

ويقول أيضاً:

فلـــــو كنــــتُ ورداً لونــــهُ لعشــــقنني ... ولكـــــــنَّ ربّي شـــــانني بســـــــواديا

ومـــا ضـــرَّني إن كانـــتْ امّـــي وليـــدةً ... تصـــــرُّ وتـــــبري لِلّقـــــاحِ التَّـــــواديا

ولكنه يبدو . فيما يظهر من حاله . أنه كان فحلاً معروفاً بذلك بين نساء قومه، حتى رغبنَ فيه، وتتطلعنَ إلى الحرام من خلاله، فهمّ وهممن، وفعلَ وفعلنَ، فكانت الدائرة عليه، والستر عليهنّ خشية العار، وإن كانوا في الجرم سواء؛ هو غدّار خوان زانٍ، وهُنَّ مثله، بل يزدنَ عليه حينَ مَكَّنَّ عبداً منهنَّ، وهنَّ الحرائر! ولله درّ هند بنت عتبة رضي الله عنها ما أعقلها وأرزنها حينَ قالت . لما بايعها رسول الله ﷺ على ألا تشرك بالله ولا تسرق ولا تزني فقالت: «أَوَ تَزني الحرّةُ؟! »[1].

قصة مقتله:

تقدم أن جندلاً باع سحيماً، ثم ردَّهُ، وكان سببَ بيعه: أنَّ سحيماً قد تشبَّب بابنة جندل، واسمها عميرة، وأفحش فيها وشهرها، فقال:

عُمـــــــيرةَ ودِّعْ إنْ تَجَهَّـــــــزتَ غـــــــاديا ... كفـــى الشَّـــيبُ والإســـلامُ للمـــرءِ ناهيـــا

جنـــوناً بهـــا فيمـــا اعتشـــرْنا علاقـــةً ... علاقـــــةَ حـــــبٍّ مستســـــرّاً وباديا

ليـــــاليَ تصـــــطادُ القلـــــوبَ بفـــــاحمٍ ... تـــراهُ أثيثـــاً ناعـــمَ النَّبـــتِ عافيـــا

وجيـــدٍ كجيـــدِ الـــرّئم لـــيسَ بعاطـــلٍ ... مـــن الـــدُّرِّ واليـــاقوتِ والشَّـــذرِ حاليـــا

كـــأنّ الثُّـــريَّا عُلِّقـــتْ فـــوقَ نحرِهـــا ... وجمـــرَ غضًـــى هبَّـــت لـــهُ الـــرِّيحُ ذاكيـــا

إذا انـــــدفعتْ في ريطـــــةٍ وخميصـــــةٍ ... ولاثـــتْ بأعلـــى الـــرَّأسِ بـــرداً يمانيـــا

تُريـــكَ غـــداةَ البـــينِ كفَّـــاً ومعصـــماً ... ووجهـــاً كـــدينارِ الأعـــزَّةِ صـــافيا

---

(1) أخرجه أبو يعلى (الحديث 4754)؛ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وما بيضةٌ باتَ الظَّليمِ يحفُّها … ويرفعُ عنها جؤجؤاً متجافيا
ويجعلها بينَ الجناحِ ودفِّهِ … وتفرشُها وحفاً من الزَّفِّ وافيا
ويرفعُ عنها وهيَ بيضاءُ طلَّةٌ … وقد واجهتْ قرناً من الشَّمسِ ضاحيا
بأحسنَ منها يومَ قالتْ: أرائحٌ … مع الرَّكبِ أم ثاوٍ لدينا لياليا
فإن تثوِ لا تملكْ وإنْ تضحِ غاديا … تزوَّدْ وترحلْ عن عميرةَ راضيا
ومن يكُ لا يبقى على النَّأيِ ودُّهُ … فقد زوَّدت ودَّاً عميرةُ باقيا
ألكني إليها عمركَ الله يا فتى … بآيةِ ما جاءتْ إلينا تهاديا
تهاديَ سيلٍ في أباطحِ سهلةٍ … إذا ما علا صمداً تفرَّعَ واديا
وبتنا وسادانا إلى علجانةٍ … وحقفٍ تهاداهُ الرِّياحُ تهاديا
توسِّدني كفَّاً وتثني بمعصمٍ … عليَّ وتحنو رجلَها من ورائيا
ففاءتْ ولم تقضِ الذي أقبلتْ لهُ … ومن حاجةِ الإنسانِ ما ليس قاضيا
فما زالَ بردي طيِّباً من ثيابها … إلى الحولِ حتَّى أنهجَ البردُ باليا
أقلِّبها للجانبينِ وأتَّقي … بها الرِّيحَ والشَّفَّان مِن عَن شماليا
وهبَّتْ لنا ريحُ الشَّمالِ بقرَّةٍ … ولا ثوبَ إلاَّ بردُها وردائيا
سقتني على لوحٍ من الماءِ شربةً … سقاها بها الله الذِّهابَ الغواديا
ألا أيُّها الوادي الذي ضمَّ سيلهُ … إلينا نوى الحسناءِ حيِّيتَ واديا
فيا ليتنا والعامريَّةَ نلتقي … نرودُ لأهلينا الرِّياضَ الخواليا
فإنْ تقبلي بالودِّ أقبلْ بمثلِهِ … وإن تُدبري أذهبْ إلى حالِ باليا
ألم تعلمي أنِّي قليلٌ لبانتي … إذا لم يكنْ شيءٌ لشيءٍ مواقيا
وما جئتُها أبغي الشِّفاءَ بنظرةٍ … فأبصرتها إلاَّ رجعتُ بدائيا
ولا طلعَ النَّجمُ الذي يُهتدى به … ولا الصُّبحُ حتَّى هيَّجا ذكرَ ماليا
أشوقاً ولما يمضِ في غيرِ ليلةٍ … رويدَ الهوى حتَّى يغبَّ لياليا
وأقبلنَ من أقصى البيوتِ يَعُدنَني … ألا إنَّما بعضُ العوائدِ دائيا
تجمَّعنَ من شتَّى ثلاثاً وأربعاً … وواحدةً حتَّى كملنَ ثمانيا
وقلنَ: ألا يا العبنَ ما لم يرنْ بنا … نعاسٌ فإنَّا قد أطلنا التَّنائيا
لعبنَ بدكداكٍ خصيبٍ جنابهُ … وألقينَ عن أعطافهنَّ المراديا
وقلنَ لمثلِ الرِّيمِ: أنتِ أحقُّنا … بنزعِ الخمارِ إذ أردنَ التَّجاليا

فقامتْ وألقتْ بالخمارِ مدلَّةً ... تفادي القصارُ السُّودُ منها تفاديا
تأطَّرنَ حتَّى قلتُ لسنَ بوارحاً ... وخفَّضنَ جأشي ثمَّ أصبحَ ثاويا
وما رمنَ حتَّى أرسلَ الحيُّ داعياً ... وحتى بدا الصُّبحُ الذي كان تاليا
وحتى استبانَ الفجرُ أبيضَ ساطعاً ... كأنَّ على أعلاهُ ريطاً شآميا
فأدبرنَ يخفضنَ الشُّخوصَ كأنَّما ... قتلنَ قتيلاً أو أتينَ دواهيا
وأصبحنَ صرعى في البيوتِ كأنَّما ... شربنَ مداماً لا يجبنَ المناديا
ألا نادِ في آثارهنَّ الغوانيا ... سقينَ سماماً ما لهنَّ وما ليا
وراهنَّ ربِّي مثلَ ما قد ورَينني ... وأحمى على أكبادهنَّ المكاويا
وقائلةٍ والدَّمعُ يحدرُ كحلها: ... أهذا الذي وجداً يبكِّي الغوانيا
أشارتْ بمدراها وقالت لتربها: ... أعبدَ بني الحسحاسِ يزجي القوافيا
رأتْ قَتباً رثّاً وسحقَ عباءةٍ ... وأسودَ مما يملكُ النَّاسُ عانيا
يرجِّلنَ أقواماً ويتركنَ لمتي ... وذاكَ هوانٌ ظاهرٌ قد بدا ليا
فلو كنتُ ورداً لونهُ لعشقنني ... ولكنَّ ربِّي شانني بسواديا
وما ضرَّني إن كانتْ امِّي وليدةً ... تصرُّ وتبري لِلّقاحِ التَّواديا
ذهبنَ بمسواكي وألقينَ مذهباً ... من الصَّوغِ في صغرى بنانِ شماليا
فعزَّيتُ نفسي واجتنبتُ غوايتي ... وقرَّبتُ حرْجوجاً من العيسِ ناجيا

والغريب أنَّ جندلاً أضربَ عن معاقبته على هذا الشعر، واكتفى ببيعه رغم فُحشِ ما قاله، بل إنه قَبِلَ أسفه واشتراه ثانية، وحمله إلى بيته لما سمع قوله:

أشوقاً ولَمّا تَمضِ لي غيرُ ليلةٍ ... فكيفَ إذا سارَ المطيُّ بنا شَهْرا
وما كنتُ أخشى جندلاً أن يبيعَني ... بشيء ولو أَمسَتْ أناملُهُ صِفرا
أخوكُم ومولىَ مالِكم وحليفُكم ... ومَن قد ثَوى فيكم وعاشرَكُم دَهْرا

ولما كان اعتذار سحيم لفظياً، لم يقصده على حقيقته، فقد عاد سيرته الأولى؛ حيث يُروى أنه رُئيَ . بعد عودته مع جندل . واضعاً إحدى رجليه على الأخرى يقرض الشعر، ويشبب بأخت مولاه وكانت عليلة يقول:

ماذا يريدُ السّقامُ من قمرٍ ... كلُّ جَمالٍ لوجهه تَبَعُ
ما يَرْتجي خابَ من محاسِنِها ... أما لَهُ في القِباحِ مُتّسَعُ

غـــــيَّر مــــــن لونِهـــــا وصــــــقّرها فزِيـــــدَ فيـــــهِ الجمـــــالُ والبِــــدَعُ
لــــو كـــانَ يبغـــي الفــداءِ قلـــتُ لـــهُ: هـــــا أنا دونَ الحبيـــــبِ يا وجــــعُ!

وجالس نسوةً من بني صُبير بن يربوع، وكان من شأنهم إذا جلسوا للتغزل أن يتعابثوا بشق الثياب، وشدة المغالبة على إبداء المحاسن، فقال سحيم:

كـــــأنَّ الصُّـــــبيريّات يـــــومَ لقيننـــــا ظبـــاءٌ حَنَــــتْ أعناقَهـــا في المكـــانِسِ
فكَـــمْ قَـــدْ شَــــقَقْنا مـــن رِداءٍ منَـــيَّرٍ ومـــن بُرقُــعٍ عـــن طَفلـــةٍ غـــيرِ ناعـــسِ
إذا شُـــــقَّ بـــــردٌ شُــــقَّ بالـــــبردِ بُرقُـــعٌ علـــى ذاكَ حـــتَّى كلُّنـــا غـــيرُ لابـــسِ

ولما قال هذا الشعر اتهمه مولاه، وعادت الريبة إليه؛ فجلس له في مكان كان إذا رعى نام فيه، فلما اضطجع تنفّس الصعداء ثم قال:

يا ذِكـــــــرةً مالـــــــكَ في الحاضـــــــرِ تـــــــذكّرُها وأنـــــــتَ في الصَّـــــــادرِ
مـــــن كـــــلِّ بيضـــــاءَ لهـــــا كَفَـــــلٌ مثـــــلُ ســـــنامِ البكـــــرةِ المـــــائرِ

فظهر سيده من الموضع الذي كان فيه كامناً، وقال له: ما لَكَ؟

فلجلج سحيمٌ في منطقه، فاستراب به، فأتى قومه وقال لهم: تعلّموا ـ والله ـ أن هذا العبد قد فَضَحَنا، وأخبرهم الخبر، وأنشدهم ما قال.

فقالوا: اقتله، فنحن طَوعُك. فلما جاءهم وثبوا عليه فقالوا له: قلتَ وفَعلتَ.

فقال: دَعُوني إلى غدٍ حتى أُعذرها عند أهل الماء.

فقالوا: إن هذا صوابٌ فتركوه.

فلما ورد الماء خرجت إليه صاحبته فحادثته، وأخبرته بما يُراد به، فقام ينفض ثوبه، ويعفي أثره، ويلقط رضّاً من مَسَكِها[1] كان كسرها في لعبه معها، وأنشأ يقول:

أتُكـــتَم حبيـــتُم علـــى النَّـــأي تُكْتَمـــا تحيـــةَ مـــن أمســـى بحبِّـــكِ مُغرَمـــا
ومـــا تُكتَمـــينَ إن أتيـــتِ دَنِيَّـــةً ولا إن ركبنـــا يا بنـــةَ القـــوم مَحْرما
ومثلـــكِ قـــد أبـــرزتُ مـــن خِـــدرِ أمِّهـــا إلى مجلـــسٍ تجـــرُّ بـــرداً مســـهَّما
وماشـــيةٍ مَشْـــيَ القطـــاةِ اتَّبعتُهـــا مـــن السّـــترِ تخشـــى أهلَهـــا أن تَكلَّمـــا
فقالـــت: صـــهٍ يا ويـــحَ غـــيركَ إنَّـــني سمعـــتُ حـــديثاً بيـــنهم يَقطُـــرُ الـــدَّما
فنفضـــتُ ثوبيهـــا ونَظَّـــرت حولهـــا ولم أخـــشَ هـــذا الليـــلَ أن يتصـــرَّما

---

(1) الرّضّ: الكسر. من مَسَكها: من سوارها وخلخالها.

أعقِّـــــــــي بآثارِ الثِّيـــــــابِ مبيتَهـــــــا وألقـــط رضّـــاً مـــن وقِـــوف تحطَّمـــا

فلما كان الغد اجتمعوا فنادى: يا أهل الماء ما فيكم امرأةٌ إلا قد أَصبتُها إلا فلانة فإني على موعد منها.

وغدوا به ليقتلوه، فلما رأته امرأة كانت بينها وبينه مودة ثم فسدتْ؛ ضَحِكَتْ به شماتةً، فنظر إليها، وقال:

فـــإنْ تَضـــحَكِي مِـــنِّي فيـــا رُبَّ ليلـــةٍ تركتُـــــكِ فيهـــا كالبقـــاءِ المفـــرَّجِ

فلما قُدِّمَ ليقتل قال مفتخراً بفعاله، ومحرِّضاً لهم على قتله، وكأنه يغريهم به لكيلا يمثلوا به، بل ليكون بالغ عملهم إطفاء نيران غضبهم:

شُــــــدُّوا وِثاقَ العبـــــد لا يُفْلِـــــتْكُمُ إنَّ الحيـــاة مـــن الممـــاتِ قريـــبُ
فلقـــد تحـــدَّرَ مـــن جبـــينِ فتـــاتِكم عَـــرقٌ علـــى مَـــتْنِ الفـــراشِ وَطِيـــبُ

فحُفِرَ له أُخدودٌ، وأُلقي فيه، وأُلقي عليه الحطب؛ فأُحرِقَ.

وهكذا جنى سحيم وبال عمله وقوله، فكان الموت مصيرَه، وباتت النار سعيرَهُ، وحقَّ فيه قول أمير المؤمنين عثمان ﷺ: « إنما حَظّ أهلِ العبدِ الشاعرِ منه إن شَبِعَ أن يَتشبَّبَ بنسائِهم، وإن جَاعَ أن يهجوهم».

وصدق الله حين قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: 32].

أعشى همدان[1]

ترجمته:

هو أبو المِصبَّح عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث الهَمدَاني القَحطاني. شاعر فصيح كوفي، من شعراء الدولة الأموية، كان زوج أخت الإمام الشعبي، والشعبي زوج أخته أيضاً.

كان أول أمره أحدَ الفقهاء القرَّاء، ثم تركَ ذلك وقال الشِّعرَ، وأخذ يتكسَّب به.

أغزاه الحجاج مراراً في جيوش الفتوحات. إلى أن خرجَ سنة ثمانين للهجرة في جيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لقتال رتبيل ملك سجستان بعد أن أوقع بالمسلمين. ثم ارتدَّ مع هذا الجيش لقتال الحجاج وخلع عبد الملك، وأعان ابن الأشعث على الحجاج بلسانه وسيفه، فلمَّا انهزمَ جيش ابن الأشعث في معركة دير الجماجم، وقع أسيراً في يد الحجاج الذي قضى بقتله، سنة (83 هـ).

قصة مقتله على يد الحجاج:

في سنة ثمانين للهجرة، سيَّر الحجاج جيشاً عظيماً كامل العُدَّة, بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، لقتال رتبيل ملك سجستان، وشحن هذا الجيش بأهل الكوفة والبصرة، وانضوى تحت لوائه كثير من القرّاء والعباد، وسُمِّي لكمال عدده وعُدَّته بالطواويس.

فلما تمكَّن ابن الأشعث من عدوّه، وأوغل في بلاده، توقّف عن متابعته بعيداً حتى يتمكن من حيازة كلِّ ما تحت يده حيازة تامة. وهذا ما ساء الحجاج، فأرسلَ إليه يقرِّعه ويأمره بمتابعة الفتح، وإلا عزله. فعرضَ ابن الأشعث كتابه على قادته، فأشاروا عليه برفض أمر الحجاج، والتوجه إلى العراق لعزله لأنه هو العدو الحقيقي. وهبَّ المتحمسون فخلعوا الخليفة عبد الملك مع واليه الحجاج، وارتدَّ الجيش من سجستان إلى العراق، وكان في جملة هذا الجيش أعشى همدان، الذي رأى في هذه الثورة فرصة للتخلص من الحجاج وظلمه، فشدَّ على يد ابن الأشعث، ومدحه على حسن فعله، وهجا الحجاج فقال[2]:

شَـــــطَّتْ نَـــــوَى مِـــــنْ دَارِهِ بالإيـــــوانْ	إيـــــوانِ كســـــرى ذي القُـــــرى والرَّيحـــــانْ
فالبَنـــــــــــدُنيجين إلى طِرْدَاســـــــــــتانْ	فالجســـــــــرِ فالكوفـــــــــةِ فـــــــــالغَرِيَّانْ
مِـــــنَ عَاشِـــــقٍ أَمســـــى بزابُلِســـــتانْ	إنَّ ثقيفـــــــــاً مـــــــــنهم الكـــــــــذَّابانْ
كـــــــذَّابُها الماضـــــــي وكـــــــذَّابٌ ثانْ	أمكـــــن ربي مـــــن ثقيـــــفِ هَمـــــدانْ

---

(1) الأغاني: 33/6-68، وأسماء المغتالين (نوادر المخطوطات): 283/2-285، والكامل في التاريخ: 490/3 و509-511، وديوان الأعشين.

(2) ديوان الأعشين: 342.

يومـــاً إلى اللَّيـــلِ يُســـلي مـــا كـــانْ — إنا سَمَـــــونا للكفـــــورِ الفَتَّـــــانْ

حِـــينَ طَغَـــى في الكُفـــرِ بَعـــدَ الإيمـــانْ — بالسَّـــيّدِ الغِطرِيـــفِ عَبـــدِ الـــرَّحمنْ

سَـــارَ بِجَمـــعٍ كالـــدَّبَا مِـــنْ قَحطَـــانْ — ومِـــن مَعـــدٍّ قَـــد أَتَـــى مـــن عَـــدنانْ

بِجَحْفَـــلٍ جَـــمٍّ شَـــديدِ الأركَـــانْ — فقـــلْ لحجَّـــاجٍ وَليِّ الشَّـــيطانْ

يَثبـــتْ لجمـــعِ مَـــذحجٍ وهَمـــدانْ — فَـــإنَّهم سَـــاقُوهُ كَـــأسَ الـــذِّيفَانْ

* وملحِقوهُ بقرى ابن مروانْ *

وقال أيضاً[1]:

يأبَى الإلـــهُ وعِـــزَّةُ ابـــن محمَّـــدٍ — وجـــدودُ مُلْـــكٍ قبـــلَ آلِ ثَمـــودِ

أن يأنســـوا بِمُـــذَمَّينَ عُـــرُوقُهم — في النَّـــاسِ إنْ نُســـبوا عُـــروق عَبيـــدِ

كـــمْ مِـــنْ أَبٍ لَـــكَ كَـــانَ يَعقِـــدُ تَاجَـــهُ — بجبـــينِ أَبلَـــجَ مِقْـــوَلٍ صِـــنْديدِ

وإذا ســـألتَ: المجـــدُ أيـــن محلّـــه — فالمجـــدُ بـــين محمَّـــدٍ وسَـــعيدِ

بَـــينَ الأشـــجِّ وبـــين قـــيسٍ بَاذِخٌ — بَـــخٍ بَـــخٍ لوالـــده وللمولـــودِ

مـــا قصَّـــرَتْ بـــكَ أن تَنـــالَ مَـــدَى العُـــلا — أخـــلاقُ مَكْرُمـــةٍ وإرثُ جُـــدودِ

قَـــرْمٌ إذا ســـامَى القُـــرُومَ تـــرى لـــه — أعـــراقَ مجـــدٍ طـــارفٍ وتَليـــدِ

وإذا دعـــا لعظيمـــةٍ حُشـــدتْ لـــهُ — هَمْـــدانُ تحـــتَ لوائِـــهِ المعقـــودِ

يَمْشُـــونَ في حَـــلَقِ الحديـــدِ كـــأنَّهم — أُسْـــدُ الإباءِ سَمِعـــنَ زَأرَ أُســـودِ

وإذا دعـــوتَ بآلِ كِنْـــدةَ أَجْفَلـــوا — بكُهـــولِ صِـــدقٍ ســـيِّدٍ ومَسُـــودِ

وشـــبابِ مأسَـــدةٍ كـــأنّ ســـيوفَهم — في كـــلِّ مَلْحَمـــةٍ بُـــروقُ رُعـــودِ

مـــا إن تـــرى قَيســـاً يُقـــاربُ قَيسَـــكم — في المكْرُمـــاتِ ولا تـــرى كسَـــعيدِ

ولما بلغ الجيش العراقَ، تواقع مع جيش الخلافة بقيادة الحجاج مراراً، حتى كان النصر أخيراً في معركة دير الجماجم (سنة 83هـ)، ففرّ ابن الأشعث، ووقع أعشى همدان أسيراً في قبضة الحجاج، فلما جيء به إليه، قال له: الحمد لله الذي أمكنَ منكَ، ألست القائل:

إنَّا سَمَـــونا للكفـــورِ الفَتَّـــانْ — بالسَّـــيّدِ الغِطرِيـــفِ عَبـــدِ الـــرَّحمنْ

سَـــارَ بِجَمـــعٍ كالـــدَّبَا مِـــنْ قَحطَـــانْ — ومِـــن مَعـــدٍّ قَـــد أَتَـــى مـــن عَـــدنانْ

أمكـــن ربي مـــن ثقيـــفِ هَمـــدانْ — يومـــاً إلى اللَّيـــلِ يُســـلي مـــا كـــانْ

---

(1) ديوان الأعشين: 323.

إنَّ ثقيفـــــــاً مــــــنهم الكـــــــذَّابانْ كـــــــذَّابُها الماضـــــي وكــــــذَّابٌ ثانْ

أَوَ لستَ القائل[1]:

لابـــــنِ الأشـــــجِّ قَريــــعِ كِنــــدَةَ لا أُبالي فيـــــــــك عَتْبَـــــــــا

أنـــــت الـــــرئيسُ ابــــنُ الــــرئيسِ وأنـــــتَ أعلـــــى النَّـــاسِ كَعبـــا

نُبِّئـــــتُ حَجّـــــاجَ بــــن يوســـــفَ خَـــــرَّ مِـــــن زَلَـــــقٍ فَتَبّـــــا

فـــــــانهضْ فُـــــــدِيتَ لعلّـــــــهُ يجلـــــو بـــــك الـــــرحمنُ كَـــــرْبا

وابعــــــثْ عطيّــــــةَ في الخيـــــولِ يَكُـــــــبّهنّ عليــــــــهِ كَبّـــــــا

كلا يا عدو الله! بل عبد الرحمن بن الأشعث هو الذي خرَّ من زلق فتبَّ، وحار وانكبَّ! وما لقي ما أحب.

ورفع بها صوته، وأربدَ وجهه، واهتز منكباه، فلم يبق أحد في المجلس إلا أَهمَّتهُ نَفسُه، وارتعدت فرائصه. فقال له الأعشى: بل أنا القائل أيها الأمير[2]:

أبى اللَّهُ إلاَّ أَنْ يُـــــــتَمِّمَ نُــــــورَهُ ويُطفِـــئَ نـــورَ الفاســـقينَ فتخمُـــدَا

ويُظِهـــرَ أهـــلَ الحـــقّ في كـــلّ مَـــوطنٍ ويعـــدِلُ وَقـــعَ السَّـــيفِ مَـــنْ كـــان أَصـــيدا

ويُنـــــزِلَ ذُلاًّ بالعـــــراقِ وأهلِـــــهِ لمـــا نقضُـــوا العهـــدَ الوَثيـــقَ المؤَكَّـــدا

ومـــا أَحـــدثوا مـــن بدعـــةٍ وعظيمـــةٍ مـــن القـــولِ لم تَصـــعدْ إلى اللهِ مصـــعدا

ومـــا نَكثـــوا مـــن بيعـــةٍ بعـــد بيعـــةٍ إذا ضَـــمِنُوها اليـــومَ خاسُـــوا بهـــا غـــدا

وجُبنـــا حَشـــاهُ ربهـــم في قلـــوبِهم فمـــا يقربـــونَ النَّـــاسَ إلا تهـــدُّدا

فـــلا صِـــدقَ في قـــولٍ ولا صَـــبرَ عنـــدَهمْ ولكـــنَّ فَخـــراً فـــيهمُ وتزيُّـــدا

فكيـــفَ رأيـــتَ اللهَ فـــرَّقَ جَمعَهُـــمْ ومـــزَّقهم عُـــرضَ الـــبلادِ وشـــرَّدا

فقـــتلاهُمُ قَتلـــى ضـــلالٍ وفتنـــةٍ وحـــيُّهمُ أمســـى ذلـــيلاً مُطـــرَّدا

ولمـــا زَحَفنـــا لابـــنِ يوســـفَ غُـــدوةً وأبـــرقَ منَّـــا العارضـــانِ وأرعـــدا

قضـــينا إليـــه الخَنـــدقينِ وإنمـــا قطعنـــا وأفضـــينا إلى المـــوتِ مُرصِـــدا

فكافَحَنـــا الحجَّـــاجُ دونَ صُـــفوفِنا كِفاحـــاً ولم يضـــرب لـــك مَوعِـــدا

بصَـــفٍّ كـــأنَّ الـــبرقَ في حَجراتِـــهِ إذا مـــا تجلَّـــى بَيضـــهُ وتوقَّـــدا

(1) ديوان الأعشين: 312.

(2) ديوان الأعشين: 320-321.

دَلفنا إليهِ في صفوفٍ كأنَّها ... جبالُ شَرَورَى لو تُعانُ فَتَنهُدا
فما لَبِثَ الحجَّاجُ أن سَلَّ سَيفَهُ ... علينا فولَّى جمعُنا وتبدّدا
وإنَّ ابن عبَّاس لفي مُرجحنّةٍ ... نُشبِّهُها قِطعاً من الليلِ أسودا[1]
فما شَرَعوا رُمحاً ولا جرَّدوا لهُ ... ألا رُبَّما لاقى الجبانُ فجرَّدا
وكرَّتْ علينا خيلُ سُفيانَ كَرَّةً ... بفُرسانِها والسَّمهريِّ مُقصَّدا
وسفيانُ يَهديها كأنَّ لواءَهُ ... مِنَ الطَّعنِ سِندٌ باتَ بالصّبغِ مُجسدا[2]
كُهولٌ ومُردٌ من قُضاعةَ حولَهُ ... مساعيرُ أبطالٌ إذا النّكسُ عرَّدا
إذا قال شُدُّوا شدّةً حَمَلوا معاً ... فأنهلَ خِرصانَ الرِّماحِ وأوردا
جنود أميرِ المؤمنين وخيلُهُ ... وسُلطانُهُ أمسى عزيزاً مؤيَّدا
فليهنَ أميرَ المؤمنين ظهورُهُ ... على أمّةٍ كانوا بُغاةً وَحُسَّدا
نزوا يشتكون البغيَ من أُمرائِهِمْ ... وكانوا هُمُ أبغى البُغاةِ وأعندا
وجدنا بني مروانَ خيرَ أئمَّةٍ ... وأفضلَ هذي النَّاسِ حِلماً وسوددا
وخيرَ قريشٍ في قريشٍ أَرُومَةً ... وأكرَمَهُمْ إلا النبيَّ مُحمَّدا
إذا ما تدبَّرنا عواقبَ أمرِنا ... وجدنا أميرَ المؤمنينَ مُسدَّدا
سَيُغلَبُ قومٌ غالبُوا اللهَ جَهْرةً ... وإن كَايدُوهُ كان أقوى وأَكيدا
كذاك يُضِلّ الله من كانَ قلبُهُ ... مريضاً ومَن وَالى النِّفاقَ وأَلْحدا
فقد تركوا الأهلينَ والمالَ خلفَهم ... وبِيضاً عليهنَّ الجلابيبُ خُرَّدا
يُنادينهم مُستعبراتٍ إليهمُ ... ويُذْرينَ دمعاً في الخدودِ وإثمِدا
فإلاَّ تناولهُنّ منكَ برحمةٍ ... يَكُنَّ سَبَايا والبُعولُةُ أَعْبُدا
أنكثاً وعصياناً وغدراً وذِلَّةً ... أهانَ الإلهُ مَنْ أهانَ وأبعدا
تَعطَّفْ أميرَ المؤمنين عليهم ... فقد تركُوا أمرَ السَّفاهةِ والرَّدى
لعلهمُ أن يُحدثُوا العامَ توبةً ... وتعرفُ نُصحاً منهمُ وتودُّدا
لقد شأمَ المِصرينِ فرخُ مُحمَّدٍ ... بحقٍّ وما لاقى من الطَّيرَ أسعدا

(1) ابن عباس: هو عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، أحد قادة ابن الأشعث.

(2) سفيان: هو سفيان بن الأبرد الكلبي، أحد قواد العساكر الشامية التي جاءت لنُصرة الحجاج.

كمـــــا شــــــأم اللهُ النّجــــــيرَ وأهلَــــــهُ   بجــدٍّ لــهُ قــد كــانَ أشــقى وأنكــدا[1]

فقال مَن حضر من أهل الشام: قد أحسن أيها الأمير! فخلِّ سبيله.

فقـال: أتظنُّون أنـه أراد المـدحَ، لا والله، لكنـه قـال هـذا أسـفاً لِغَلَبَـتِكُمْ إِيَّاه، وأراد بـه أن يُحـرِّضَ أصحابَهُ!

ثم أقبل عليه فقال له: أظننت يا عدو الله أنك تخدعني بهذا الشعر، وتنفلتُ من يدي حتى تنجو؟! ألست القائل ويحك:

وإذا ســــألتَ: المجـــــدُ أيـــــن محلّـــــه   فالمجـــــدُ بـــــين محمَّـــــدٍ وسَـــــعيدِ

بَـــــينَ الأشـــــجِّ وبـــــين قـــــيسٍ بَاذِخٌ   بَـــــخْ بَـــــخْ لوالـــــده وللمولـــــودِ

والله لا تبخبخ بعدها أبداً. أو لست القائل:

وأصـــــابني قـــــومٌ وكنـــــتُ أصـــــيبُهم   فـــــاليومَ أصـــــبِرُ للزمـــــانِ وأعـــــرفُ

كذبت والله، ما كنت صبوراً ولا عَروفاً. ثم قلت بعده:

وإذا تُصـــــبْك مـــــن الحـــــوادثِ نكبـــــةٌ   فاصـــــبرْ فكـــــل غَيَابـــــةٍ ستكشَّـــــفُ

أما والله لتكوننّ نكبةً لا تنكشف غيابتُها عنك أبداً.. يا حرسيُّ اضرب عنقه؛ فضرب عنقه.

---

(1) كما شأم الله النُّجير وأهله: يشير به إلى ردّة الأشعث بن قيس جد عبد الرحمن بن محمد بعد وفاة النبي ﷺ، ومتابعة كِندة له، ومحاربة المسلمين لهم، ومحاصرتهم بالنّجير، ثم قتلهم.

الأقيشر الأسدي[1]

ترجمته:

هو أبو مُعرِض المغيرة بن عبد الله بن مُعرض بن عمرو بن أسد بن خزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضر بن نزار. لُقِّبَ بالأقيشر؛ لأنه كان أحمر الوجه أقشر. وكان يكره هذا اللقب، ويغضب إذا قيل له.

وكان شاعراً خليعاً، ماجناً، مُدمناً لشرب الخمر، وهو الذي يقول في نفسه:

فـــــإنّ أبا مُعـــــــرِضٍ إذ حَسَــــــا ... مـــــن الـــــرّاحِ كأْســـــاً علـــــى المِنْـــــبَرِ
خطيـــــبٌ لبيـــــبٌ أبـــــو مُعْـــــرِضٍ ... فصـــــارَ خليعـــــاً علـــــى المكْـــــبِرِ
أحَـــــلَّ الحـــــرامَ أبـــــو مُعْـــــرِضٍ ... فـــــإنْ لِـــــيمَ في الخمـــــرَ لم يَصْـــــبِرِ
يُجِـــــلُّ اللِّئـــــامَ ويلحَـــــى الكِـــــرَامَ ... وإن أقصـــــرُوا عنـــــهُ لم يُقْصِـــــرِ

وقد عمَّر طويلاً، ويبدو أنه وُلد في الجاهلية، ونشأ في أول الإسلام ـ كما ذهب الأصفهاني ـ وكان يعيش في خلافة عبد الملك بن مروان.

وشعر الخمر يغلب على شعره. كما يظهر في شعره جرأته، وسلاطة لسانه على أي رجل يقف أمامه وينازعه، أو يحول بينه وبين ما يطلب؛ وهذا ما أدى به إلى حَتفه.

قصة مقتله:

قَدِمَ الأقيشر على قيس بن محمد بن الأشعث بن قيس الكِندي، وكان رجلاً أعمى، فمدحه، فأمر له قيس بثلاثمئة درهم، فقال له الأقيشر: ادفعها إلى قهرمانِكَ، ومُرهُ فليُعطني بكلِّ يومٍ درهماً للحم، ودرهماً للبقل.

ففعل قيس، فكان الأقيشر يأخذ الدرهمين، فيشتري خمراً بدرهمٍ، ولحماً بدانقين، ويكتري بغلاً بأربعة دوانيقَ، فيمضي إلى الحيرةِ فيشربُ يومَهُ، ثم ينصرف ممسياً.

فأتلف الدراهم، ثم أتى قيساً فسأله ثانيةً فأعطاه مثلها؛ فأتلفها على نفس الشاكلة. فقيل لقيس: إن الأقيشر إنما يشتري بالمال خمراً يشربهُ. فساءه ما سمع، من إعانته ـ وهو لا يعلم ـ على الباطل.

فلما قَدِمَ في المرة الثالثة يستعينُ قيساً بمال، قال له: يا هذا! إنه لا يحلّ لي أن أُعطيكَ ما تشتري به الخمرَ؟!

---

(1) الأغاني: 11/251-277، وأسماء المغتالين (نوادر المخطوطات): 2/267-268، والشعر والشعراء: 2/545-548، وخزانة الأدب: 4/487-492.

فلما رأى الأقيشر إصرار قيسٍ على منعه بحجة الخمر هجاه فقال:

ألم تَــرَ قــيسَ الأكمــهَ ابــنَ محمَّــدٍ يقــول فــلا تلقــاهُ للخــيرِ يفعــلُ
رأيتُــكَ أعمــى القلــبِ والعــينِ مُمسكاً ومــا خــيرُ أعمــى العــينِ والقلــبُ يَبخــلُ
فلــو صَــمَّ تَمَّــتْ لعنــةُ اللهِ كُلُّهــا عليــهِ ومــا فيــهِ مــن الشَّــرِّ أفضــلُ

فساء موالي قيسٍ ما سمعوه من الأقيشر، فترصَّدوا له، حتى إذا انصرف سكراناً من الحيرة؛ أنزلوه في الحمامات بخارج الكوفة. وتركوا البغل وحدَه فعاد إلى الكوفة كعادته. ودخَّنوا عليه حتى اختنق فمات.

كعب بن معدان الأشقري[1]

ترجمته:

هو كعب بن معدان الأشقري الأزدي. شاعر فارس خطيب، معدودٌ من الشجعان، من أصحاب المهلَّبِ بن أبي صُفرة، والمذكورين في حروبه للخوارج الأزارقة.

أوفده المهلَّب إلى الحجاج بعد وقعةٍ انتصر بها على الخوارج، فأُعجبَ به، وأوفده على عبد الملك، فأجازه وأكرمه.

ولما عُزل يزيد بن المهلب عن خراسان، ثم ولِّي مكانه سنة (85 أو 86 هـ) قتيبة بن مسلم انحاز إلى قتيبة، وانضوى تحت لوائه، ومدحه، وغمز بيزيد بن المهلب. فلمَّا عاد يزيد إلى ولاية خراسان أغرى به ابن أخي كعب فقتله، وذلك في نحو سنة (101 هـ)[2].

قصة مقتله:

قلنا: إنَّ كعباً كان من أصحاب المهلب، لصيقاً به، يأخذ من حَبوته، ويأكل على سفرته، واستمر على حاله تلك مع أولاده حكام خراسان بعد وفاته. إلى أن كانت سنة (84هـ) حيث عُزل يزيد بن المهلب والي خراسان بأخيه المفضل، ثم عُزل أخوه بقتيبة بن مسلم أول خلافة الوليد. فلما قدم قتيبة انضوى كعب تحت لوائه، وسار في ركابه.

إلى أن كان فتح خوارزم سنة (93 هـ) على يد قتيبة بن مسلم، بعد أن عجز عن فتحها سابقاً يزيد بن المهلب، فمدح كعب قتيبةَ، وعظَّم فتحه، وعرَّض بعجز يزيد عنه حين كان والياً على خراسان، فقال:

رَمَتْـــكَ فِيـــلٌ بِمَـــا فِيهـــا ومـــا ظَلَمَـــتْ ورامَهـــا قبلَـــك الفَجفَاجَـــةُ الصَّـــلِفُ[3]

لا يُجـــــزِئُ الثَّغـــــرَ خَـــــوَّارُ القَنَـــــاةِ ولا هَـــشٌّ المكاسِـــرِ والقَلـــبُ الَّـــذي يَجِـــفُ

هـــــل تَـــــذكُرونَ لَيـــــالي الـــــتُّركِ تَقـــــتُلُهُمْ مـــا دونَ كـــازَه والفَجفَـــاجُ مُلتَجِـــفُ

لم يَرَكَبُـــــوا الخَيـــــلَ إلاَّ بَعـــــدَما كَـــــبِرُوا فَهُـــمْ ثِقَـــالٌ علـــى أَكتافِهـــا عُنُـــفُ

---

(1) الأغاني: 283/14-300، والوافي بالوفيات: 260/24-262، وتاريخ الملوك والأمم: 471/6، وأمالي القالي: 268/1.

(2) ذهب الزركلي في الأعلام: 229/5 إلى أن كعب بن معدان قد قُتل نحو (80 هـ). ولست أرى هذا القول؛ لأن كعباً مدح قتيبة بن مسلم ـ كما سيمر ـ لما فتح خوارزم سنة (93هـ)، وكانت عودة يزيد إلى إمارة خراسان سنة (97 هـ) في خلافة سليمان بن عبد الملك. وفي الأغاني: 298/14 أن قتله في فتنة يزيد بن المهلب، وكانت سنة (101 هـ).

(3) فيل: هو حصن لخوارزم يقال له: الكُهنْدَر، ومعنى الكُهندر: الحصن العتيق. الفَجفاجة: الكثير الكلام.

مــــــنهُمْ شُـــــــناسٌ ومَــــــرْدَاذاء نعرفُـــــهُ ... وفســـــخراء قبــــورٌ حشـــوها القُلُـــفُ[1]

إِنِّي رأيـــــــتُ أبا حَفــــــصٍ تُفضِّـــــلُهُ ... أيامُـــــهُ ومَسَـــــاعِي النَّـــاسِ تَختَلِــــفُ

قَـــيسٌ صَـــريحٌ وبَعـــضُ النَّـــاسِ يَجمَعُهُـــمْ ... قُـــرًى وريـــفٌ فمنســـوبٌ ومُقـــترِفُ[2]

لـو كُنـتَ طَاوعـتَ أَهـلَ العَجـزِ مـا اقتسـمُوا ... سَـــبعينَ ألفـــاً وعـــزُّ السُّـــغدِ مُؤْتَنِـــفُ

وفي سمرقنـــــدَ أخـــــرى أَنـــــتَ قاسِمُهـــــا ... لَـــئِنْ تَأَخَّــــر عـــن حَوبائِـــك التَّلَـــفُ

مــا قَــدَّمَ النَّــاسُ مِـــنْ خَـــيرٍ ســـبقتَ بِـــهِ ... ولا يفوتُــــكَ ممــــا خَلَّفُـــوا شَـــرَفُ

فلما كانت خلافة سليمان بن عبد الملك قُتل قُتيبة، وعاد يزيد بن المهلب سنة (97هـ) إلى ولاية خراسان، فرأى واجباً عليه عقاب كعبٍ إذ عرَّض بهم بعد كل النعم التي أسبلوها عليه. فما كان من كعب إلا أن هرب، وتوارى في عُمان، وقال في طريقه إليها يصف غربته وكربته:

وإِنِّي تاركٌ مَـــــــــــرْواً ورائِـــــــــــي ... إلى الطَّبَسَـــــيْنِ معتـــــامٌ عُمــــــانا

لآوِي معقِـــــــلاً فيهــــــا وحِـــــــرْزاً ... فَكُنَّـــــا أهـــــلَ ثَروتِهـــــا زَمــــانا

وكتب من هناك يستعطف يزيداً يقول:

بِـــئسَ التَّبَـــدُّلُ مِـــنْ مَـــرْوٍ وســـاكِنِها ... أرضُ عمـــانَ وسُـــكنَى تحـــتَ أطـــوادِ[3]

يُضـــحِي السَّـــحابُ مَطـــيراً دونَ مُنصِـــفِها ... كـــأنَّ أجبالَهـــا غُلِّـــتْ بفِرصـــادِ[4]

يا لهـــفَ نَفسِـــي علـــى أَمـــرٍ خَطِلـــتُ بِـــهِ ... ومــا شَـفيتُ بــه غِمْــرِي وأحقــادِي[5]

أفنيــــتُ خمســـــينَ عامــــاً في مـــــديحِكُمُ ... ثم اغــــتررتُ بقـــول الظـــالمِ العـــادِي

أبلـــــغْ يزيـــــدَ قَـــرينَ الجُـــودِ مألُكـــةً ... بأنَّ كعبـــاً أســـيرٌ بـــين أصـــفادِ[6]

فــــإن عفـــوتَ فبيـــتُ الجـــودِ بيـــتُكُم ... والـــدَّهرُ طَـــوْرانِ مـــن غَـــيٍّ وإرشـــادِ

وإن مَننْـــــتَ بصـــــفحٍ أو سمحـــــتَ بـــــهِ ... نَزعــــتُ نحــــوَكَ أطنــــابي وأوتادي[7]

---

(1) شُناس: اسم أبي صُفرة، فغيَّره وتسمَّى ظالماً. مزداذاء: أبو أبي صفرة، وسمّوه بسرَّاق لما تعرَّبوا. فَسخراء: جدّ أبي صفرة، وهم من قومٍ من الخُوز، من أهل عمان، نزلوا الأزد، ثم ادّعوا أنهم صَليبة صرحاء منهم.

(2) يريد: أن قتيبة بن مسلم الباهلي من صريح قيس عيلان، خلاف بني المهلب الذين في نسبهم اختلاف واختلاط!

(3) الأطواد: جمع طود؛ وهو الجبل.

(4) المنصف من الطريق ومن كلّ شيء: وسطه. الفرصاد: صبغ أحمر.

(5) الغَمر: الحقد والغل.

(6) المألُكة: الرسالة. الأصفاد: جمع صفد؛ وهو القيد.

(7) الأطناب: جمع طُنب؛ وهو حبلٌ طويلٌ يُشدّ به الخباء.

فوقع الشعر موقعه في نفس مجزأة بن يزيد بن المهلب، فمشى بأمر كعبٍ حتى عفا يزيد عنه، وكف عن طلبه، وإنْ كان أضمرَ له خلاف ما أظهر.

وكان لكعب ابن أخٍ مبغض له، وكان بينهما تباعد وعداوة، وكانت أمه سوداء، فقال كعبٌ يهجوه بها:

إنَّ السَّوادَ الذي سُرْبِلتَ تعرفُهُ ... ميراثُ جَدِّك عن آبائِهِ النُّوبِ
أشبهتَ خالَكَ خالَ اللُّؤمِ مؤتَسِياً ... بِهَدْيِهِ سالكاً في شرِّ أُسْلُوبِ

فزادَ ذلك من البغضاء في نفسه، واتفق أن دسَّه يزيد بن المهلب على كعب، وجعل له مالاً على قتله.

فلما كانت فتنة يزيد بن المهلب (101–102هـ) أول خلافة يزيد بن عبد الملك، جاءه ابن أخيه وهو نائم تحت شجرة بعُمان؛ فضرب رأسه بفأس فقتله.

وكان لكعب أخ غير أخيه الذي قتله ابنه، فلما قُتِلَ يزيد بن المهلب فَرَّق مَسلَمة بن عبد الملك أعماله على عُمَّال شتى، فولى البصرة وعُمان عبد الرحمن بن سليمان الكلبي، فاستخلف عبد الرحمن على عُمان محمد بن جابر الراسبيّ؛ فأخذ أخو كعب الباقي ابن أخيه الذي قَتَلَ كعباً فَقَدَّمه إلى محمد بن جابر، وطلب القَصاص منه بكعب. فقيل له: قُتِلَ أخوك بالأمس، وتَقتلُ قاتلَهُ، وهو ابن أخيك، اليومَ، وقد مضى أخوك وانقضى، فتبقى فرداً كقرن الأعضب[1]؟!

فقال: نعم، إن أخي كعباً كان سيّدنا وعظيمنا ووجهَنا فقتله هذا، وليس فيه خيرٌ، ولا في بقائه عِزٌّ، ولا هو خَلَفٌ من كعبٍ؛ فأنا أقتله به، فلا خيرَ في بقائه بعد كعب.

فقدّمه محمد بن جابر فضرب عنقه.

---

(1) الأعضب: المكسور أحد قرنيه.

سديف بن ميمون[1]

ترجمته:

إنه شاعرٌ ثائرٌ على دولةٍ، كَثُرَ الظلمُ من حكّامها، وانفرط عِقدُها، والتهبت الثورات في أرجائها؛ حتى إذا نجحت إحداها، وقوَّضت أركانها، وأدَّت إلى انقراضها، وأقامت مقامها دولة جديدة؛ كشف عن غضبه وحنقه على الدولة البائدة، والتحق بالدولة الوليدة، محرِّضاً حكَّامها على إبادة كلّ مَنْ يمتّ إلى أولئك الظلمة - في نظره - بسَبَبٍ، جاعلاً شعره بوقاً للشيطان لا يحضّ إلا على شرّ ودمٍ.

وما إن تعصف ثورة علوية بالدولة الوليدة، حتى ينضمّ إليها، ويثني عليها، ويحط من شأن مناهضيها. ولكن .. أصاب الإخفاق تلك الثورة، فأُخذ وقُتلَ.

* * *

إنه سديف بن ميمون، مولى بني خزاعة. ادَّعى ولاءه في بني هاشم؛ لما تزوّجت مولاته الخُزاعية من رجل من آل أبي لَهب، فلما كانت الدولة العباسية اشتُهر بولائه لزوج مولاته.

وقد كان من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وكان ناقماً على الأمويين أشدَّ النقمة، كثيرَ الشِّجار مع مَواليهم بمكة، حتَّى تعصَّبت له جماعة سُمِّيت بالسُّديفية، قامت بأمره، وسارتْ على هديه في الحط من الأمويين، والغضب من جورهم. وكان يدعو عليهم فيقول: «اللهمَّ! قد صار فَيئنا دُولةً بعد القسمةِ، وإمارتُنا غلبةً بعد المَشُورة، وعَهدُنا ميراثاً بعد الاختيار للأمّة، واشتُرِيتِ الملاهي والمعازف بسَهمِ اليتيم والأرملة، وحَكَمَ في أَبشارِ المسلمين أَهلُ الذِّمَّة، وتَولَّى القيامَ بأمورهم فاسقُ كلّ محلةٍ، فلا ذائدَ يذودُ عن هلكةٍ، ولا مُشفق ينظرُ إليهم بعينِ الرَّحمة، ولا رادعَ يردع مَنْ أوى إليهم بمظلمة، ولا ذو شفقة يشبع الكبد الحرى من السَّغب، فهم أهل ضَرع وضيعةٍ، وحلفاءُ كآبةٍ وذلةٍ. قد استحصد زَرعُ الباطل وبَلَغَ نهايته، واستجمع طَريده، واستوسق، وضَرَبَ بِجرانه.

اللهم! فأتحْ لَهُ يداً من الحق حَاصِدةً تَجتَثّ سنامه، وتهشم سُوقه، وتبدِّد شَمَلَهُ، وتُفرّق كَلِمَتَهُ، ليظهرَ الحق في أحسن صورتِهِ، وأتمّ نوره، وأعظم بركته.

اللهم! وقد عَرفنا من أنفسنا خِلالاً تقعد بنا عن استجابة الدعوة، وأنتَ المفضل على الخلائق أجمعين، والمتولي الإحسان إلى السائلين؛ فآت لنا من أمرنا حَسبَ كَرَمِكَ وجودِك وامتنانك، فإنك تقضي ما تشاء، وتفعل ما تريد».

---

(1) الشعر والشعراء: 749/2-750، والكامل في اللغة والأدب: 1336، وطبقات ابن المعتز: 37-42، والأغاني: 345/4-346 و350-352 و135/16-136، والعقد الفريد: 87/5-90، والوافي بالوفيات: 78/15-79.

ولما انتصر العباسيون على الأمويين، ودالت إليهم الأقطار، وبويعَ أبو العباس أولَ خليفةٍ عباسي، واتَّصل الخبر بسديف، شدّ المطية إليه، حتى دخل عليه. وكان به عارفاً. فلما وصل إليه قال له: مَن أنتَ؟

قال: أنا سديف بن ميمون.

قال أبو العباس: مولاي سديف؟

قال: نعم، يا أمير المؤمنين! ثم هنأه بالخلافة، ودعا له بالبركة[1].

ولما التفت في مجلس السفاح رأى جماعة من بني أمية جالسين على الكراسي؛ فأثار ذلك غضبه، واهتاج الحقد في نفسه، فاندفع مادحاً السّفَّاح، ومحرِّضاً له على إبادة الأمويين بتذكيره بمقاتل الهاشميين على أيديهم[2]:

أصبح المُلْكُ ثابتَ الآساسِ ... بالبَهاليلِ من بني العبّاس

بالصّدورِ المقَدَّمينَ قديماً ... والرُّؤوسِ القَماقِمِ الرُّؤَّاسِ

يا أميرَ المطَهَّرينَ مِنَ الذَّمّ ... ويا رأسَ منتهى كلّ راسِ

أنتَ مَهْدِيُّ هاشمٍ وهُداها ... كمْ أُناسٍ رَجَوْكَ بعد إياسِ

لا تُقيلَنّ عبدَ شَمْسٍ عِثَاراً ... واقْطَعَنْ كلَّ رَقْلةٍ وغِرَاسِ[3]

أَنْزِلُوها بحيث أنزَلها اللهُ ... بدارِ الهَوَانِ والإتْعاسِ

خَوْفُهم أَظهرَ التَّوَدُّدَ منهمْ ... وبهم منكمُ كحَزِّ المَوَاسِي

أقْصِهم أيُّها الخليفةُ واحْسِمْ ... عنك بالسَّيفِ شَأفَةَ الأرْجاسِ

واذْكُرَنْ مَصْرَعَ الحُسَيْنِ وزَيْدٍ ... وقَتِيلٍ بجانبِ المِهْراسِ

والإمامِ الذي بحَرَّانَ أمْسَى ... رَهْنَ قبرٍ في غُرْبةٍ وتَنَاسِي

فلقد ساءني وساءَ سَوَائي ... قُرْبُهُمْ من نَمارِقٍ وكَرَاسِي

نِعْمَ كَلْبُ الهِرَاش مولاك لولا ... أَوَدٌ من حبائلِ الإفلاس[4]

---

(1) تحتّم علينا أن نذكرَ هنا كيف أسهمَ سديف بشعره في الإيقاع بالأمويين، وقتلهم بلسانه. وعلى الرغم من أن هذه الأخبار والأشعار تندرج فيما له اتصال بالفصل الثالث من كتابنا هذا، إلا إننا فضَّلنا سرد القصة كاملة هنا حتى لا تفقد التجزئة ترابط الأحداث، وهو بعد في آخر أمره قد قُتِل بشعرِه.

(2) نُسبت الأبيات في الكامل في اللغة: 1337 والعقد الفريد: 356/2؛ إلى شبل بن عبد الله مولى بني هاشم لعبد الله بن علي عمّ السفاح.

(3) الرّقلة: النخلة الطويلة التي تفوت اليد.

(4) الأَود: الكدّ والتعب والجهد.

فعملت كلمته في أبي العباس، وحرَّكت منه، وعنده قوم من بني أمية فقالوا: أَعرابيٌّ جَلفٌ جَافٍ، لا يدري ما يخرج من رأسه. فتفرق القوم على ذلك، بعد أن أضمر السفاح الإيقاع بهم.

فلما كان من الغد، وجَّه أبو العباس إليهم: أن اجتمعوا واغدوا على أمير المؤمنين مع سيِّدكم سليمان بن هشام بن عبد الملك ليفرضَ لكم ويجيزكم . وكان سليمان يُكنَّى أبا الغمر، وكان صديقاً لأبي العباس من قبل أن تُفضي إليه الخلافة، يُكاتبه ويقضي حوائجه.

فلما أصبحوا تَهَيَّئوا بأجمعهم، وبكَّروا إلى أبي العباس مع أبي الغمر، فَأَذِنَ لهم، ورَفَعَ مجالسَهم، وأجلس أبا الغمر سليمان بن هشام عن يمينه على سريره، وجاء سديف حين سمع باجتماعهم حتى استأذن عليه، فلما مَثُلَ بين يديه ونظر إلى مجالسهم كهيئتها بالأمس، ورأى أبا الغمر على السرير . وفيهم رجل من كلب من أخوال أبي الغَمر، وكان مَنَعَهُ الحاجب وقت دخولهم، فنادى: يا أبا الغمر! هذا يمنعني من الدخول. فقال أبو الغمر: هذا رجل من أخوالي فاتركه. فقال له الحاجب: ويلك ارجع! فهو خير لك. فقال: لا والله لأدخلن. قال: أنت أعلم . اهتاجت نفسه وأنشأ يقول:

يا بـــنَ عـــمِّ النَّـــبي أنـــتَ ضـــياءٌ ... اســـتبنا بـــك اليقـــينَ الجليـــا

يا وَصـــــيَّ الشـــهيدِ أكرمـــكَ اللهُ ... فقـــد كنـــتَ للشـــهيدِ وصـــيَّا

لا يَغُرَّنَّـــكَ مـــا تَـــرى مِـــنْ رِجـــالٍ ... إنَّ تَحـــتَ الضُّـــلوعِ داءً دَوِيَّا

بَطَـــنَ الـــبُغضُ في القـــديمِ فأضـــحى ... ثابتـــاً في قلـــوبِهم مطـــوِيَّا

فَضَـــعِ السَّـــيفَ وارْفَـــعِ السُّـــوطَ حَـــتَّى ... لا تَـــرى فَـــوقَ ظَهرِهـــا أُمَـــوِيَّا

فقال أبو العباس: يا سديفُ! خُلِقَ الإنسانُ من عجلٍ ثم قال:

أحيـــا الضـــغائنَ آباءٌ لنـــا سَـــلَفُوا ... فلـــنْ تَبِيـــدَ ولـــلآباءِ أبنـــاءُ

ثم أمر السفاح بالأمويين فشدخت رؤوسهم بالأعمدة، ونظر إلى أبي الغمر وقال له: يا أبا الغمر! مَا لكَ في الحياة خيرٌ بعد هؤلاء. فقال: أجل. فشدخوا رأسه، وجرّوه برجله، حتى ألقوه مع القوم.

وصاح الرجل الكلبي فقال: يا أمير المؤمنين! أنا رجل من كلب.

فقال أبو العباس: ساعدتَ القوم في سرَّائهم، فساعدهم في ضَرَّائِهم، وأومأَ أن اضربوهُ فإذا هو مع القوم. ثم جمعهم، وأَمَرَ بالأنطاع فبُسِطَتْ عليهم، ثم جَلَسَ فَوقَهم، ودعا بالغداء فتغدَّى، وإن بعض القوم ليتحرك، وفيهم مَن يسمع أنينه. فلما فَرَغَ من غدائه قِيل لهُ: هَلاَّ أمرتَ بهم فدفنوا، أو حُوِّلوا إلى مكان آخر فإن رائحتَهم تُؤذيك؟

قال: والله إنَّ هذه الرائحةَ لأطيبُ عندي من رائحة المسك والعنبر.. الآنَ سَكَنَ غَلِيلي!

ولم تهدأ نفس سديف بما سفكه أبو العباس في عهده من دماء بني أمية ظلماً وتعدياً، بل استمرَّت نقمته عليهم، وزاد من تشفِّيه فيهم، حتَّى إنه دخل عَلَى المنصور فِي خلافته ووجد عنده رجلاً أمويّاً؛ فحرّضه عَلَى قتله فقال:

يَا رَاتِقَ الفَتقِ مِن جِلبابِ دولتِهِ ... ومَن شَبا قلبُهُ مُسْتَيْقِظٌ عادي
أَنِّ ومِنْ أينَ لي فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ... مَوْلى كأنتَ لإصدارٍ وإيرادِ
لا تُبْقِ مِن عبدِ شمسٍ حَيّةً ذَكراً ... تَسْعَى إِليكَ بإرصادٍ وإلحادِ
جَدِّدْ لهُمْ رَأيَ عَزمٍ مِنكَ مُصطلمٍ ... يكونُ منهُ عِبادِيّاً على الهادي
ولا تُقيلَنْ منهم عثرةً أحداً ... فكُلّهُم وَفَتَاهُمْ حَيَّةُ الوادي
وهل يُعلِّمُ هِمّاً خمرة حَدَثٌ ... عَبْدٌ ومَولاهُ نِحريرٌ بِهَا هادي
آليتُ لو أنّ لي بالقومِ مَقدِرةً ... لَمَا بَقَى حَاضِرٌ مِنهُمْ ولا بَادِي

فقتلهُ.

واستمرَّت حالهُ في صعود في الدولة العباسية، حتى انضمَّ إلى ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن وأخيه إبراهيم، فلمَّا قُضي عليها، أمرَ به أبو جعفر المنصور فقُتل جزاءً لكُفره بالنّعمة، وانقلابه على أسياده ومواليه!.

قصة مقتله على يد المنصور:

قلنا: إنَّ سديفاً كان ناقماً على الدولة الأموية، يدعو ربّه أن يشهدَ نهايتها، وقد حقَّق له الله دعاءه، فاستطاع العباسيون إنهاء دولتهم، وتشييد دولة جديدة. ولكنَّ سديفاً لم تطب نفسُهُ بالحياة إلا بعد إلحاق الأمويين بالموت.. وقد نجح بذلك كلَّ النجاح.

ويبدو أن سديفاً لم يجد في هذه الدولة ضالّتهُ، ولم يعثر بها على مثالِهِ، فهو وإن سرّهُ ما سفكته من دماء الأمويين ظلماً وبغياً، وأعادت بعض السكون إلى نفسه الجريحة من حكمهم؛ فقد كان هواهُ طالبياً علوياً على عادة أهل الحجاز. ولكنْ كيفَ لهُ الإفصاحَ عما في نفسه، والإشادة بِمَنْ هم أحقّ بالخلافة من بني العباس بعد أن سلبوا الطالبيين حقّهم؟!

لم يكنْ له من سبيل سوى الصبر وانتظار الفرصة، عسى الأيام تجود بثائر طالبيٍّ يهبّ ليطالب بحقه السليب.

وهذا ما كان.. فما أن دخلت سنةُ خمس وأربعينَ ومئة للهجرة حتَّى ثار محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ بالحجاز، مطالباً بحقه بالخلافة، وخرج معه أخوه إبراهيم بالعراق

مؤيّداً له، فالتحق سديف بخدمته، وأيّد دعوته. ولما خطبَ محمدٌ معلناً دعوته لنفسه، وثورته على العباسيين الذي سلبوه حقه بالخلافة (على زعمه)؛ مدحه، وأشار عليه أن يأخذَ على يد المنصور الظالم لحقهم فقال:

أســـــرفتَ فِي قَتــــلِ البريّـــةِ جاهـــــداً ... فـــاكفُفْ يـــديكَ أضَـــلَّها مَهْـــدِيُّها

فَلْتَأتيَنّـــــــكَ غـــــارةٌ حَسَـــــنيَّةٌ ... جـــــرّارةٌ تحتثّهـــــا حســـــنِيُّها

حَـــتَّى تُصـــبّحَ قريـــةً كُوفيَّـــةً ... لمـــا تَغَطْـــرَسَ ظالمـــاً حَرَميُّهـــا

فبلغ ذَلِكَ المنصورَ، فقال: قتلني الله إنْ لَمْ أُسِرْفْ فِي قتله.

وَكَانَ المنصور قَدْ وَصَلَ سُديفاً بألف دينار، فدفعها سديفٌ إلى محمّد بن عبد الله معونةً لَهُ.

وأعانَ سديفٌ بشعره محمد بن عبد الله وأخاه إبراهيم على المنصور، من ذلك قوله:

إنَّ الحمامـــةَ يَـــومَ الشَّـــعبِ مـــن حَضَـــنٍ ... هَاجـــتْ فُـــؤادَ مُحـــبٍّ دَائِـــمَ الحَـــزَنِ[1]

إنَّا لَنَأمُـــــــلُ أَنْ ترتَـــــــدَّ أُلْفَتُنـــــــا ... بَعـــدَ التباعُـــدِ والشَّـــحناءِ والإحَـــنِ

وتَنْقضــــي دولـــــةٌ أحكـــــامُ قادتهـــــا ... فِيهـــا كأحكـــامِ قـــومٍ عابـــدِي وَثـــنِ

فـــانهضْ بِبَيْعَـــتِكُم نَـــنْهَضْ بِطاعتنـــا ... إنّ الخِلافـــةَ فـــيكم يَا بـــني حَسَـــنِ

لا عَـــزَّ رُكـــنُ نِـــزارٍ عِنـــدَ نائبـــةٍ ... إنْ أَســـلموكَ ولا رُكـــنٌ لـــذِي يَمَـــنِ

أَلســـتَ أَكـــرمَهُمْ عـــوداً إذا انتســـبوا ... يومـــاً وأطهـــرَهم ثَـــوباً مـــن الـــدَّرَنِ

وَأعظـــمَ النَّـــاسِ عِنـــدَ اللهِ مَنزلـــةً ... وأبعـــدَ النَّـــاسِ مِـــنْ عَجـــزٍ ومـــن أَفـــنِ

فلمَّا بلغتْ الأبيات أبا جعفرٍ المنصور استشاط غضباً، وزادَ عزمه على قتله.

وأخيراً، استطاع عيسى بن موسى أن يهزم محمد بن عبد الله، ويقضي على ثورته، فما كان من سديف إلا أن التحق بأخيه إبراهيم بالبصرة شادّاً على يديه، مدافعاً عن حقّه. ومما قاله فيه وقد صعد المنبر:

إيــــــهِ أبا إِســــــحاق مُلِّيتَهـــــا ... فِي صـــحةٍ مِنـــكَ وعُمـــرٍ طَوِيـــلْ

اذْكُـــــرْ هَـــــدَاكَ اللهُ ذَحـــــلَ الأُلى ... يُســـرَى بِهـــم فِي مُصـــمَتاتِ الكُبـــولْ

فلما استطاع المنصور أن يهزمه ويقتله، خاف سديف على نفسه، فهجا بني الحسن فقال:

بـــــني حســـــنٍ أَحـــــدِثوا توبـــةً ... فلـــيسَ الحـــديثُ كمـــا تزعمـــونا

أقلـــــتُم يكـــــون لنـــــا قـــــائمٌ ... فـــــنحنُ بقـــــائِمُكم كـــــافرونا

وقال أيضاً مدافعاً عن حق بني العباس بالخلافة:

كـــذبتْ بنـــو حَسَـــنٍ وربِّ محمَّـــدٍ ... مـــا العـــمُّ كـــابنِ العـــمِّ فِي المـــيراثِ!

---

(1) حضَن: جبلٌ بأعلى نجدٍ.

واستمرَّ متوارياً عن الأعين، حتى سكنت الفورة، ثم كتب إلى المنصور يسأله أن يمنّ عليه بالعفو، وكتب إليه بهذه الأبيات:

أيُّهـــــا المنصـــــورُ يا خَـــــيرَ العَـــــرَبْ خـــيرَ مَـــنْ يَنمِيـــهِ عَبـــدُ المطَّلِـــبْ

أنا مَـــــــولاكم وأرجُـــــــو عَفـــــوَكم فـــاعفُ عَـــنِّي اليـــومَ قَبـــلَ العَطَـــبْ

فوقع المنصور في كتابه بخطه:

لم يَلِـــــدْنِي مُحمَّـــــدُ بـــــنُ علـــــيِّ إنْ تَســـــــمَّيتَ بَعـــــدَها بِـــــوَلِيِّ

ثم كتب إلى عمه عبد الصمد بن علي يأمره بقتله، فبحث عنه، حتى عثر عليه، فعاقبه بقطع يديه ورجليه، ثم بضرب عنقه. وقيل: إنه حُمِلَ إلى المنصور، فدفنه حياً.

وهكذا، كانت نهاية شاعرٍ لولاه ما ما زِيدَ من التنكيل في بني أمية، وما سُفِكَ من دمائهم ما سُفِكَ؛ فهو شاعر الثورة، وقتيلُ ثورة. وكأن اللهَ قد سقاه من نفس الكأس الذي سقى أعداءه منه.

حمّاد عجرد[1]

ترجمته:

هو حماد بن يحيى بن عمرو بن كُليب، مولى بني صعصعة. ولُقِّب بعجرد؛ لأن أعرابياً مرّ به في يومٍ شديد البرد، وهو عريان يلعب، فقال له: تعجْرَدتَ[2] يا غلام؛ فلقِّب بعجرد.

وأصله ومنشؤه في الكوفة، وكان أبوه يعمل بها نبَّالاً.

وحماد من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، حيث نادم الوليد بن يزيد بن عبد الملك في خلافته. وإن كانت شهرته قد ذاعت في العصر العباسي.

كان شاعراً خليعاً، ماجناً، مُتَّهماً في دينه، مَرمِيَّاً بالزندقة. وقد دخل في مهاجاة طويلة وشديدة مع بشار بن برد، وكلاهما رأسٌ في الزندقة، ففضح أحدهما الآخر، وفي ذلك يقول علي بن مهدي: أجمع العلماء بالبصرة أنه ليس في هجاء حماد عجرد لبشار شيء جيد إلا أربعين بيتاً معدودة، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد. وكل واحد منهما هو الذي هتك صاحبه بالزندقة وأظهرها عليه، وكانا يجتمعان عليها؛ فسقط حماد عجرد وتهتَّك بفضل بلاغة بشار وجودة معانيه، وبقي بشار على حاله لم يسقط، وعُرف مذهبه في الزندقة فقُتل به.

دخل حماد بغداد أيام المهدي، وكانت وفاته قتلاً على يد محمد بن سليمان، سنة (161 هـ)، وقيل: 155هـ، وقيل: 158 هـ، ودفن وبشار بن برد على تلة واحدة!

من روائع شعره، قوله:

إنَّ الكَــــريمَ لَيُخْفِـــي عَنْـــكَ عُسْــرَتَهُ ... حــــتَّى تَـــرَاهُ غَنِيّـــاً وهْـــوَ مَجْهُـــودُ

وللبَخِيــــل علـــى أمْوَالــــهِ عِلَـــلٌ ... زُرْقُ العُيُـــونِ عليْهـــا أَوْجُـــهٌ سُـــودُ

إِذَا تَكرّمْـــــتَ أَنْ تُعْطِـــي القَلِيــــلَ ولَمْ ... تَقْـــدِرْ علـــى سَـــعَةٍ لَمْ يَظْهَـــرِ الجُـــودُ

أَبْـــرِقْ بخَـــيْرٍ ترجـــى للنَّـــوَالِ فمـــا ... تُرْجَـــى الثمـــارُ إذا لَمْ يُـــورِق العُـــودُ

بُــــثَّ النَّــــوَالَ ولا تَمْنَعْـــكَ قِلَّتُـــه ... فكـــلُّ مـــا سَـــدَّ فَقْـــراً فَهْـــوَ مَحْمُـــودُ

وقوله:

كَــــمْ مِـــنْ أَخٍ لَـــكَ لَســـتَ تُنكِـــرُهُ ... مَـــا دُمـــتَ مِـــنْ دُنيـــاكَ في يُســـرِ

---

(1) الأغاني: 321-381، وطبقات الشعراء: 67-69، وتاريخ بغداد: 148/8، والشعر والشعراء: 767/2-768، ووفيات الأعيان: 210/2-213، والوافي بالوفيات: 88/13-90.

(2) تعجردتَ: تعرَّيتَ.

مُتَصَنِّعٌ لَكَ في مَودَّتِهِ ... يَلقاكَ بالتَّرحيبِ والبِشْرِ
يُطْرِي الوفاءَ وَيُلْحي الغدرَ مُجتهداً وذا الغَدرِ
فإذا عَدا، والدَّهرُ ذو غِيرٍ، ... دهرٌ عليكَ عَدا معَ الدَّهرِ
فارفضْ بِإِهمالٍ أُخوَّةَ مَنْ ... يَقلِي المقلَّ ويَعشقُ المثْرِي
وعليكَ مِنْ حَالاهُ وَاحدةٌ ... في العُسرِ إمَّا كنتَ واليسرِ
فلقد خَبَرْتُ وما استوى رَجلٌ ... خُبرٌ وآخرُ غيرُ ذِي خُبْرِ
فوجدتُ مَنْ أَحبَبْتُ مُتَّهماً ... متصرِّفاً لتصرُّف الدَّهرِ
إلا القليلَ قد وجدتُ ذوي ... عهدٍ وشُكر أيما شُكرِ

وقوله:

ألستَ بودِّي واثقاً لكَ إنَّني ... بودِّك مني واثقٌ بي فاعلما
أَمَا والَّذي نادى من الطّورِ عَبدُه ... وكرَّمَ بالإنجيلِ عيسى ابنَ مَريَما
وخَصَّ بآياتِ القُرانِ مُحَمَّداً ... نَبيَّ الهُدَى صَلَّى عَليهِ وسَلَّما
لقد حُزتَ من قلبي مَكاناً مُمَنَّعاً ... أرى لكَ فِيهِ أن أُرِيقَ لَكَ الدَّما
أرى ذاك من غُنمٍ، ولستُ أرى الَّذي ... يَرى النَّاسُ من غُنمِ المكاسبِ مَغنَما
سأَشْرَبُ كَأسيكَ الَّلتينِ سَقَيتَني ... وإنْ كَانَتا واللهِ صَاباً وعَلقَما
وأُدخِلُ كفِّي إثْرَ كَفِّكَ في الَّذي ... عَراكَ ولو أدخلتها ثُقْبَ أَرَقَما

قصة مقتله على يد محمد بن سليمان:

صَحِبَ حمادُ عجرد محمدَ بن أبي العباس السفاح والي البصرة أيام المنصور ونادمه، وكان محمد يَهوى زينبَ بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، بنت عمّه، وكان قد قَدِمَ البصرة أميراً عليها فخطبها فلم يزوِّجوه؛ لشيء كان في عقله، فقال محمد لحماد: قل فيها شعراً.

فقال حماد فيها على لسان محمد بن أبي العباس هذه الأبيات:

زينبُ ما ذنبي وماذا الّذي ... غضِبتُم منهُ ولم تُغْضَبُوا
واللهِ ما أعرِفُ لي عندَكمْ ... ذَنباً ففيمَ الهجرُ يا زينبُ
إن كنتُ قد أغضبتُكُمْ ضَلَّةً ... فاستعتِبوني إنني أُعتبُ
عُودُوا على جَهلي بأحلامِكمْ ... إني وإن، لم أُذنِبِ، المذْنِبُ

وقال أيضاً على لسانه:

ألا مَـــنْ لِقَلْـــبٍ مســـتهامٍ معـــذَّبِ	بحـــبِّ غـــزالٍ في الحِجـــالِ مُربَّـــبِ
يـــراهُ فـــلا يَسْـــطيعُ ردّاً لطَرْفِـــهِ	إليـــهِ حِـــذَارَ الكاشِـــحِ المترقِّـــبِ
ولـــولا مليـــكٌ نافـــذٌ فيـــه حُكمُـــهُ	لأَدْنَ وصـــالاً ذاهبـــاً كـــلَّ مَـــذهبِ
تغَـــيّرْتُ خلْـــفَ الَّلهـــوِ بعـــد صِـــراوةٍ	فبحـــتُ بمـــا ألقـــاهُ مـــن حُـــبِّ زينـــبِ

فبلغ الشعر محمد بن سليمان بن علي، فنذر دمه، ولم يقدر عليه لمكانه من محمد بن أبي العباس، وكان شديداً قوياً جواداً!

حتَّى إذا مات محمد بن أبي العباس سنة خمسين ومئة، وولي محمد بن سليمان البصرةَ، لجَّ في طلب حماد عجرد، لما كان قد قاله في أخته زينب. فعلمَ حماد أنه لا مُقام له في البصرة، وخافه خوفاً شديداً، فكتب إليه معتذراً، يطلب عفوه:

يابـــن عـــمِّ النَّـــبيِّ وابـــنِ النـــبيِّ	لعلـــــيٍّ إذا انتَمَـــــى وعلـــــيّ
أنـــتَ بـــدرُ الـــدُّجى المضِـــيءُ إذا أظْـــ	ـــلمَ واســـودَّ كـــلُّ بـــدرٍ مُضِـــيّ
وحَيَـــا النَّـــاسِ في المحـــولِ إذا لم	يُجْـــدِ غيـــثُ الرَّبيـــعِ والـــوَسْمِيّ
إنّ مـــولاكَ قـــد أســـاءَ ومَـــن أعْـــ	ـــتبَ مـــن ذنبـــه فغـــيرُ مُسِـــيّ
ثم قـــد جـــاء تائبـــاً فاقبـــل التـــو	بـــةَ منـــهُ يا بـــنَ الوَصِـــيّ الرَّضِـــيّ

وزيادة في الاعتذار، مضى إلى قبر سليمان بن علي والد محمد، واستجار به، وقال فيه:

مِـــنْ مُقـــرٍّ بالـــذنبِ لم يُوجـــبِ اللهُ	عليـــــهِ بســـــيِّئٍ إقـــــرارا
لـــيسَ إلاَّ بفضـــلِ حِلمِـــكَ يَعتـــدّ	بـــــلاءً ومـــــا يُعِـــــدُّ اعتـــــذارا
يا بـــن بيـــت النَّـــبيِّ أحمـــدَ لا أجْـــ	ـــعلُ إلاَّ إليـــكَ منـــكَ الفِـــرَارا
غـــيرَ أنِّي جعلـــتُ قـــبرَ أبي أيّـــو	بَ لِيْ مِـــنْ حَـــوادِثِ الـــدَّهرِ جَـــارا
وحَـــرِيٌّ مَـــنِ اســـتجارَ بِـــذاكَ الـــ	ـــقَبْرِ أن يَأْمَـــنَ الـــرَّدَى والعِثَـــارا
لم أجـــدْ لي مـــن العبـــادِ مُجِـــيراً	فاســـتجرتُ الـــتُّرابَ والأحجـــارا
لســـتُ أعتـــاضُ منـــكَ في بغيـــة العِـــزَّةِ	قَحطـــــانَ كلَّهـــــا ونِـــــزارا
فـــأنا اليـــومُ جـــارُ مَـــن لـــيس في الـــ	أرْضِ مجـــيرٌ أعـــزُّ منـــهُ جِـــوارا
يا بـــن بيـــتِ النَّـــبيّ يا خـــيرَ مَـــن حَطَّـــتْ	إليـــــهِ الغـــــوارِبُ الأكـــــوارا
إن أكـــنْ مُـــذنباً فأنـــتَ ابـــنُ مَـــن كـــا	نَ لِمَـــنْ كـــان مُـــذنباً غَفَّـــارا
فـــاعفُ عـــنِّي فقـــد قَـــدَرتَ وخـــيرُ الـــ	ـــعَفْوِ مـــا قلـــتَ: كـــنْ، فكـــان اقتـــدارا

لــــو يطيــــلُ الأعمــــارَ جــــارٌ لِعِــــزٍّ　　　كــــان جــــاري يطــــوِّل الأعمــــارا

فلما بلغَ محمداً استجارة حماد بقبر أبيه قال: والله لأبُلَّنَّ قبرَ أبي من دمه.

فهرب حماد إلى بغداد، وَعَاذَ بجعفر بن المنصور الخليفة فأجاره، فقال له: لا أرضى أَو تهجو محمد بن سليمان. فقال حماد يهجوه:

قــــل لوجــــه الخَصِــــيِّ ذي العــــارِ إِنّي　　　ســــوفَ أُهْــــدِي لزينــــبَ الأشــــعارا

قــــد لعمــــرِي فــــررتُ مــــن شــــدَّةِ الخــــو　　　فِ وأنكــــرتُ صــــاحِبيَّ نَهَــــارا

وظننــــتُ القبــــورَ تمنَــــعُ جــــاراً　　　فاســــتجرتُ الــــتُّرابَ والأحجــــارَا

كنــــتُ عنــــد اســــتجارتي بأبي أيّــــوبَ　　　أبغِــــي ضــــلالةً وخَســــارا

لم يُجِــــرني ولم أجــــدْ فيــــهِ حظّــــاً　　　أضــــرمَ اللهُ ذلــــك القــــبرَ نارا

وقال:

لــــهُ حَــــزْمُ بُرغــــوثٍ، وحِلــــمُ مُكاتــــبٍ،　　　وغُلْمَــــةُ سِــــنَّوْرٍ؛ بليْــــل تُوَلْــــوِلُ

وقال:

يا بــــنَ ســــليمانَ يا محمَّــــدُ يا　　　مَــــنْ يشــــتري المكرُمــــات بالسِّــــمنِ

إنْ فخــــرتْ هاشــــمٌ بمَكْرُمَــــةٍ　　　فخَــــرْتَ بالشَّــــحمِ منــــكَ والعُكَــــنِ

لُؤْمــــكَ بادٍ لمــــن يَــــراكَ إذا　　　أقبلــــتَ في العارِضَــــين والــــذَّقَنِ

ليتَــــكَ إذ كنــــتَ ضــــيِّقاً نَكِــــراً　　　لم تُــــدْعَ مــــن هاشِــــمٍ ولم تَكُــــنِ

جَــــدَّاكَ جَــــدَّانِ لم تُعَــــبْ بهمــــا　　　لكنَّمــــا العيــــبُ منــــك في البَــــدَنِ

فبلغ هجاؤه محمد بن سليمان فقال: والله لا يفلِتُنِي أبداً، وإنما يزداد حتفاً بلسانه، ولا والله لا أعفو عنه ولا أتغافل أبداً!

وأقام حماد بالأهواز مستتراً، وبلغ محمداً مكان إقامته، فأرسل مولى له إلى الأهواز؛ فلم يزل يطلبه حتى ظَفِرَ به؛ فقتله غيلةً.

صالح بن عبد القدّوس[1]

ترجمته:

هو صالح بن عبد القدوس الأزدي مولاهم، البصري سكناً. من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية.

نشأ في البصرة، واختلف إلى حلقات العلم فيها، وكان يُكثر الاجتماع بواصل بن عطاء رأس المعتزلة. ويبدو أنه تأثر بما كان يسمعه في مجلسه من استعراض لاختلافات أهل النِّحل، ومناقشات وردود على الفرق الإسلامية؛ الأمر الذي أدَّى به في النهاية إلى تركِ كل ما نشأ عليه، واعتناق مذهب الثنوية المانوية، الذي يقول بثنائية الظلمة والنور.

إلاَّ أنه لم يكن يفصح عما في نفسه خلال الحكم الأموي خوفاً على نفسه، ملتزماً الصمتَ في عقيدته، وفي ذلك يقول:

رُبَّ سِرٍّ كَتمتُهُ فكأنِّي ... أخرسٌ أو ثنى لسانيَ خَبلُ

ولو أَنِّي للنَّاسِ عِلمي ... لم يكُنْ لي في غيرِ حَبسيَ أَكْلُ

إلا أن تكتّمه قد أخذ يزول بعد قيام الدولة العباسية، حيث شعر ببعض الحرية في التعبير، ولا سيما وأنّ الدولة كانت فارسية الطابع. ومن ذلك ما يُروى: أن قوماً من أهل الأدب اجتمعوا في مجلس فيهم صالح بن عبد القدوس، يتناشدون الأشعار، إلى أن حانت الصلاة، فقام القوم إلى ذلك، وقام صالح فتوضأ وأحسن، ثم صلى أتمَّ صلاة وأحسنها، فقال بعضهم: أتصلِّي هذه الصلاة ومذهبُك ما تذكرُ؟! فقال: إنَّما هو رَسمُ البلد، وعَادةُ الجسد.

إذنْ، الدين عنده حركات وعادات لا بدّ أن يحافظ عليها المرء كيلا يرميه العوام بالدواهي، ويُنسبَ إلى الكفر والزندقة.

ولكنه في مَحضر علماء الكلام كان يُفصح جهاراً عن مذهبه، وينافحُ عنه، ولكنّ سقم حججه وبطلانها يؤدي به إلى الانقطاع. وهذا ما حصل معه حين ناظره أبو هذيل العلاف المعتزلي في مسألة الامتزاج بين النور والظلمة، فأقام عليه الحجّة فانقطعَ، فأنشأ صالح يقول:

أبا الهُذَيلِ هَدَاكَ اللهُ يا رجلُ ... فأنتَ حقَّاً لَعمري مُعضِلٌ جَدِلُ

---

(1) طبقات الشعراء لابن المعتز: 89-92، وأمالي المرتضى: 1/159-161، وتاريخ دمشق: 23/345-351، ووفيات الأعيان: 2/492-493، وسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: 227-228، وتاريخ بغداد: 9/303، ومعجم الأدباء: 1445، ونكت الهميان: 171، ولسان الميزان: 3/172.

وقال له أبو الهذيل مرةً: على أيِّ شيءٍ تعزم يا صالحُ؟

فقال: أستخيرُ اللهَ وأقولُ بالاثنينِ.

فقال أبو الهذيل: فأيّهما استخرتَ لا أمَّ لكَ؟!

وقد كان لاطلاعاته على كثير من النحل والأديان أورث عنده شكّاً في الديانات كلِّها، وهذا ما نسلمه من خبر وفاة ابنه؛ حيث يروي الجاحظ يقول:

مات لصالح بن عبد القدوس ولد، فمضى إليه أبو الهذيل ومعه النظام، وهو غلام حَدَثٌ، فرأى مِن جَزَعِهِ فقال له: لا أعلم لجزعك وَجْهاً؛ إذ كان الناس عندك كالزرع!

فقال صالح: يا أبا الهذيل! إنما أجزعُ عليه لأنه لم يقرأْ كِتابَ الشكوك.

فقال: وما هو؟

قال: كِتابٌ وَضَعْتُهُ، مَنْ قَرَأَهُ شَكَّ فيما كان، حتى يتوهَّم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتَّى يظنَّ أنه قد كان.

فقال له النظام: فشُكَّ أنتَ في ابنِكِ أنه لم يَمُتْ، وإن كان مات. واعمل على أنه عاش إلى أن قرأ الكتاب، وإن كان ما عاش إلى أن قَرَأَهُ.

فَبُهِتَ صَالِحٌ وحَصِرَ.

وهذه الأخبار وغيرها تجعلنا نتساءل: هل انعكس هذا المعتقد الفاسد على شعره؟

الجواب: في الغالب، لا. إنّه نَهَجَ في شعره نَهج الحكماء والوعاظ، فأخرجَ حِكَماً وأمثالاً جرت على مر السنين. ولعل ما يُلتمس فيه من روح إسلامية أو ألفاظ قرآنية مردّه إلى أنَّه وأمثاله من الشعراء المولَّدين ذوي العقائد الفارسية المجوسية قد وصلوا إلى مزيج غريب يجمع بين عقائدهم السالفة وروح الإسلام وأخلاقه العالية السامية؛ وهذا تمويهٌ أوقع أهل عصرهم ومَنْ جاء بعدهم في حَيرة؛ إذ كيف هم زنادقة وملاحدة ويخرج شعرهم إسلامياً قرآنياً؟!

وعلى كلٍّ، فقد أُلقي القبض عليه أيام المهدي بتهمة الزَّندقة، وبقي في السجن حتى نظر في أمره الرشيد(1) فقضى بيت من شعره عليه بالهلاك.

---

(1) لا بدّ أن أُشير ههنا: إلى أن المصادر اضطربت في اسم الخليفة التي قتل صالحاً؛ فأغلبها على أنه المهدي. وصحّح ابن المعتز والأصفهاني (الأغاني: 177/14) كون الرشيد هو قاتله. وإلى تصحيحهم أميل. وأظنّ أنه وُقف به مرّتين: مرة أمام المهدي، ومرة أمام الرشيد، وإلا لِما كلّ هذا الاختلاف في خبر قتله؟ ثم إنّ بين وفاة المهدي وحكم الرشيد نحو سنة، فلا يمنع أن يكون قُبض عليه أيام المهدي، وناظره .كما سيمر . ثم أُودع السجن، فلما مات المهدي وجاء الهادي بقي حبيس السجن لكثرة مَنْ قبض عليهم من الزنادقة أيام الهادي والمهدي، فتأخر النظر فيه، إلى أن نظر في أمره أخيراً الرشيد لما أصبح خليفة بعد أخيه

ومن عيون شعره قصيدته المسمَّاة بالزَّينبيَّة، يقول:

صَــرمتْ حبالَــكَ بعــدَ وَصــلِكَ زَينــبُ والــــدَّهرُ فِيـــهِ تَغـــيُّرٌ وتَقلُّــــبُ
نَشَــرَتْ ذَوَائِبَهـــا الَّـــتي تَزهُـــو بهـــا سُــوداً ورأسُــك كالثّغامـــةِ أَشــيبُ
واســـتنفرتْ لمـــا رَأَتْـــكَ وطَالَمَـــا كانـــتْ تَحـــنُّ إلى لقـــاكَ وتَرغَـــبُ
وكــذاكَ وَصـــلُ الغَانيـــاتِ فَإِنَّـــهُ آلٌ ببلقَعَـــــةٍ وبَـــرقٌ خُلّـــــبُ
فــدَعِ الصِّـبا فَلَقَــدْ عَــداكَ زَمَانُــهُ وازهــدْ فعمــرُكَ مَــرَّ منــهُ الأطيــبُ
ذَهَــبَ الشَّــبابُ فَمَــا لَــهُ مِــنْ عَــودةٍ وأتــى المشــيبُ فــأينَ منــهُ المهــرَبُ؟
دَعْ عَنــكَ مــا قَــدْ كَــانَ في زَمَــنِ الصِّــبا واذكُــرْ ذُنوبَــكَ وابْكِهـا يا مُــذْنِبُ
واذكُـــرْ مُناقَشَـــةَ الحســـابِ فَإِنّـــهُ لا بــدَّ يُحصــى مــا جَنيــتَ ويُكتَــبُ
لم ينســهُ الملَكــانِ حــينَ نَســيتَهُ بــل أثبتــاهُ وَأَنــتَ لاهٍ تَلعــبُ
وألــوحُ فيــك وديعـــةً أُودِعْتَهـــا ســتردُّها بالــرغمِ منــكَ وتُســلَبُ
وغُــرورُ دنيــاك الــتي تَســعى لهــا دارٌ حقيقتُهـــا مَتـــاعٌ يَـــذهبُ
والليــلُ فــاعلمْ والنَّهــارُ كِلاهمــا أنفاسُـــنا فِيـــهِ تُعـــدُّ وتحســـبُ
وجميـــعُ مـــا حَصَّــلتهُ وجَمَعْتَــهُ حقَّــاً يقينــاً بعــدَ مَوتِــكَ يُنهَــبُ
تَبَّـاً لِـــدارٍ لا يَـــدومُ نَعيمُهــا ومَشــيدُها عمّــا قليـــلٍ يَخْـــرَب
فـاسمعْ أُخَــيّ وصــيةً أَولاكهــا بــرٌّ نصــوحٌ لــلأنامِ مجــربُ
أهــدى النصــيحةَ فــاتّعظْ بِمَقَالِــهِ فهــو التَّقــيُّ اللَّــوذعيُّ الأَدْرَبُ
صَــحِبَ الزَّمــانَ وأهلــهُ مُستبصــراً ورأى الأمــورَ بمــا تثــوبُ وتُعقِــبُ
لا تأمَــنِ الــدَّهرَ الخــؤونَ فَإِنَّــهُ مــا زالَ قــدماً للرجــالِ يــؤدّبُ
وعواقـــبُ الأيام في غُصَّـــاتها مَضَــضٌ يــذلُّ لهــا الأعــزُّ الأنجــبُ
فعليــكَ تقــوى اللهِ فالزمهــا تَفُــزْ إنَّ التقــيَّ هــو البَهــيُّ الأهيــبُ
واعمــلْ بطاعتِــهِ تَنــلْ منــهُ الرِّضــا إنَّ المطيـــعَ لربِّـــهِ لمقـــرَّبُ
واقنــعْ ففــي بعــضَ القناعــةِ رَاحــةٌ واليــأسُ عمَّــا فــاتَ فهــو المطلَــبُ
فــإذا طمعــتَ لبســتَ ثــوبَ مذلَّــةٍ فبــذا اكتســى ثــوبَ المذلــة أَشــعبُ

الهادي فقضى شعر صالح عليه بقتله. ولذلك نُسب القَتل إلى المهدي لأنه هو الفاحص في شأنه أول مرة، والآمر بالقبض عليه. والله أعلم. وإني أرجح هذا الظنّ، وعليه سوف أسير، والله المستعان.

وتَوَقَّ من غدرِ النِّساء خيانةً   فجميعهنَّ مكايدٌ لك تُنْصَبُ
لا تأمَنِ الأنثى حياتَك إنَّها   كالأفعوانِ يُراعُ منهُ الأنيبُ
تُغْري بلينِ حديثِها وكلامِها   فإذا سطَتْ فهي الصَّقيلُ الأشطبُ
وابدأْ عدوَّك بالتحيَّةِ ولتكُنْ   مِنهُ زمانَكَ خائِفاً تترقَّبُ
واحذرْهُ إنْ لاقَيْتَهُ مُتَبَسِّماً   فالليثُ يبدو نابُهُ إذْ يَغضَبُ
إنَّ العدوَّ وإنْ تَقَادَمَ عَهدُهُ   فالحقدُ باقٍ في الصُّدورِ مُغيَّبُ
وإذا الصديقُ لقيتهُ متلوناً   فهو العدوُّ وحقُّهُ يتجنبُ
لا خيرَ في ودِّ امرئٍ مُتَمَلِّقٍ   حلوِ اللّسانِ وقَلبُهُ يَتَلهَّبُ
يلقاكَ يحلفُ أنَّه بكَ واثقٌ   وإذا تَوارى عنكَ فهو العقربُ
يُعطيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسانِ حَلاوةً   ويروغُ عنكَ كما يَروغُ الثعلبُ
وَصِلِ الكرامَ ولو رَمَوكَ بِجَفْوَةٍ   فالصَّفحُ عَنهُم والتَّجاوزُ أَصوبُ
فاخترْ قَرينَكَ واصْطَفِيهِ مُواتياً   إنَّ القرينَ إلى المقارنِ يُنسَبُ
إنَّ الغنيَّ منَ الرجالِ مُكَرَّمٌ   وتراهُ يُرجى ما لديهِ ويرهبُ
والفقرُ شَيْن في الرِّجالِ وإنّه   حقاً يهونُ به الشريفُ الأنسبُ
فاخفضْ جناحَكَ للأقاربِ كلِّهمْ   بتذلُّلٍ واغفرْ لهم إنْ أَذنَبُوا
وذَرِ الكذُوبَ ولا يكن لكَ صاحباً   إن الكذوبَ يشينُ حراً يَصحبُ
وَزِنِ الكلامَ إذا نَطقتَ ولا تَكُنْ   ثرثارةً في كلِّ نادٍ تخطبُ
وتوقَّ من عثراتِهِ من زلَّةٍ   فالمرءُ يسلمُ باللِّسانِ ويعطبُ
والسرُّ فاكتمْهُ ولا تَنطقْ بهِ   فهو الأسيرُ لديك إذ لا ينشبُ
واحرصْ على حِفظِ القُلوبِ مِنَ الأذى   فرجوعُها بَعدَ التَّنافُرِ يَصعُبُ
إنَّ القُلوبَ إذا تَنافَرَ وِدُّها   شِبهُ الزُّجاجةِ كَسرُها لا يُشعَبُ
وكذاكَ سرُّ المرءِ إنْ لم يطْوِهِ   نَشَرتْهُ أَلسنةٌ تَزيدُ وتكذِبُ
لا تحرصنْ فالحرصُ لَيسَ بزائدٍ   في الرّزقِ بل يَشقى الحريصُ ويَتعَبُ
ويظلُّ ملهوفاً يَرومُ تحيُّلاً   والرزقُ ليسَ بحيلةٍ يُستجلبُ
كمْ عاجزٍ بالناسِ يأتي رزقُهُ   رَغَداً ويُحرَمُ كَيِّسٌ ويُخيَّبُ
وارعَ الأمانةَ، والخيانةَ فاجتنبْ،   واعدلْ ولا تظلمْ يطبْ لكَ مَكسبُ
وإذا أصابَكَ نكبةٌ فاصبرْ لها   مَن ذا رأيتَ مسلَّماً لا ينكبُ

وإذا رُميتَ مِن الزمانِ بريبةٍ … أو نالكَ الأمرُ الأشدُّ الأصعبُ
فاضرعْ لربِّكَ إنّهُ أدنى لِمَنْ … يدعوهُ مِنْ حَبْلِ الوريدِ وأَقربُ
كُنْ ما استطعتَ مِنَ الأنامِ بِمَعْزَلٍ … إنَّ القليلَ مِنَ الورى مَنْ تَصحبُ
واحذَرْ مُصاحبةَ اللئيمِ فَإنَّها … تُعدي كما يُعدي الصَّحيحَ الأجربُ
واحذرْ مِنَ المظلومِ سَهماً صَائباً … واعلمْ بِأَنَّ دُعاءَهُ لا يُحجَبُ
وإذا رأيتَ الرِّزقَ عَزَّ بَبَلْدَةٍ … وخشيتَ فيها أن يَضيقَ المكْسَبُ
فارحلْ فَأَرْضُ اللهِ وَاسعةُ الفَلا … طُولاً وعَرضاً شَرْقُها والمغربُ
فلقدْ نَصَحْتُكَ إنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي … فالنُّصحُ أغلى ما يُباعُ ويُوهَبُ

ومن عيون شعره قوله وقد ضَعُفَ بصره:

عزاؤكِ أيُّها العَينُ السَّكوبُ … ودَمعُكِ إنها نُوَبٌ تنوبُ
وكنتِ كريمتي وسِراجَ وَجهي … وكانتْ لي بكَ الدُّنيا تَطيبُ
فإنْ أكُ قد ثَكلتُكَ في حياتي … وفارقَني بِكَ الإلفُ الحَبيبُ
فكلُّ قرينةٍ لا بدَّ يوماً … سَيشعَبُ إلفَها عنها شَعوبُ
على الدُّنيا السلامُ فما لشيخٍ … ضَريرِ العينِ في الدُّنيا نَصيبُ
يموتُ المرءُ وهو يعدُّ حَيّاً … ويَخلفُ ظنَّهُ الأملُ الكَذوبُ
يُمَنّيني الطبيبُ شِفاءَ عيني … وما غيرُ الإلهِ لها طَبيبُ
إذا ما ماتَ بَعضُكَ فابكِ بَعضاً … فإنَّ البعضَ من بعضٍ قَريبُ

ومن عيون شعره قوله:

المرءُ يَجمعُ والزَّمانُ يُفرِّقُ … ويظلّ يُرقعُ، والخطوبُ تُمَزِّقُ
ولأن تُعادي عاقلاً خَيرٌ لَهُ … مِنْ أَنْ يَكونَ لهُ صديقٌ أحمقُ
فارغبْ بِنَفْسِكَ لا تُصادِقْ أَحمقاً … إنَّ الصديقَ على الصَّديقِ مُصدَّقُ
وَزِنِ الكلامَ إذا نَطَقْتَ فَإنَّما … يُبدي عيوبَ ذوي العقولِ المَنْطِقُ
وَمِنَ الرِّجالِ إذا استوتْ أَحلامُهم … مَنْ يُستشارُ إذا استُشِيرَ فيطرقُ
حتّى يحيلَ بكلِّ وادٍ قلبهُ … فيرى ويعرفُ ما يقولُ فينطقُ
فبذاكَ يُؤتى كلّ أمرٍ مطلق … وبذاك يُطلق كلُّ أمرٍ مُوثقُ
وإنِ امرؤٌ لَسَعَتْهُ أفعى مرةً … تركتهُ حينَ يجرّ حبل يَفرقُ

لا ألفينَّكَ ثاوِياً في غُربةٍ ... إنَّ الغريبَ بِكُلِّ سَهمٍ يُرشَقُ
ما الناسُ إلا عاملانِ فَعَامِلٌ ... قد ماتَ من عَطَشٍ وآخرُ يَغرقُ
والناسُ في طَلَبِ المعاشِ وإنَّما ... بالجدِّ يُرزقُ منهم مَنْ يُرزَقُ
لو يرزقونَ الناسَ حَسبَ عُقولِهم ... ألفيتَ أكثرَ مَنْ تَرى يَتصدَّقُ
لكنَّهُ فَضلُ المليكِ عَليهم ... هذا عليهِ مُوسِّع ومُضيِّقُ
وإذا الجنازةُ والعروسُ تلاقيا ... ألفيتَ مَن تَبِعَ العرائسَ تُطلقُ
سكتَ الذي تَبِعَ العروسَ مبهتاً ... ورأيتَ مَن تَبِعَ الجنازةَ يَنطقُ
لو سارَ ألفُ مُدجَّجٍ في حَاجةٍ ... لم يقضِها إلاَّ الَّذي يترفَّقُ
إن التَّرفُّقَ للمُقيمِ مُوافقٌ ... وإذا يُسافرُ فالتَّرفُّقُ أَوفقُ
بَقِيَ الَّذينَ إذا يَقولُوا يَكذِبُوا ... ومضى الَّذين إذا يَقُولوا يُصدَقوا

قصة مَقتَله على يد هارون الرشيد:

في سنة (166 هـ) شدَّد الخليفة المهدي بَحثَهُ عن الزنادقة، وأخذ يطاردهم في الأمصار، ويحاكمهم على معتقداتهم الباطلة.

وكان صالحُ بن عبد القدوس قد شاع خبر زندقته واستفاض، فطُلب في جملة مَنْ طُلبَ. فما كان مِنْ صالحٍ إلاَّ أَنْ فرَّ من البصرة إلى دمشق، واستتر بها مدَّةً.

ولكنَّ الخليفة ـ بعد بحث طويل ـ يقفُ على مكانه، فيرسل مَنْ يَقبض عليه، ويأتي به مصفَّداً إلى بغداد، فيودعُ في سِجنها ريثما يُنظر في شأنه.

وبعد مدَّةٍ، يدعوه المهدي ليستقصي منه ما بلغه عنه، فلما دخل عليه دعا المهديّ بكتابٍ وقال لصالح: اقرأْ هذا.

فقال صالحٌ: وما هوَ؟

قال: كتاب الزَّندقة.

قال صالح: أَوَتعرفُهُ أنت يا أمير المؤمنين إذا قرأتَهُ؟

قال: لا.

فقال: أفتَقتُلني على ما لا تعرف؟!

قال: فإني أعرفُهُ.

فقال: فقد عرفتَهُ ولستَ بزنديقٍ، وكذلك أقرؤوه ولستُ بزنديق!.

ويبدو أن المهدي أَسكته جواب صالح، فأراد أن يتروّى في شأنه، فردّه إلى الحبس، فلما طال حَبسهُ أنشد وهو في السجن:

خَرجنـا مـن الـدُّنيا ونحـن مِـنَ اهلِهـا ... فَلَسـنا مـن الأحيـاءِ فيهـا ولا المـوتَى
إذا دخـلَ السَّـجَّانُ يومـاً لحاجـةٍ ... عَجِبْنـا وقُلنـا: جـاء هـذا مـن الـدُّنيا
وتفـرحُ بالـرُّؤيا فجُـلّ حـديثِنا ... إذا نحـنُ أصـبحنا الحـديثُ عـن الـرّؤيا
فـإنْ حَسُـنَتْ لم تأتِ عَجلـى وأبطـأتْ ... وإنْ قَبُحَـتْ لم تحتـبسْ وأتـتْ عَجلـى
طَـوى دُونَنـا الأخبـارَ سِـجنٌ مُمَنَّـعٌ ... لـهُ حـارسٌ تهـدا العيـونُ ولا يَهـدا
قُـبِرْنا ولم نُـدْفَنْ فـنحنُ بِمَعـزِلٍ ... مِـنَ النَّـاسِ لا نُخشَـى، فنُغشَـى ولا نَغشـى
ألا أحـدٌ يأوي لأهـلِ مَحَلَّـةٍ ... مُقيمـينَ في الـدُّنيا وقـد فـارقوا الـدُّنيا

ويموت المهدي سنة (169 هـ)، ويخلفه الهادي لنحو عامٍ، وصالح باق في السجن، إلى أن أصبح الرشيد سنة (170هـ) خليفةً، فنظر في شأن صالح، وقد رسخ في نفسه أنه زنديق؛ بعد أن بلغته أبياتٌ يتعرّض فيها للنبي ﷺ لتزوُّجه بأم المؤمنين زينب بن جحش رضي الله عنها، يقول فيها:

غَصَـبَ المسـكينَ زَوجتَـهُ ... فَجَـرَتْ عَينـاهُ مِـنْ دُرَرِهْ
مـا قَضَـى المسـكينُ مـن وَطَـرٍ ... لا ولا المعشـارِ مـن وَطَـرِهْ
عُـذتُ بالله اللطيـفِ بنـا ... أن يكـونَ الجـورُ مِـنْ قَـدَرِهْ

فأُحضرَ إلى الرشيد، فقال: أنتَ القائلُ هذه الأبيات؟

قال: لا، والله يا أمير المؤمنين، ما أشركتُ باللهِ طَرفةَ عينٍ، ولا تَسفِكُ دَمي على الشبهة؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «ادرؤوا الحدودَ بالشُّبهاتِ ما استطعتُم». وأخذ يُرقِّق قلبَهُ، ويستنزله عما عَزَمَ عليه بفصاحته وبيانه، ويتلو القرآنَ، حتى رقَّ له وأمر بتخلية سبيله.

فلما أراد أن يخرجَ من بين يديه قال: أنشدني قصيدتك السينية فأنشده:

يا أيُّهـا الـدَّارسُ عِلمـاً ألا ... تلـتمسُ العـونَ علـى دَرسِـهِ
لـن تَبلُـغَ الفـرعَ الـذي رُمتَـهُ ... إلاَّ ببحـثٍ منـكَ عـن أُسِّـهِ
فـاسْمَعِ الأمثـالَ إذا أُنشِـدتْ ... ذكَّـرتِ الحـزمَ ولم تُنسِـهِ
لَـن تَبلُـغَ الأعـداءُ مِـن جاهِـلٍ ... مـا يَبلُـغُ الجاهِـلُ مِـن نَفسِـه
وَالجاهِـلُ الآمـنُ مـا في غَـدٍ ... لِحِفظِـهِ في اليَـومِ أو أَمسِـهِ
وَخـيرُ مَـنْ شـاوَرتَ ذو خِـبرَةٍ ... في واضِـحِ الأَمـرِ وَفي لُبسِـهِ

لا يَقبَســــــنَّ العِلـــــــمَ إلا امـــــرؤٌ | يُعـــــانِ بِاللُّـــــبِ عَلـــــى قَبسِــــهِ
وإنَّ مَـــــــن أدَّبْتُــــــهُ في الصِّـــــبا | كـــــالعودِ يســـــقي المـــــاءَ في غرسِــــهِ
حـــــــتَّى تَـــــــراهُ مورقـــــــاً ناضـــــــراً | مـــن بعـــدِ مـــا أبصـــرتَ مـــن يبسِـــهِ
والشـــــــيخُ لا يـــــــتركُ أخلاقَـــــــهُ | حـــــتَّى يـــــوارَى في ثَـــــرى رَمسِـــــهِ
إذا ارعــــــوى عــــــادَ إلى جهلِــــــهِ | كـــــذي الضَّـــــنا عـــــادَ إلى نُكسِــــهِ
وَالحَمــــــقُ داءٌ مــــــا لــــــهُ حيلَــــــةٌ | تُرجـــى كَبعـــدِ الـــنَّجم عَـــن لَمسِـــهِ
وَالـــــقَ أخـــــا الضَّـــــعن بِإيناسِــــهِ | لِتُـــــــدرك الفُرصَـــــــة في أُنسِـــــــهِ
كَاللَّيــــــثِ لا يَعــــــدو عَلــــــى قُرنِــــهِ | إلا عَلـــــى الأَمكــــان مـــــن فرسِــــهِ

حتى إذا بلغ قوله:

والشـــــــيخُ لا يـــــــترُكُ أخلاقَـــــــهُ | حـــــتَّى يُـــــوارى في ثَـــــرى رَمسِـــــهِ

قال: يا شيخ! هذا الكلام يشبه هذا الكلام، وهذا الشعر من نمط ذلك الشعر – يعني الأبيات التي نُسبت إليه – ونحن نتمثل وصيَّتَك. ثم أمر به فَضُرِبَتْ عنقه، وصُلب على الجسر.

الحلاج[1]

ترجمته:

هو متصوِّفٌ قيل عنه: فاسد الظاهر والباطن، وقيل عنه: سليم الطوية أُسيءَ فهمُ لفظِهِ فجرت عليه المقادير بأحكامها. وما يهمّنا من أمره أن كلامه قد قَتله: بشعره ونثره؛ إذ تكلَّم بكلامٍ ظاهرُهُ الكفر، أما باطنه فلا يعلمه إلا الله. ولئن كان من تقدّم من الشعراء قد قتلتهم الدولة ممثَّلةً بشخص حاكمها وأمره، لقد قتلت هذا الشاعر المتصوف فتوى الفقهاء، معزّزة بعدُ بأمر الخليفة العباسي المقتدر.

إنه الحسين بن منصور بن محمي، أبو عبد الله، ويقال: أبو مغيث، الفارسي البيضاوي[2] الصوفي، ويلقّب بالحلاَّج، ولقبه أهل الأهواز بذلك لأنه كان يكاشفهم عما في ضمائرهم. وقيل: لأنه مرة قال لحلاج: اذهب لي في حاجة كذا وكذا فقال: إني مشغول بالحلج. فقال: اذهب فأنا أحلج عنك فذهب ورجع سريعاً، فإذا جميع ما في ذلك المخزن قد حلجه.

نشأ الحسين بتُستر، وأكثر الترحال والأسفار والمجاهدة.

ودخل بغداد، وتردَّد إلى مكة، وجاورَ بها في وسط المسجد في البرد والحر، مكث على ذلك سنوات متفرقة. وكان يُصابر نَفسَهُ ويجاهدها، ولا يجلس إلا تحت السماء في وسط المسجد الحرام، ولا يأكل إلا بعض قرص، ويشرب قليلاً من الماء معه وقت الفطور مدة سنة كاملة. وكان يجلس على صخرة في شدة الحر في جبل أبي قبيس.

وقد صحب جماعة من سادات المشايخ الصوفية كالجنيد بن محمد، وعمرو بن عثمان المكي، وأبي الحسين النوري.

قال الخطيب البغدادي: والصوفية مختلفون فيه؛ فأكثرهم نَفى أن يكون الحلاج منهم، وأبى أن يعدّه فيهم. وقَبِلَهُ من متقدِّميهم أبو العباس بن عطاء البغدادي، ومحمد بن خفيف الشيرازي، وإبراهيم بن محمد النصر أباذي النيسابوري، وصححوا له حاله، ودوَّنوا كلامه. حتى قال ابن خفيف: الحسين بن منصور عالم رباني.

---

(1) البداية والنهاية: 11/130-140، وسير أعلام النبلاء: 14/313-353، وتاريخ بغداد: 8/118، ووفيات الأعيان: 2/140-146، والوافي بالوفيات: 13/46-48، وطبقات الصوفية: 309.

(2) البيضاء: مدينة ببلاد فارس.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي - واسمه محمد بن الحسين - سمعت إبراهيم بن محمد النصر أباذي، وعُوتب في شيء حَكَى عن الحلاج في الروح، فقال للذي عاتبه: إن كان بعد النبيين والصديقين مُوحِّدٌ فهو الحلاج.

قال أبو عبد الرحمن: وسمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الشبلي يقول: كنت أنا والحسين بن منصور شيئاً واحداً، إلا أنه أظهر وكتمتُ.

وقد روى عن الشبلي من وجه آخر أنه قال وقد رأى الحلاج مصلوباً: ألم أنهك عن العالمين. وكان قتله سنة (309هـ)، في عهد الخليفة العباسي المقتدر.

قال الخطيب: والذين نفوه من الصوفية نسبوه إلى الشَّعبذة في فعله، وإلى الزندقة في عقيدته وعقده. وله إلى الآن أصحاب ينسبون إليه, ويغالون فيه ويغلون.

وعلى كلٍّ فقد أجمع فقهاء عصره على أنه كان كافراً ممخرقاً مموهاً مشعبذاً؛ وبهذا قال أكثر الصوفية فيه، وأهل كل عصر أدرى بحال أصحابه.

وكان الحلاج كلامُهُ حلوٌ عَذبٌ، حَسنٌ وَقعه في الآذان، خلب به عقول الناس. وأما شعره فقد كان سهلاً، يذهب فيه مذهب الصوفية في الإبهام والشطح.

من شعره المنبي عن عقيدته وطريقته في التصوف، ومذهبه في الحب؛ قوله:

جَبلـــتَ رُوحَـــكَ في رُوحـــي كَمـــا ... يُجبـــلُ العنـــبرُ بالمســـكِ الفَنِـــقْ

فــــإذا مَسَّـــكَ شَـــيءٌ مَسَّـــنِي ... وإذا أنـــــــتَ أنا لا نفـــــــترقْ

وقوله:

مَزجـــتَ رُوحَـــكَ في رُوحِـــي كمـــا ... تُمـــزَجُ الخَمـــرةُ بالمـــاءِ الـــزلالِ

فــــإذا مَسَّـــكَ شَـــيءٌ مَسَّـــنِي ... فـــإذا أنـــتَ أنا في كـــلِّ حـــالِ

وقوله:

قـــــد تحقَّقتُـــــك في ســـــرِّ ... ي فخاطَبَـــــــكَ لِسَـــــــانِي

فاجتمعنـــــــــا لمعـــــــــانٍ ... وافترقْنـــــــــا لِمَعَـــــــانِ

إنْ يَكُـــنْ غَيَبَتُـــكَ التَّعظِيـــ ... ـــمُ عـــن لَحـــظِ العَيـــانِ

فلقـــــد صـــــيَّرَكَ الوجـــــ ... دُ مـــــن الأحشـــــاءِ دانِ

وقوله:

أُريـــدُكَ لا أُريـــدُكَ للثَّـــوابِ ... ولكـــنِّي أُريـــدُك للعقـــابِ

وكلُّ مآربي قد نِلتُ منها   سوى مَلذوذِ وجدي بالعذابِ

وقوله:

سبحانَ مَن أظهرَ ناسوتَهُ   سرّ سنا لاهوته الثاقبِ

ثم بدا في خلقِهِ ظاهراً   في صورةِ الآكلِ والشَّاربِ

حتَّى قال عاينهُ خَلقهُ   كلحظَةِ الحاجبِ بالحاجبِ

وقوله:

أوشكتَ تسألُ عَنّي كَيفَ كُنتُ وَمَا   لاقيتُ بعدَك من هَمٍّ وحزنِ

لا كنتُ إن كنتُ أَدري كيفَ كُنتَ ولا   لا كنتُ إن كنت أدري كيفَ لم أَكُنِ

وقوله:

مَتى سَهِرَتْ عَيني لغيرِك أو بَكَتْ   فلا أُعطيتْ ما أمَّلتْ وتمنَّتْ

وإن أضمرتْ نَفسي سِواك فلا زَكَتْ   رياضَ المنى من وَجنتيك وجنتْ

وقوله:

دنيا تُغالطُني كأنّـ   ي لستُ أعرفُ حَالَها

حَظرَ المليكُ حرامها   وأنا احتميتُ حلالَها

مدَّت إلي يمينَها   فرددْتُها وشمالَها

ورأيتُها محتاجةً   فوهبتُ جملتَها لها

ومتى عرفتُ وِصالَها   حتّى أخافُ ملالَها

وقوله:

ما يَفعَلُ العَبدُ وَالأَقدارُ جاريَةٌ   عَلَيهِ في كُلِّ حالٍ أَيُّها الرائي

أَلقاهُ في اليَمِّ مَكتوفاً وَقالَ لَهُ   إِيّاكَ إِيّاكَ أَن تَبتَلَّ بِالماءِ

وقوله:

يا شاهداً غائباً في حالِ غَيبتِهِ   إن غابَ شخصُكَ فالتِّذكارُ موجودُ

والصَّبرُ عَنك فمذمومٌ عواقبُهُ   والصَّبرُ في سائرِ الأَشياءِ محمودٌ

ومن دنا مِنكَ نالَ الخيرَ أجمعَهُ   ومَن نأى عنكَ مكروبٌ ومَجهودُ

وقوله:

أنتَ بينَ الشِّغافِ والقلبُ تجري   مثل جَري الدّموع من أجفاني

وتحـــــلّ الضـــــميرَ جـــــوفَ فـــــؤادي كحلــــــــول الأرواحِ في الأبـــــــدانِ
يا هـــــلالاً بـــــدا لأربـــــعَ عشـــــرٍ لثمــــــانٍ وأربــــــعٍ واثنتــــــانِ

وقوله:

لَـــئِنْ أَمســـيتُ في ثَـــوبِي عَـــديم لقـــد بليـــا علـــى حـــرٍّ كـــريم
فـــلا يغـــرزْكَ أن أبصـــرتَ حـــالاً مغـــيَّرةً عـــن الحـــالِ القـــديم
فلـــي نَفـــسٌ ســـتتلفُ أو ســـترقَى لعمـــرُك بي إلى أمـــرٍ جســـيم

قصة مقتله:

قَدِمَ الحلاجُ آخر قَدمة إلى بغداد، فصَحِبَ الصوفية، وانتسب إليهم. وكان الوزير إذ ذاك حامد بن العباس فبلغه أن الحلاج قد أَضلَّ خَلقاً من الحَشَم والحجَّاب في دار السلطان، ومن غلمان نصر القشوري الحاجب، وجعل لهم في جملة ما ادَّعاه أنه يُحيي الموتى، وأن الجن يَخدمونهُ، ويحضرون له ما شاء ويختار ويشتهيه، وقال: إنه أحيا عدَّة من الطير.

وذكر لعلي بن عيسى أن رجلاً يقال له: محمد بن علي القنائي الكاتب يعبد الحلاج، ويدعو الناس إلى طاعته؛ فطلبه، فكبس منزله، فأخذه، فأقر أنه من أصحاب الحلاج. ووجد في منزله أشياء بخط الحلاج مكتوبة بماء الذهب في ورق الحرير، مجلدة بأفخر الجلود، ووجد عنده سفطاً فيه من رجيع الحلاج وعذرته وبوله، وأشياء من آثاره، وبقية خبز من زاده.

فطلب الوزير من المقتدر أن يتكلم في أمر الحلاج، ففوَّض أمره إليه، فاستدعى جماعة من أصحاب الحلاج فتهدَّدهم؛ فاعترفوا له أنه قد صح عندهم: أنه إله مع الله، وأنه يُحيي الموتى. ثم إنهم كاشفو الحلاج بذلك، ورموه به في وجهه؛ فجحد ذلك وكذبهم وقال: أعوذ بالله أن أدَّعي الرُّبوبية أو النبوة، وإنما أنا رجل أعبد الله، وأُكثر له الصوم والصلاة وفعل الخير، لا أعرف غير ذلك.

وجعل لا يزيد على الشهادتين والتوحيد، ويُكثر أن يقول: سبحانك لا إله إلا أنتَ، عَملتُ سوءاً، وظلمتُ نفسي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

وكانت عليه مدرعة سوداء، وفي رجليه ثلاثة عشر قيداً، والمدرعة والقيود واصلة إلى ركبتيه، وكان مع ذلك يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة.

وكان قبل احتياط الوزير حامد بن العباس عليه في حجرة من دار نصر القشوري الحاجب مأذوناً لمن يدخل إليه، وكان يسمي نفسه تارة بالحسين بن منصور وتارة محمد بن أحمد الفارسي، وكان نصر

الحاجب هذا قد افتتن به، وظنّ أنه رجلٌ صالحٌ، وكان قد أدخله على المقتدر بالله فَرَقَاهُ من وجعٍ حصل فاتفق زواله عنه، وكذلك وقع لوالدة المقتدر السيدة رَقَاها فزالت عنها؛ فنفقَ سوقه، وحظي في دار السلطان.

فلما انتشر الكلام فيه سُلِّم إلى الوزير حامد بن العباس فَحَبَسَهُ في قيود كثيرة في رجليه، وجمع له الفقهاء فأجمعوا على كفره وزندقته، وأنه ساحر ممخرق، ورجع عنه رجلان صالحان ممن كان اتبعه أحدهما أبو علي هارون بن عبد العزيز الأوارجي، والآخر يقال له الدباس، فذكرا من فضائحه، وما كان يدعو الناس إليه من الكذب والفجور والمخرقة والسحر شيئاً كثيراً. وكذلك أُحضرت زوجة ابنه سليمان فذكرت عنه فضائح كثيرة، من ذلك: أنه أراد أن يغشاها وهي نائمة، فانتبهت فقال: قومي إلى الصلاة، وإنما كان يريد أن يطأها، وأمر ابنتها بالسجود له فقالت: أَو يسجدُ بشرٌ لبشرٌ؟

فقال: نعم، إله في السماء، وإله في الأرض. ثم أمرها أن تأخذ من تحت بارية هنالك ما أرادت، فوجدت تحتها دنانير كثيرة مبدورة.

ولما كان آخر مجلس من مجالسه أُحضر القاضي أبو عمر محمد بن يوسف، وجِيءَ بالحلاج وقد أُحضر له كتاب مِنْ دُور بعض أصحابه، وفيه: «مَنْ أرادَ الحجَّ ولم يتيسَّر له فَليبنِ في داره بيتاً، لا يناله شيء من النجاسة، ولا يُمكِّن أحداً من دخوله. فإذا كان في أيام الحج فلْيَصُمْ ثلاثةَ أيام، وَلْيَطُفْ به كما يُطاف بالكعبة، ثم يفعل في داره ما يفعله الحجيج بمكة، ثم يستدعي بثلاثين يتيماً فيُطعمهم من طعامه، ويتولَّى خدمتَهم بنفسه، ثم يكسوهم قميصاً قَميصاً، ويعطي كُلَّ واحد منهم سبعةَ دراهم - أو قال: ثلاثة دراهم - فإذا فعل ذلك قام لهُ مقام الحج.

وإنَّ مَنْ صام ثلاثة أيام لا يُفطر إلا في اليوم الرابع على ورقات هندباء أجزأه ذلك عن صيام رمضان.

ومَنْ صلى في ليلة ركعتين من أول الليل إلى آخره أجزأه ذلك عن الصلاة بعد ذلك.

وإنّ مَن جاور بمقابر الشهداء وبمقابر قريش عشرة أيامٍ يُصلِّي ويدعو ويصوم، ثم لا يفطر إلا على شيء من خبز الشعير والملح الجريش؛ أغناه ذلك عن العبادة في بقية عمره».

فقال له القاضي أبو عمر: من أين لك هذا؟

فقال: مِنْ كتاب الإخلاص للحسن البصري.

فقال له: كذبت يا حلال الدم! قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن بمكة، ليس فيه شيء من هذا.

فأقبل الوزير على القاضي فقال له: قد قلت يا حلال الدم! فاكتب ذلك في هذه الورقة، وألحَّ عليه، وقدَّم له الدواة؛ فكتب ذلك في تلك الورقة، وكَتَبَ مَنْ حَضَرَ خطوطهم فيها، وأنفذها الوزير إلى

المقتدر، وجعل الحلاج يقول لهم: «ظَهرِي حِمًى، ودمي حرامٌ، وما يحلّ لكم أن تتأوَّلوا علي ما يُبيحه، واعتقادي الإسلام، ومذهبي السنة، وتفضيل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة بن الجراح،ولي كُتبٌ في السنة موجودة في الوارَّقين،فاللهَ اللهَ في دمي!»، فلا يلتفتون إليه، ولا إلى شيء مما يقول، وجعل يكرر ذلك وهم يكتبون خطوطهم بما كان من الأمر.

ورُدَّ الحلاج إلى مَحبسه، وتأخَّر جَواب المقتدر ثلاثة أيام، حتى ساء ظنّ الوزير حامد بن العباس، فكتب إلى الخليفة يقول له: «إنَّ أمرَ الحلاج قد اشتهر، ولم يختلف فيه اثنان، وقد افتتن كثير من الناس به».

فجاء الجواب بأن يُسلَّم إلى محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة، وليضربه ألف سوط؛ فإن مات، وإلا ضُربت عنقه. فَفَرِحَ الوزير بذلك، وطلب صاحب الشرطة فسلَّمه إليه، وبعث معه طائفة من غلمانه معه إلى محل الشرطة خوفا من أن يستنقذ من أيديهم، وذلك بعد عشاء الآخرة في ليلة الثلاثاء لست بقين من ذي القعدة من سنة تسع وثلاثمئة للهجرة.

وكان الحلاج راكباً على بغل عليه إكاف، وحوله جماعة من أعوان السياسة على مثل شَكله، فاستقر منزله بدار الشرطة في هذه الليلة. فذُكر أنه بات يُصلي تلك الليلة، ويدعو دعاء كثيرا، حيث روي عن أبي الحديد قوله:

لما كانت الليلة التي قُتل في صبيحتها الحلاج قام يُصلِّي من الليل، فصلَّى ما شاء الله، فلما كَانَ آخرَ الليل قامَ قائماً، فتغطَّى بكسائه، ومَدَّ يدَهُ نحو القبلة، فتكلم فمن جملة ما قال: «نحن شَواهدُك فلو دَلَّتنا عزتك لتبدَّى ما شئتَ من شأنك ومَشيئتك، وأنت الذي في السماء إلهٌ، وفي الأرض إلهٌ، تتجلَّى لما تَشاءُ مثل تجلِّيك في مشيئتك كأحسن الصورة، والصورة فيها الروح الناطقة بالعلم والبيان والقدرة. ثم إنِّي أوعزتُ إلى شاهدِك لأني في ذاتِك الهوى كيف أنتَ إذا مثَّلت بذاتي عند حلول لذاتي، ودعوتَ إلى ذَاتي بِذاتي، وأبديتُ حقائق علومي ومعجزاتي، صاعداً في مَعارجي إلى عروش أزلياتي، عند التولي عن برياتي. إني احتضرتُ وقُتلت وصُلبت وأُحرقت واحتملتُ سافيات الذاريات، ولجحت في الجاريات، وأن ذرة من ينجوج مكان هالوك متجلياتي لأعظم من الراسيات!». ثم أنشأ يقول:

أنعـــي إليـــك نُفوســـاً طـــاحَ شـــاهدُها ... فيمـــا ورا الحيـــثِ بـــل في شـــاهدِ القـــدمِ
أنعـــي إليـــكَ قلـــوباً طالمـــا هَطَلَـــتْ ... ســـحائبُ الـــوحي فيهـــا أبحـــرَ الحكـــمِ
أنعـــي إليـــك لســـانَ الحـــقِّ مـــذ زمَـــنٍ ... أودى وتـــذكارهُ في الـــوهمِ كالعَـــدمِ
أنعـــي إِليـــكَ بيـــاناً يَســـتكينُ لَـــهُ ... أقـــوالُ كـــلِّ فَصـــيحٍ مِقـــولٍ فَهِـــمِ
أنعـــي إليـــك إِشـــاراتِ العُقـــولِ مَعَـــاً ... لم يبـــقَ مـــنهنَّ إلا دارسَ العلـــمِ
أنعـــي وحبَّـــك أخلاقـــاً لطائفـــةٍ ... كانـــت مطـــاياهم مـــن مكمـــدِ الكظـــمِ

مضـــى الجميـــعُ فـــلا عَـــينٌ ولا أَثَـــرٌ		مضـــــيَّ عـــــادٍ وفقـــــدانُ الألى إِرَمِ
وخلَّفـــوا معشــــراً يحـــذون لبســـتَهُمْ		أعـيى مـن الـبُهمِ بـل أعـيى مـن الـنّعمِ

ولما أخرج الحلاج من المنزل الذي بات فيه ليذهب به إلى القتل أنشد:

طلبـــــتُ المســـــتقرَّ بكـــــلِّ أرضٍ		فلـــــــم أرَ لي بأرضٍ مســـــــــتقرّا
وذقـــــتُ مـــــن الزَّمـــــانِ وذاقَ مَـــــنّي		وجـــــدتُ مَذَاقَـــــهُ حُلـــــواً ومُـــــرّا
أطعـــــتُ مَطـــــامعي فاســـــتعبدتني		ولـــــو أني قنعـــــتُ لِعشـــــتُ حُـــــرَّا

فلما أخرجوه للصلب مشى إليه وهو يتبختر في مشيته، وفي رجليه ثلاثة عشر قيداً، وقال: «إلهي! أصبحت في دار الرغائب أنظر إلى العجائب. إلهي! إنك تتودّد إلى مَن يُؤذيك، فكيف لا تتودّد إلى من يُؤذى فيك؟!». ثم جعل ينشد:

نـــــــديمي غـــــــيرُ منســـــــوبٍ		إلى شـــــــيءٍ مـــــــن الحَيـــــــفِ
ســـــقاني مثـــــلَ مـــــا يَشْـــــرَ		بُ فعـــــلَ الضـــــيفِ بالضـــــيفِ
فلمَّـــــــــــا دارتِ الكـــــــــــأسُ		دعـــــا بالنِّطـــــعِ والسَّـــــيفِ
كـــــذا مَـــــن يشـــــربِ الـــــراحَ		مـــــع التنـــــينِ في الصَّـــــيفِ

يَسْتَعْجِلُ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: 18]، ثم لم ينطق بعد ذلك حتى فُعل به ما فُعل. حيث قُدِّم فضرب ألف سوط[1]، ثم قُطِعَت يداه ورجلاه، وهو في ذلك كله ساكت ما نطق بكلمة، ولم يتغير لونه. ويقال: إنه جعل يقول مع كل سوط: أَحَدٌ أَحدٌ . وكان آخر كلمة قالها: «حَسبُ الواحد إفراد الواحد له» فما سمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ إلا رق له واستحسن هذا الكلام منه.

وزعم الحلاج خلال قتله أنه عائد بعد ثلاثين يوماً، فلما لم يعد بان كذبه.

---

(1) لا أدري كيف يضرب ألف سوط ويبقى على قيد الحياة، ولا أرى ذلك إلا مبالغةً!

أبو الطَّيِّب المتنبي[1]

الطموحُ هبةٌ من اللهِ، يجعلها في الإنسان ليكدّ ويعمل، ويبني ويُعمِر. ونقيضُ الطموحِ اليأسُ والتشاؤم، وصاحبه يرفض الحياة، وينفي الأمل، ويسعى إلى الموت سعياً؛ لأنه فاقد لسرّ الحياة، وهو العمل والبناء.

وشاعرنا هو ذو طموحٍ كبيرٍ، وآمالٍ واسعةٍ، وهمّةٍ لا تفتّ عزمها عِظم المصائب.

إنه اختار أن يعيش عالياً لمعرفته بنفسه، فعاش ساعياً لذلك، ومات دون ذلك، فكان بحقٍّ شهيدَ الطموح، وكأن عبد الرحيم محمود قصده بقوله[2]:

سَأَحملُ روحي على رَاحَتِي	وأُلقي بها في مَهَاوِي الرَّدَى
فإِمَّا حَيَاةٌ تَسرّ الصَّدِيقَ	وإِمَّا مَمَاتٌ يُغيظُ العِدَى
ونَفسُ الشَّريفِ لها غَايتانِ	ورودُ المنايا ونَيلُ المنى
إذا قلتُ أصغى لي العالمونَ	ودوَّى مقالِيَ بينَ الورى
لعمرُك إني أرى مَصرعي	ولكنْ أُعِدّ إليه الخُطَى
بقلبي سأرمي وجوهَ العداةِ	فقلبي حديدٌ وناري لَظَى
وأحمي حِياضي بِحَدِّ الحسامِ	فيعلمُ قومي أَنِّي الفَتَى

إنه شاعرٌ فَتنَ الناسَ بشعره، وأَسَرَ عقولَهم بحُسنِ نَظمِهِ وسَبكِهِ، وسَحَرَهم ببيانِهِ الخلاّب، ومعانيه الأخّاذة، وشَغَلَ حيّزاً من الدراسة لم يشغلها شاعرٌ عربيٌّ ؛ حتَّى قيل فيه: «مالئ الدّنيا، وشاغل النَّاس».

ترجمة الشاعر:

إنَّهُ أبو الطيِّب أحمد بن الحسين الجُعفي الكندي. ولد في الكوفة سنة (303)هـ، لأبٍ كانَ سقّاءً. وأرضعته في طفولته امرأة علوية من الأشراف.

واختلف في صباه إلى كتاتيب الأشراف بالكوفة، ورحل إلى بغداد فأخذ عن السكري ونفطويه وابن درستويه، ولزم ابن دريد، وطلب الأدب وعلم العربية.

---

(1) انظر ترجمته ودراسته في: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، وكتاب المتنبي لمحمود شاكر، وذكرى المتنبي للدكتور عبد الوهاب عزام، ومع المتنبي لطه حسين، والواضح في مشكلات شعر المتنبي، ووفيات الأعيان: 1/120-125، والوافي بالوفيات: 2/334-338..

(2) ديوان عبد الرحيم محمود: 31-32.

انطلق الشعر على لسانه منذ صغره، وبدأ يعبر به عما يعتمل في نفسه من رغباتٍ وحاجات إنسانية.

ترك العراق إلى الشام في سنة (320هـ)، ومدح سيف الدولة . وكان هذا أول لقاء بينهما على حداثة سنّ كلّ منهما، ولم يكن للحمدانيين بعد دولة مستقلة كبيرة، لذا توقف الاتصال على هذا اللقاء العابر . حينَ انتصر على بني أسدٍ وبني ضبة وبني رياح في رأس عينٍ لما قتلوا ابن عمّه غيلةً، وقد كانت هذه القبائل من دعاة الفاطميين بالشام، ومما قاله في مدحه[1]:

لمـــــا تَحَكّمَـــــتِ الأسِـــــنّةُ فِـــــيهِم ... جَـــارَتْ وَهُـــنّ يَجُـــرْنَ في الأحكـــامِ

فَتَرَكْـــتَهُمْ خَلَـــلَ البُيُـــوتِ كأنّمَـــا ... غَضِـــبَتْ رُؤوسُـــهُمُ علـــى الأجْسـامِ

أحجـــارُ ناسٍ فَـــوْقَ أرْضٍ مِـــنْ دَمٍ ... وَنُجُـــومُ بَـــيْضٍ في سَمَـــاءِ قَتَـــامِ[2]

وَذِراعُ كُـــــلّ أبي فُـــــلانٍ كُنْيَـــةً ... حَالَـــتْ فَصَـــاحِبُها أبُـــو الأيْتَـــامِ

عَهْـــدي بمَعْرَكَـــةِ الأمـــيرِ وَخَيْلُـــهُ ... في النَّقْـــعِ مُحْجِمَـــةٌ عـــنِ الإحجـــامِ

يا ســيفَ دولـــةِ هاشـــمٍ مَـــنْ رامَ أنْ ... يلقَـــى منالَـــكَ رامَ غـــيرَ مَـــرامِ

تَاللهِ مَـــا عَلِـــمَ امـــرُؤٌ لَـــوْلاكُمُ ... كَيـفَ السّـخاءُ وَكَيـفَ ضَـرْبُ الهَـامِ

ثم طاف في مدن الشام، يمدح أعيانها طمعاً في حَبوتهم، إلى أن مال أخيراً إلى بادية السَّماوة، وأعلنَ فيه نسبه العلوي . بحكم رضاعته (كما بيّن محمود شاكر) .، فما كان من خصومه إلا أنْ رموه بالتنبّؤ، وجَمع الأنصار، وادّعاء المعجزات، حتى خَلب عقولَ الأعراب.. مما جعل والي حمص لؤلؤ الإخشيدي يقدم على سجنه، من سنة (321-323هـ).

والحقّ أن المتنبي لم يدّعي النبوة . فيما يظهر . من حاله، فقد لَفّق إليه هذا خصومه من دعاة الفاطمية، لا سيما بعد أن رأوا في شعره ما يساعد على ذلك، من مثل قوله[3]:

مَـــــا مُقـــــامي بأرْضِ نَخْلَـــــةَ إلاّ ... كمُقـــامِ المسِـــيحِ بَـــينَ اليَهُـــودِ

مَفْرَشِـــي صَـــهْوَةُ الحِصـــانِ وَلَكِـــ ... ـــنّ قَميصِـــي مســـرُودَةٌ مِـــنْ حَديـــدِ[4]

لأمَـــــةٌ فاضَـــــةٌ أضَـــــاةٌ دِلاصٌ ... أحْكَمَـــــتْ نَسْـــــجَها يَـــــدَا داوُدِ[5]

---

(1) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي: 2/315-317.

(2) البيض: جمع بيضة؛ وهي الخوذة. القَتام: الغبار.

(3) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي: 1/276-279.

(4) الصَّهوة: مقعد الفارس من ظهر الفرس. المسرُودة: الدِّرع المنسوجة من الحديد.

(5) اللأمة: درعٌ ملتئمة الصنعة. الفاضة: السابغة. الأضاة: الغدير؛ شبَّه الدرع به لبريقها وصفائها. الدِّلاص: البرّاقة الليّنة الملساء.

أيـنَ فَضْـلي إذا قَنِعْـتُ مـنَ الدّهْـ ـرِ بعَيْشٍ مُعَجَّـلِ التّنكيـدِ
ضـاقَ صَـدري وطـالَ في طَلَـبِ الـرّزْ قِ قيـامي وَقَـلّ عَنـهُ قُعُـودِي
عِـشْ عزيـزاً أوْ مُـتْ وَأنـتَ كَـرِيمٌ بَـينَ طَعْـنِ القَنَـا وَخَفْـقِ البُنُـودِ
فَـرُؤوسُ الرّمَـاحِ أذْهَـبُ للغَيْـ ـظِ وَأشـفَى لِغـلّ صَـدرِ الحَقُـودِ
لا كَمـا قـد حَيِيـتَ غَـيرَ حَميـدٍ وإذا مُـتَّ مُـتَّ غَـيْرَ فَقيـدِ
فاطْلُـبِ العِـزّ في لَظَـى وَدَعِ الـذّ لّ وَلَـوْ كـانَ في جِنـانِ الخُلُـودِ
لا بقَـوْمي شَـرُفْتُ بـل شَـرُفُوا بي وَبنَفْسِـي فَخَـرْتُ لا بجُـدودِي
أنَا تِـرْبُ النّـدَى وَرَبُّ القَـوَافي وَسِمَـامُ العِـدَى وغَـيظُ الحَسـودِ
أنَا في أُمّـةٍ تَـدارَكَهَا اللّـ ـهُ غَريـبٌ كصَـالِحٍ في ثَمُـودِ

ففي هذي الأبيات لُوحظَ مقارنته لنفسه بنبيي الله عيسى المسيح وصالح، هذا فضلاً عما فيها من عزّة وكبرياء، وحنق وغضب على الواقع الذي جعل منه - وهو الطمّاح الشاعر متعدد المواهب - متأخراً، وجعل قصب السبق للخاملين الضعيفي الهمّة.

وبعد خروجه من السجن، أخذ موقفاً من دعاةِ الفاطمية، وامتلأت نفسه كرهاً وبغضاً للمذهب الذي يدعون إليه، وللخلافة التي يسوّقون لها.

وعاد بعد ذلك إلى الكوفة، فأقام فيها زمناً، ثم رجع إلى الشام سنة (326هـ)، فلزم بدر بن عمار الأسدي مدةً، فأنعمَ عليه، وعلا نجمه عنده. وابتداء من هذه السنة عُرف أبو الطيب بالمتنبي.

وطوّف في الشام عشر سنوات، يمدح أعيانها وحكامها؛ فمنهم من يجزل له العطاء، ومنهم من يستخف به فيعطيه ديناراً واحداً.

وظلَّ على حاله القَلِقة يبحث عن ممدوح يقدِّر شعرَهُ، ويكون أهلاً له، حتى قدَّمه أبو العشائر بن حمدان إلى سيف الدولة سنة 337هـ؛ فبدأ بذلك سَعده، وأشرقت الدنيا في وجهه بعد ظلام طويل، ومما مدحه أول ما اتصل به(1):

وَفاؤكُمـا كـالرَّبْعِ أشْـجاهُ طاسِمُـه بأنْ تُسـعِدا والـدّمْعُ أشـفاهُ سـاجِمُهْ
ومـا أنَا إلاّ عاشِـقٌ كـلُّ عَاشِـقٍ أعَـقُّ خَليلَيْـهِ الصّـفَيّينِ لائِمُـهْ
بَليـتُ بِلـى الأطْـلالِ إنْ لم أقِـفْ بهـا وُقـوفَ شَـحيحٍ ضـاعَ في الـتُّرْبِ خاتمُـهْ
لَـهُ عَسـكَرَا خَيْـلٍ وطَـيرٍ إذا رَمَـى بهـا عَسـكَراً لم يَبـقَ إلاّ جَماجمُـهْ

(1) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي: 2/264-275.

أجِلّتُهـا مِـنْ كُـلِّ طـاغٍ ثِيابُـهُ   ومَوْطِئُهـا مِـن كُـلِّ باغٍ مَلاغمُـهْ[1]
فَقَـدْ مَـلّ ضَـوْءُ الصّـبْحِ ممّـا تُغـيرُهُ   ومَـلّ سَـوادُ اللّيـلِ ممّـا تُزاحِمُـهْ
ومَـلّ القَنَـا ممّـا تَـدُقّ صُـدورَهُ   ومَـلّ حَديـدُ الهِنْـدِ ممّـا تُلاطِمُـهْ
وأبصَـرْتُ بَـدراً لا يَـرَى البـدرُ مِثْلَـهُ   وخاطَبْـتُ بَحْـراً لا يـرى العِـبرَ عائِمُـهْ
غَضِـبْتُ لَـهُ لمـا رَأَيْـتُ صِـفاتِهِ   بـلا واصِـفٍ والشِّـعرُ تهـذي طَماطِمُـهْ
وكنـتُ إذا يَمّمْـتُ أرضـاً بَعيـدَةً   سـرَيتُ فكنْـتُ السـرَّ واللّيـلُ كاتمُـهْ
لقـد سَـلّ سـيفَ الدّولَـةِ المجـدُ مُعلَمـاً   فـلا المجـدُ مخفيـهِ، ولا الضّـرْبُ ثالمـهْ
علـى عـاتِقِ المَلْـكِ الأغَـرّ نِجـادُهُ   وفي يَـدِ جَبّـارِ السّـماواتِ قائِمُـهْ
تُحارِبُـهُ الأعـداءُ وهْـيَ عَبيـدُهُ   وتَـدّخِرُ الأمْـوالَ وهْـيَ غَنائِمُـهْ
ويَسـتَكبرُونَ الـدَّهرَ والـدّهْرُ دونَـهُ   ويَسـتَعظِمونَ المـوتَ والمـوْتُ خادمُـهْ
وإنّ الـذي سَمّـى عَلِيّـاً لَمُنْصِـفٌ   وإنّ الـذي سَمّـاهُ سَـيفاً لَظالمـهْ
ومـا كـلُّ سَـيفٍ يَقْطَـعُ الهَـامَ حَـدُّهُ   وتَقْطَـعُ لَـزْباتِ الزّمـانِ مَكارِمُـهْ

وقد هدأتْ نفس المتنبي الثائرة الطموحة في جناب سيف الدولة؛ إذ رأى فيه المثال الذي يستحق أن يمدح لشجاعته وكرمه، ورأى أنه الوحيد الحقيق بأن يمدح. وقد وقع بين الرجلين حبّ عظيم، وصداقة عميقة.

ولكنَّ الشهرةَ لها ضريبتها، والمغمور إذا ارتفع كَثُرَ منتقدوه، وتكالب عليه حاسدُوه.. وهذا ما وقع للمتنبي؛ إذ سعى به عند ممدوحه المثال رجال أمثال: أبي العشائر الذي قدّمه لسيف الدولة، وأبي فراس؛ حيث انتقدوا كرم سيف الدولة على المتنبي الذي يأخذ أكثر مما يمدح، ولعطاءٌ واحدٌ يُبذل لقصيدة المتنبي يكفي الشعراء، وهي بعد قصائد كثيرة لا واحدة.

وقد أكثر ابن خالويه التحريض عليه، وأغرى الشعراء في الحطّ من شأنه وغيظه. وهذا ما جعل المتنبي يطلب النّصف من سيف الدولة، ويذكّره بما كان بينهما، وما مدحه من قصائد خلَّدتْهُ فقال[2]:

أزِلْ حَسَـدَ الحُسّـادِ عَـنّي بكَبـتِهِمْ   فأنـتَ الـذي صَـيّرْتَهُمْ لِيَ حُسّـدَا
وَمَـا أنَا إلاّ سَمْهَـرِيٌّ حَمَلْتَـهُ   فـزَيّنَ مَعْرُوضـاً وَرَاعَ مُسَـدَّدَا[3]

---

(1) الأجِلّة: جمع جل؛ وهو ما يُجعل على ظهر الدابّة. الملاغم: جمع ملغم؛ وهو ما حول الفم مما يبلغه اللسان، ويصل إليه.

(2) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي: 1/258-259.

(3) السَّمهري: الرمح. المسدَّد: الموجّه إلى المطعون.

وَمَــا الـــدّهْرُ إلاّ مِـــنْ رُواةِ قَصـــائِدي	إذا قُلــتُ شِــعراً أَصْـبَحَ الـدّهرُ مُنشِــدَا
فَسَــارَ بـــهِ مَـــنْ لا يَســـيرُ مُشَـــمِّراً	وَغَـــنّى بـــهِ مَـــنْ لا يُغَـــنّي مُغَـــرِّدَا
أجِـــزْني إذا أُنْشِـــدْتَ شِـــعراً فإنّمَـــا	بشِـــعري أتَاكَ المـــادِحونَ مُـــرَدَّدَا
وَدَعْ كُـلّ صَـوْتٍ غَـيرَ صَـوْتي فـإنّني	أنَا الطّـائِرُ المحْكِـيُّ وَالآخَـرُ الصَّـدَى
تَرَكْـتُ السُّـرَى خَلفـي لمِـنْ قَـلّ مالُـه	وَأنعَلْـتُ أفراسـي بنُعْمـاكَ عَسـجَدَا
وَقَيّـــدْتُ نَفْسِـــي في ذَرَاكَ مَحَبّـــةً	وَمَـنْ وَجَـدَ الإحْسـانَ قَيْـداً تَقَيّـدَا
إذا سَـــألَ الإنْسَـــانُ أيّامَـــهُ الغِـــنى	وَكنـتَ علـى بُعْـدٍ جَعَلْنَـكَ موْعِـدَا

وقال في موضع آخر(1):

أنَا السّـــابِقُ الهـــادي إلى مـــا أقُولُـــهُ	إذِ القَـــوْلُ قَبْـــلَ القـــائِلِينَ مَقُـــولُ
وَمـــا لكَـــلامِ النّـــاسِ فيمَـــا يُـــريبُني	أُصُـــــولٌ ولا للقائِليـــــهِ أُصُـــــولُ
أُعَـادَى علـى مـا يُوجِـبُ الحُـبَّ للفَـتى	وَأهْـــــدَأُ وَالأفكــــارُ فيَّ تَجُـــــولُ
سِـــوَى وَجَـــعِ الحُسّـــادِ داوِ فإنّـــهُ	إذا حَـــلَّ في قَلْـــبٍ فَلَـــيسَ يحُـــولُ
وَلا تَطْمَعَـــنْ مـــن حاسِـــدٍ في مَـــوَدّةٍ	وَإنْ كُنْـــتَ تُبْـــديهَا لَـــهُ وَتُنيـــلُ
وَإنَّا لَنَلْقَـــى الحـــادِثاتِ بأنْفُـــسٍ	كَثـــيرُ الـــرّزايا عنـــدَهنّ قَليـــلُ
يَهُـــونُ عَلَيْنَـــا أنْ تُصـــابَ جُسُـــومُنَا	وَتَسْـــلَمَ أعْـــراضٌ لَنَـــا وَعُقُـــولُ

وحينَ بلغَ الصبر مداه، أطلق صيحته المدوّية، معلناً حبه الصادق لسيف الدولة، ومذكراً له بنفسه وشعره العظيم الذي لن يجد له نظيراً، مدلاً بنفسه، ومهدداً فيه بالرحلة إذا لم ينصفه، ويرد إليه اعتباره، وإلا فإنه سيضطر لترك جناب سيف الدولة الحبيب، عسى البعد يزيل ما علق في النفس من غيظ وحزن، يقول(2):

وَاحَـــرّ قَلْبـــاهُ ممَّـــنْ قَلْبُـــهُ شَـــبِمُ	وَمَـــنْ بجِسْـــمي وَحـــالي عِنـــدَهُ سَـــقَمُ
مـــا لي أُكَـــتِّمُ حُبّـــاً قَـــدْ بَـــرَى جَسَـــدِي	وَتَـــدّعي حُـــبَّ سَـــيفِ الدَّوْلَـــةِ الأُمَـــمُ
إنْ كَـــانَ يَجْمَعُنَـــا حُـــبٌّ لِغُرّتِـــهِ	فَلَيْـــتَ أنّا بِقَـــدْرِ الحُـــبّ نَقْتَسِـــمُ
يا أعـــدَلَ النّـــاسِ إلاّ في مُعـــامَلَتي	فيـكَ الخِصـامُ وَأنـتَ الخَصْـمُ وَالحَكَـمُ
أُعِيـــذُها نَظَـــراتٍ مِنْـــكَ صـــادِقَةً	أنْ تحسَـبَ الشّـحمَ فـيمَنْ شَـحمُهُ وَرَمُ

---

(1) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي: 2/126-127.
(2) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي: 2/228-294.

وَمَــا انْتِفَــاعُ أخــي الــدّنْيَا بِنَــاظِرِهِ ... إذا اسْــتَوَتْ عِنْــدَهُ الأنْــوارُ وَالظُّلَــمُ

سَــيعْلَمُ الجَمــعُ مِمّــنْ ضَــمَّ مَجلِسُــنا ... بأنّــني خَــيرُ مَــنْ تَسْــعَى بــهِ قَــدَمُ

أنَا الــذي نَظَــرَ الأعْمَــى إلى أدَبي ... وَأسْمَعَــتْ كَلِمــاتي مَــنْ بــهِ صَــمَمُ[1]

أنَامُ مِــلْءَ جُفُــوني عَــنْ شَــوَارِدِهَا ... وَيَسْــهَرُ الخَلْــقُ جَرّاهَــا وَيخْتَصِــمُ

وَجاهِــلٍ مَــدّهُ في جَهْلِــهِ ضَــحِكي ... حَــتى أتَتْــه يَــدٌ فَرّاسَــةٌ وَفَــمُ

إذا رَأيْــتَ نُيُــوبَ اللّيْــثِ بارِزَةً ... فَــلا تَظُــنّنَّ أنّ اللّيْــثَ يَبْتَسِــمُ

وَمُهْجَــةٍ مُهْجَــتي مــن هَــمّ صَــاحِبها ... أدرَكْتُهَــا بجَــوَادٍ ظَهْــرُه حَــرَمُ

رِجــلاهُ في الــرَّكضِ رِجــلٌ وَاليــدانِ يَــدٌ ... وَفِعْلُــهُ مَــا تُريــدُ الكَــفُّ وَالقَــدَمُ

وَمُرْهَــفٍ ســرْتُ بــينَ الجَحْفَلَــينِ بــهِ ... حــتى ضَــرَبْتُ وَمَــوْجُ المَــوْتِ يَلْــتَطِمُ

الخَيْــلُ وَاللّيْــلُ وَالبَيْــداءُ تَعــرِفُني ... وَالسّــيفُ وَالــرّمحُ والقِرْطــاسُ وَالقَلَــمُ

صَــحِبْتُ في الفَلَــواتِ الــوَحشَ منفَــرِداً ... حــتى تَعَجّــبَ مــني القُــورُ وَالأكَــمُ

يَا مَــنْ يَعِــزّ عَلَيْنَــا أنْ نُفَــارِقَهُمْ ... وِجــدانُنا كُــلَّ شــيءٍ بَعــدَكمْ عَــدَمُ

مَــا كــانَ أخلَقَنَــا مِــنكُمْ بتَكرِمَــةٍ ... لَــوْ أنّ أمْــرَكُمُ مِــن أمــرِنَا أمَــمُ[2]

إنْ كــانَ سَــرَّكُمُ مــا قــالَ حاسِــدُنَا ... فَمَــا لجُــرْحٍ إذا أرْضــاكُمُ ألَمُ

وَبَيْنَنَــا لَــوْ رَعَيْــتُمْ ذاكَ مَعرِفَــةٌ ... إنَّ المَعــارِفَ في أهْــلِ النُّهَــى ذِمَــمُ

كــم تَطْلُبُــونَ لَنَــا عَيْبــاً فيُعجِــزُكُمْ ... وَيَكْــرَهُ الله مــا تَأتُــونَ وَالكَــرَمُ

مــا أبعــدَ العَيــبَ والنّقصــانَ مــنْ شَــرَفي ... أنَا الثّــرَيّا وَذانِ الشّــيبُ وَالهَــرَمُ

لَيْــتَ الغَمَــامَ الــذي عنــدي صَــواعِقُهُ ... يُــزيلُهُنّ إلى مَــنْ عِنْــدَهُ الــدِّيَمُ[3]

أرَى النّــوَى يَقتَضِــيني كــلَّ مَرْحَلَــةٍ ... لا تَسْــتَقِلّ بهــا الوَخّــادَةُ الرُّسُــمُ[4]

لَــئِنْ تَــرَكْنَ ضُــمَيراً عَــنْ مَيامِنِنــا ... لَيَحْــدُثَنّ لمَــنْ وَدّعْــتُهُمْ نَــدَمُ

إذا تَرَحّلْــتَ عــن قَــوْمٍ وَقَــد قَــدَرُوا ... ألاَّ تُفــارِقَهُمْ فــالرّاحِلونَ هُــمُ

شَــرُّ الــبِلادِ مَكــانٌ لا صَــديقَ بِــهِ ... وَشَــرُّ مــا يَكسِــبُ الإنســانُ مــا يَصِــمُ

---

(1) هذا البيت فيه تعريض شديد بسيف الدولة؛ إذ كيف الأعمى يرى أدب المتنبي، ويعلم بقدره ومنزله، وسيف الدولة المبصر عَمِيَ عن رؤيته، وبلغ به الاستهتار أن غَفِلَ عنه وتناساه؟!

(2) أَمَم: قريب.

(3) الغمام: السَّحاب. الدِّيَم: جمع ديمة؛ وهي مطر يدوم في سكون.

(4) النَّوى: البُعد. الوخّادة: الإبل التي تسير سيراً سريعاً. الرّسم: جمع رسوم؛ وهي الناقة التي تأثّر في الأرض بأخفافها لسيرها الشديد.

بأيّ لَفْـــظٍ تَقُـــولُ الشّـــعْرَ زِعْنِفَـــةٌ   تَجُـــوزُ عِنـــدَكَ لا عُـــرْبٌ وَلا عَجَـــمُ
هَـــذا عِتابُـــكَ إلاّ أنّـــهُ مِقَـــةٌ   قَـــد ضُـــمّنَ الـــدُّرَّ إلاّ أنّـــهُ كَلِـــمُ[1]

وإذا أضفنا إلى كل ذلك حب المتنبي لخولة أخت سيف الدولة، ووعد سيف الدولة له بالزواج منها، ثم مماطلته له؛ لكان ذلك كافياً لعزم المتنبي على الرحيل، حاملاً معه قلبه الكليم، ونفسه الممزّقة، بعد أن أقام نحو عشر سنوات في حلب صحبة سيف الدولة، تعد أجمل سنيّ عمره، وقد ظل ما بقي من عمره يبكي تلك الأيام، ويحنّ إليها، ولكنّ الكبرياء يأبى عليه العودة.

وهكذا، انطلق المتنبي سنة (346هـ) بعيداً عن حلب، واتّجه جنوباً يمدح الأمراء الإخشيديين، إلى أن عزم عليه كافور وألزمه الوفادة عليه، فحطّ مصر، ونزل في ضيافة حاكمها كافور الإخشيدي.

ولكنَّ المتنبي لم يجد في كافور أهلاً للمديح؛ فهو إلى كونه عبداً أسود كان خصيّاً، مما زاد في ازدراء المتنبي واشمأزازه. ولكن إغداق كافور عليه أجبره أن يمدحه بقصائد يعلو بها عليه. ولكنْ ما يفعل كافور والمتنبي شاعر، وقَتلُ الشعراء سُبّة للملوك، وهو بعدُ الذي ألزمه المجيء، وقد قال فيه مديحاً، فماذا سيقول الناس قَتَلَ مَنْ شَكَرَهُ ومَدَحَهُ؟!

وكان المتنبي قد طَمِعَ في أن يلي شيئاً من صعيد مصر لكافور، وهو الذي صبَّره على المقام في مصر، فلمَّا أيقن بُعدَ أمله، احتال ليخرج من مصر. علماً أنه انقطع عن مدح كافور نحو سنة ونصف، وكان يكتفي بالخروج في موكبه، دون مدحه والثناء عليه.

وكان كافور قد عُوتب على عدم تولية المتنبي لولاية حتى تهدأ نفسه، فقال كافور: يا قوم! مَنْ ادَّعى النبوة بعد محمد ﷺ لا يدَّعي المملكةَ مع كافور؟! حسبُكم[2].

ولما خاف كافور من هرب المتنبي من مصر شدّد الرقابة عليه ، لعلمه أن لا بدّ سيهجوه. ولكنّ المتنبي احتال لخروجه؛ فاستغلّ انشغال الناس بعيد الأضحى، وخرج هارباً من أرض مصر، سالكاً القِفار والمفاوز، ومبتعداً عن الطريق المعروفة، وذلك سنة (350هـ). وقد نجحت حيلته، فلم يستطع كافور أن يعثر كله رغم كل الأرصاد والبحّاثة.

وقد وقع ما كان يخشاه كافور؛ إذ إن المتنبي وقبل أن يخرج من مصر أنزل به هجاءً مقذعاً، ربما كان أحد أسباب مقتله فيما بعد، حيث قال فيه[1]:

---

(1) المِقَة: المحبة.

(2) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: 81/1. ويبدو أن كافور لم يأمن المتنبي من ساعة دخوله؛ لاستعلائه عليه، ولحنينه لأيامه مع سيف الدولة عدو كافور.

عِيــــدٌ بأيّـــةِ حـــالٍ عُـــدتَ يا عيـــدُ   بمَـــا مَضَـــى أمْ لأمْـــرٍ فيـــكَ تَجْديـــدُ
أمّـــــا الأحبـــــةُ فالبيـــــداءُ دونَهُـــــم   فليـــتَ دونَـــكَ بِيـــداً دونَهَـــا بِيـــدُ
لم يَـــترُكِ الـــدَّهْرُ مِـــنْ قَلـــبي وَلا كبـــدي   شـــيئاً تُتَيّمُـــــهُ عَـــــينٌ ولا جِيـــــدُ
يا سَـــــاقِيَيَّ! أخَمْـــــرٌ في كُؤوسِـــــكُما   أمْ في كُؤوسِـــــكُمَا هَـــــمٌّ وَتَسْـــــهيدُ
أصـــــخرةٌ أنا؟ مـــــا لي لا تحـــرّكُني   هـــذي المـــدامُ ولا هـــذي الأغاريـــدُ؟!
مـــاذا لقيـــتُ مـــن الـــدّنيا وأعجبُـــهُ   أنِّي بمَـــا أنا باكٍ منـــــه محســــودُ
إنِّي نَزَلْـــــتُ بكـــــذّابين ضـــــيفُهمُ   عـــن القِـــرى وعـــن التّرحـــالِ محـــدودُ
جُـــودُ الرِّجـــالِ مـــن الأيـــدي وجُـــودُهم   مـــنَ اللّســـانِ ، فَـــلا كـــانُوا وَلا الجُـــودُ
مـــا يقـــبضُ المـــوتُ نفســـاً مـــن نفوسِـــهم   إلاّ وَفي يَـــــدِهِ مِـــــنْ نَتْنِهَـــا عُـــــودُ
أكلّمـــا اغتـــالَ عبـــدُ السُّـــوءِ ســـيّدَهُ   أو خانَـــهُ فلَـــهُ في مصـــرَ تمهيـــدُ
صـــارَ الخَصِـــيُّ إمـــامَ الآبقـــين بهـــا   فـــالحرُّ مســـتعبدٌ والعبـــدُ مَعبـــودُ
العَبْـــدُ لَـــيْسَ لِحُـــرٍّ صَـــالِحٍ بأخٍ   لـــو انَّـــهُ في ثيـــابِ الحـــرّ مولـــودُ
لا تشـــتري العبـــدَ إلا والعصـــا معَـــهُ   إنَّ العبيــــدَ لأنجـــاسٌ مَنَاكِيـــدُ
مـــا كُنـــتُ أحْسَـــبُني أحْيَـــا إلى زَمَـــنٍ   يُســـيءُ بي فيـــهِ عبـــدٌ وهـــو محمـــودُ
ولا تَوَهّمْـــتُ أنّ النّـــاسَ قَـــدْ فُقِـــدوا   وَأنّ مِثْـــلَ أبي البَيْضـــاءِ مَوْجـــودُ
وأنَّ ذا الأســـودِ المثقـــوبَ مشـــفرُهُ   تُطيعُـــهُ ذي العَضَـــاريطُ الرَّعاديـــدُ[2]
جَوْعـــانُ يأكُـــلُ مِـــنْ زادِي وَيُمسِـــكُني   لكَـــيْ يُقـــالَ: عَظـــيمُ القَـــدرِ مَقْصُـــودُ
مَـــنْ عَلّـــمَ الأسْـــوَدَ المخصِـــيّ مكرُمَـــةً   أقَوْمُـــهُ البِـــيضُ أمْ آبَاؤهُ الصِّـــيدُ؟!
أمْ أُذْنُـــهُ في يَـــدِ النّخّـــاسِ دامِيَـــةً   أمْ قَـــدْرُهُ وَهْـــوَ بالفِلْسَـــينِ مَـــرْدودُ
أولى اللئـــامِ كُـــويفيرٌ بمعـــذرةٍ   في كـــلّ لـــؤمٍ وبعـــضُ العـــذرِ تفنيـــدُ
وذاك أنَّ الفحـــولَ البـــيضَ عـــاجزةٌ   عـــن الجميـــلِ فكيـــفَ الخِصْـــيَةُ الســـودُ؟!

ثم نزل الكوفة سنة (350هـ)، وقد أغراه بعض أهلها بهجاء ضبة بن يزيد العتبي وكان فتاكاً غداراً شتّاماً، فقال فيه قصيدته التي مطلعها[3]:

---

(1) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي: 334/1-339.

(2) العضاريط: جمع عضروط؛ وهو الذي يخدم الناس بطعام بطنه. الرَّعاديد: جمع رِعديد؛ وهو الجبان.

(3) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي: 206/1.

مـــــا أَنصـــــفَ القـــــومُ ضَـــــبّه وأمُّـــــــــــهُ الطّرْطُبّــــــــــــه

وقدم بغداد سنة (352هـ)، ولكنه لم يمدح أحداً من الأعيان والوزراء، فحمل عليه الوزير المهلبي، وأغرى به الشعراء، ولكنّ المتنبي لم يأبه لعوائهم، ولم يستجب لندائهم.

وفي سنة (354هـ) ترك المتنبي العراق، ويمَّم وجهه قِبل فارس، ليمدح الوزير ابن العميد ـ وكان من رجال العلم والسياسة ـ فمدحه، ثم أتاه دعوة عضد الدولة البويهي إلى شيزار فقال المتنبي: ما لي وللديلم.

فقال أبو الفضل: عضدُ الدولة أفضل مني، ويَصِلُك بأضعاف ما كنتُ وصلتك به.

فأجاب: إني ملقًى من هؤلاء الملوك، أقصد الواحد بعد الواحد، وأُملّكهم شيئاً يبقى بقاء النَّيّرين، ويعطونني عرضاً فانياً.. ولي ضَجرات واختيارات فيعوقونني عن مرادي، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه.

فكاتب أبو الفضل عضد الدولة بهذا الحديث فورد الجواب بأنه مملَّك مراده في المقام والظعن. فسار إليه مكرهاً لكون عضد الدولة موالياً للفاطميين، وعدو سيف الدولة. وقد بدا رغبته عن هذه الزيادة من لحظة دخوله لمدينة شيزار؛ حيث استقبله أبو عمر الصباغ وقال له: «أنشدني» كأنه يختبر شعره، فأجابه المتنبي: «الناس يتناشدون، فاسمعه»[1]، فلما بيَّن له أن السؤال كان من قِبل عضد الدولة أنشده ما قاله حين خرج من مصر:

فَلَمَّـــــا أَنَخْنـــــا رَكَـــــزْنا الرِّمَـــــا حَ حَـــــوْلَ مَكارِمِنَـــــا والعُلـــــى
وَبِتْنَـــــا نُقَبِّـــــلُ أَسْـــــيَافَنَا وَنَمْسَـــحُها مِـــنْ دِمـــاءِ العِـــدى
لِـــتَعْلِمَ مِصْـــرَ وَمَـــنْ بِالْعِـــرَاقْ وَمَـــنْ بِالْعَواصِـــمِ أَنِّي الفَـــتَى
وَأَنِّي وَفَيْـــــتُ وَأَنِّي أَبَيْـــــتُ وَأَنِّي عَتَـــوْتُ عَلَـــى مَـــنْ عَـــتَى

فلما بلغ عضد الدولة شعره قال: «هوناً.. يتهدَّدنا المتنبي».

والتقى عضد الدولة بالمتنبي، وأكرمه غاية الإكرام، فمدحه المتنبي، ولكن مدحه كان دون مدحه لسيف الدولة، وكان فيه استعلاء كثير، فضلاً عما كان يضمه من غمز ولمز بالعجم، وتفضيل العرب عليهم. ولكن عضد الدولة أراد أن يقطع لسانه بالعطاء، وأن يتقي شرّه، رغم ما يعلم من باطن أبي الطيب.

وبعد مقام ثلاثة أشهر في شيزار عاد المتنبي إلى بغداد، محمَّلاً بالذخائر والأموال والتّحف والهدايا التي منحنه إياها عضد الدولة، فمر بأبي فاتكٍ الأسدي فَفَتَكَ به وبِمَنْ معهُ.

---

(1) يريد أن الشعر قد ضرب الأفاق، وعرفه الكل، اسمعه من رواته وحفظته.

قصة مقتله:

يمكن أن نرجع مقتل المتنبي إلى أسباب مباشرة، وأخرى غير مباشرة.

فمن الأسباب غير المباشرة: **استعلاؤه على ممدوحيه عموماً**، وكأنه لا يرى إلا نفسَهُ، وهذا الشعور بالعظمة سبَّب له الكره والبغض في نفوس كثير من ممدوحيه، وجعلهم لا يأمنون جانبَه. وقد وقع هذا واضحاً في مدحه لكافور العبد الأسود الخصي، ومدحه لعضد الدولة الأعجمي الساعي لسلب الخلافة والحكم من العرب والعباسيين.

وهجاؤه لكافور، الذي جعل على درب هربه العيون والأرصاد طلباً لقتله أو أَسرِهِ، ولا أستبعد أن يكون لكافور يداً في مقتله؛ لا سيما بعد أن جعل منه أضحوكةً في أرض مصر، وهجاه هجاءً مقذعاً.

وتجرّؤه على نقد الحكام؛ من ذلك أن عضد الدولة وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس مسرجة محلاة، ثم دسَّ له مَن يسأله: أين هذا العطاءُ من عطاءِ سيف الدولة؟

فقال: إن سيف الدولة كان يُعطي طَبعاً، وعضد الدولة تطبّعاً. فأثار ذلك نقمته.

وقيل: إنه هو الذي أغرى بني ضبة به. ولا يبعد أن يكون هذا صحيحاً؛ إذ ربما بالغ في إكرامه نفياً للتُّهمة عن نفسه، وليكون قتله بيد غيره. وإلا لِما لم يقتصّ أحدٌ من قَتَلتِهِ؟ كأن البويهيين في العراق وفارس كانوا ينتظرونهم ليقتلوه، بعدما رأوا أنفته من مدحهم، وموقفه من دعوتهم الفاطمية العبيدية. لذا كان المتنبي بالغ التشاؤم حين ودّع عضد الدولة، وأنشده آخر قصائده فيه، حيث قال(1):

فِدًى لكَ مَن يُقَصّرُ عَن مَداكا ... فَلا مَلِكٌ إذَنْ إلاّ فَداكَا
وَلَوْ قُلْنا فِدًى لكَ مَن يُساوي ... دَعَوْنَا بالبَقَاءِ لِمَنْ قَلاكَا
أرُوحُ وَقد خَتَمتَ على فُؤادي ... بحُبّكَ أنْ يحِلّ بهِ سِوَاكَا
وَقَد حَمّلْتَني شُكْراً طَويلاً ... ثَقِيلاً لا أُطيقُ بِهِ حَرَاكَا
– وَأنّى شِئْتِ يا طُرُقي فكُوني ... أذَاةً أوْ نَجَاةً أوْ هَلاكَا
– وَمَا أنَا غَيرُ سَهْمٍ في هَوَاءٍ ... يَعُودُ وَلم يَجِدْ فِيهِ امتِساكَا
حَيِيٌّ مِنْ إلهي أنْ يَرَاني ... وَقَد فارَقْتُ دارَكَ وَاصْطَفَاكَا

أما السبب المباشر:

---

(1) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي: 2/59-66.

فيعود إلى أنه لما قَفل من مصر هارباً من سطوة كافور، خَشِي ضبة بن يزيد العتبي، وكان فتّاكاً غدّاراً. وسبب ذلك: أن قوماً من العراق قتلوا أباه، وأخذوا أمه، ففسقوا بها، فحملت بضبة؛ فأراد أن ينزل العقاب بكل من مرّ به، لا سيما وقد انضم إليه بعض الخوارج. فمرّ بجماعة من أشراف الكوفة، وامتنع بهم من جمعه، فنزل إليهم ضبة وشتمهم وأقذع لهم، فأرادوا أن يجيبوه بمثل قوله؛ فطلبوا من أبي الطيب أن يجيبه، فتكلّف هذه القصيدة(1):

مـــا أَنصـــفَ القـــومُ ضَـــبّه ... وأمُّـــــــهُ الطّرطُبّـــــــه(2)

رمُـــــوا بـــــــرأسِ أبيـــــهِ ... وباكـــــــوا الأمَّ غُلبَّـــــــهْ(3)

فـــلا بِمَـــــنْ مـــــاتَ فخـــرٌ ... ولا بِمَـــــنْ نِيـــــكَ رَغبـــــهْ

وَإِنّمَـــا قُلْـــتُ مـــا قُلْـــ ... ـــتُ رَحْمَـــةً لا مَحَبّـــهْ

وَحيلَـــةً لَـــكَ حَـــتّى ... عُـــذِرْتَ لَـــوْ كنـــتَ تَأبَـــهْ

وَمَـــا عَلَيْـــكَ مِـــنَ القَتْـــ ... ـــلِ إنّمَـــا هـــيَ ضَـــرْبَهْ

وَمَـــا عَلَيْـــكَ مِـــنَ الغَـــدْ ... رِ إنّمَـــا هـــيَ سُـــبّهْ

ومـــا عليـــكَ مـــن العـــا ... رِ إنَّ أُمّـــكَ قَحبَـــهْ

ومـــا يَشـــقّ علـــى الكَلـــ ... ـــبِ أنْ يكـــونَ ابـــنَ كَلبَـــهْ

مـــا ضـــرَّها مَـــنْ أتاهـــا ... وإنَّمـــا ضَـــرَّ صُـــلبَهْ

ولَمْ يَنِكْهـــا ولكـــنْ ... عِجانُهـــا ناكَ زُبّـــهْ(4)

يلـــومُ ضَـــبّةَ قـــومٌ ... ولا يلُومـــونَ قَلبَـــهْ

وقلبُـــهُ يتشـــهّى ... ويُلـــزِمُ الجســـمَ ذنبَـــهْ

لـــو أبصـــرَ الجِـــذعَ شـــيئاً ... أحـــبَّ في الجـــذعِ صَـــلبَهْ

---

(1) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي: 1/206-209. ويروى أن المتنبي قد أنكر أن يكون قال هذه القصيدة، وهي - والحق يقال - بعيدة عن أسلوبه وصياغته، ولكنَّ القصة لا تتمّ إلا بها، ولو لم يكن فاتك متأكد أن المتنبي قد هجا ابن أخته بها فهل يُقدم على قتله؟!. لذلك لا أقطع بانتفاء نسبتها لأبي الطيب؛ إذ ربما قالها المتنبي على لغة ذلك الغدار الفاحش، فلو خاطبه كما يخاطب الأعيان والملوك لما فهم منه شيئاً، وهو الجاهل البعيد عن الأدب وفنونه. ولعل نفي المتنبي أن يكون قالها لأنه رآها تحط من منزلته الشعرية، فهو يراها سقطة لا بد أن ينفيها، على مبدأ «إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا». والله أعلم.

(2) الطّرطُبة: القصيرة الضخمة، وقيل: هي المسترخية الثديين، أو الطويلة الثديين.

(3) باكوا الأم: نزوا عليها. الغُلبة: المغالبة. وقد جعلهم كالحمير في غشيانها.

(4) العِجان: ما بين القُبل والدُّبر.

يا أطيبَ النَّاس نَفساً … وألينَ النَّاسِ رُكبَهْ

وأخبثَ النَّاسِ أصلاً … في أخبثِ الأرضِ تُربهْ

وأرخصَ النَّاسِ أمَّاً … تبيعُ ألفاً بحبَّهْ

كلّ الفُعُولِ سِهامٌ … لمريمٍ وهي جُعبهْ

وما على مَنْ بِهِ الدَّا … ءُ مِنْ لِقاءِ الأطبَّهْ

وليس بينَ هَلُوكٍ … وحرَّةٍ غيرُ خطبهْ[1]

يَا قَاتِلاً كُلَّ ضَيْفٍ … غَنَاهُ ضَيْحٌ وَعُلْبَهْ[2]

وَخَوْفَ كُلّ رَفِيقٍ … أبَاتَكَ اللّيْلُ جَنْبَهْ

كَذا خُلِقْتَ وَمَنْ ذا الّـ … ـذِي يُغَالِبُ رَبَّهْ

وَمَنْ يُبَالي بِذَمٍّ … إذا تَعَوّدَ كَسْبَهْ

أما تَرَى الخيلَ في النَّـ … ـخلِ سُربةً بعد سُربهْ[3]

على نسائِكَ تَجلو … فَعولَها مُنذُ سَنْبَهْ[4]

وهنَّ حولَكَ ينْظُرْ … نَ والأُحيراحُ رَطبهْ[5]

وكل غُرمولٍ بَغلٍ … يَرينَ يَحسُدْنَ قُنبَهْ

فَسَلْ فُؤادَكَ يا ضَـ … ـبَّ أينَ خَلَّفَ عُجْبَهْ

وَإنْ يَخُنْكَ لعَمْرِي … لَطَالَمَا خانَ صَحْبَهْ

وَكَيْفَ تَرْغَبُ فِيهِ … وَقَدْ تَبَيّنْتَ رُعْبَهْ

مَا كُنْتَ إلاّ ذُبَاباً … نَفتْكَ عَنّا مِذَبّهْ

وكنتَ تفخرُ تِيهاً … فصرتَ تضرِطُ رَهبهْ

وَإنْ بَعُدْنَا قَليلاً … حَمَلْتَ رُمحاً وَحَرْبَهْ

وَقُلْتَ لَيْتَ بكَفّي … عِنَانَ جَرْداءَ شَطْبَهْ[6]

---

(1) الهَلوك: البغي الفاجرة.

(2) الضَّيح: اللبن الممزوج بالماء. العُلبة: قدح من جلد يُشرب فيه اللبن.

(3) السُّربة: الجماعة من الخيل.

(4) فعولها: كناية عن غرمولها. السنبه: الحين والقطعة من الزمان.

(5) الأُحيراح: تصغير أحراح، وهي جمع حَر (وأصله حرح)؛ وهو الفرج.

(6) العِيان: سير اللّجام. الجرداء من الخيل: القصيرة الشعر، والشّطبة : الطويلة.

إنْ أوْحَشَتْكَ المعَالي فإنّهَا دارُ غُرْبَهْ

أوْ آنَسَتْكَ المخَازي فإنّهَا لَكَ نِسْبَهْ

وَإنْ عَرَفْتَ مُرَادي تكَشّفَتْ عَنكَ كُرْبَهْ

وَإنْ جَهِلْتَ مُرَادي فإنّهُ بِكَ أشْبَهْ

فغضب فاتك بن أبي جهل خال ضبة لما سمع هذه الأبيات، وأضمر شراً بالمتنبي.

يقول أبو نصر محمد الجبلي[1]:

كان فاتك بن أبي جهل صديقاً لي، وهو إنما سُمّي فاتكاً؛ لسفكه الدماء، وإقدامه على الأهوال في مواقف القتال.

فلما سمع الشعر الذي هجي به ضبة اشتدَّ غضبه، ورجع على ضبة باللوم، وقال له: كان يجب ألا تجعل لشاعر عليك سبيلاً.

وأضمرَ غير ما أظهرَ، واتَّصل به انصراف المتنبي من بلاد فارس، وتوجّهه إلى العراق، وعَلِمَ أنه سيمر بجبل دير العاقول، فلم يكن ينزل عن فرسه، ومعه جماعة من بني عمه رَأيهم في المتنبي مثل رأيه؛ من طلبه واستعلام خبره من كل صادر ووارد.

وكان فاتك خائفاً أن يفوته، وكان كثيراً ما ينزل عندي، فقلت له يوماً وقد جاءني وهو يسائل قوماً مجتازين عن المتنبي: قد أكثرتَ المسألة عن هذا الرجل، فأي شيء تريدُ منه إذا لقيته؟

فقال: ما أريد إلا الجميلَ، وعَذلَه على هجاء ضبة.

فقلت له: هذا لا يليقُ بأخلاقك.

فتضاحك، ثم قال: يا أبا نصر! والله لئن اكتحلتْ عيني به أو جَمَعَتْنِي وإيّاه بقعةٌ لأسفكنَّ دَمَهُ، ولأمحقنَّ حياته، إلا أن يُحال بيني وبينه.

فقلت له: كُفَّ . عافاك الله . عن هذا القول، وارجع إلى الله، وأَزِلْ هذا الرأي عن قَلْبِك؛ فإن الرجل شَهيرُ الاسم، بَعيدُ الصِّيتِ، ولا يَحسُنُ منك قَتلُهُ على شعر قالَه، وقد هَجَتِ الشعراء الملوك في الجاهلية، والخلفاء في الإسلام، فما سَمِعْنا بشاعرٍ قُتِلَ بِهِجَائِهِ[2]، وقد قال الراعي النميري:

هجوتُ زهيراً ثم إنِّي مَدحتُهُ وما زالتِ الأشرافُ تُهجى وتُمدحُ

---

(1) نقلاً عن الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ليوسف البديعي.

(2) هذا الكلام لا يصح على إطلاقه، وسترى في هذا الكتاب أن عديداً من الشعراء قُتلوا لهجائهم؛ كطرفة، وكعب بن الأشرف، وأبي نخيلة، وبشار بن برد..الخ.

ولم يبلغ من جُرمِهِ ما يُوجب قَتلَهُ.

فقال: يفعل الله ما يشاء. وانصرف.

ولم يمض لهذا القول غير ثلاثة أيام حتى وافاني المتنبي، ومعه بِغال موقَّرة بكل شيء من الذهب، والطِيّب، والتجملات النفيسة، والكتب الثمينة، والآلات. وكان إذا سافر لم يَخلفْ في منزله درهماً، ولا شيئاً يساويه، وكان أكثر إِشفاقه على دفاتره، لأنه كان قد انتخبها، وأحكَمَها قراءةً وتصحيحاً.

قال أبو نصر: فتلقيته، وأنزلته داري، وسألته عن أخباره، وعمن لَقِي، فعرَّفني من ذلك ما سُررتُ به وله، وأقبل يصف ابن العميد وفضله، وأدبه، وعلمه، وكرم عضد الدولة ورغبته في الأدب، ومَيله إلى أهله، فلما أمسينا قلت له: يا أبا الطيب! على أي شيءٍ أنتَ مُجمِعٌ؟

قال: على أن أتَّخِذَ الليلَ مَرَكَباً، فإن السيرَ فيه يخفّ علي.

قلت: هذا هو الصواب – رجاء أن يُخيفه الليل، ولا يصبح إلا وقد قطع بلداً بعيداً.

وقلت له: والرأيُ أن يكون معك من رجّالة هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضع المخفية جماعةٌ يمشون بين يديك إلى بغداد.

فقطَّب وجهه وقال: لِمَ قُلتَ هذا القولَ؟

فقلت: لتستأنسَ بهم.

فقال: أما والسيفُ في عنقي فما بي حاجةٌ إلى مُؤنسٍ غَيرَهُ.

قلت: الأمرُ كما تقول، والرأيُ في الذي أشرتُ به عليك.

فقال: تلويحُكَ يُنبِي عن تعريضٍ، وتعريضُكَ يُنبِي عن تصريحٍ؛ فعرِّفني الأمرَ، وبيِّنْ لي الخطبَ.

قلت: إن هذا الجاهل فاتكاً الأسديَّ كان عندي منذ ثلاثة أيام، وهو غير راضٍ عنك؛ لأنك هجوت ابن أخته ضبَّة، وقد تكلَّمَ بأشياءٍ تُوجب الاحترازَ والتيقظَ، ومعه أيضاً نحو العشرين من بني عمه، قولهم مثل قوله.

فقال غلام أبي الطيب وكان عاقلاً: الصوابُ ما رآه أبو نصر، خذ معك عشرين رجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداد.

فاغتاظ أبو الطيب من غلامه غيظاً شديداً، وشتمه شتماً قبيحاً، وقال: والله لا أرضى أن يتحدَّث الناسُ بِأَنِّي سِرتُ في خَفَارةِ أحدٍ غير سيفي.

فقلتُ: يا هذا! أنا أوجِّه قوماً من قِبلي في حاجةٍ يسيرون بمسيرك، وهم في خفارتك.

فقال: والله لا فعلت شيئاً من هذا.

ثم قال: يا أبا نصر! أبخرأ الطَّيرِ تخوِّفني؟ ومِنْ عبيد العصا تخافُ عليَّ؟! والله لو أن مَخصرتي هذه مُلقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد معطشون بخمسٍ وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيات ما جَسَرَ لهم خفٌ ولا ظَلَفٌ أن يردهُ. معاذ الله أن أشغلَ فِكري بهم لحظة عين.

فقلت له: قل إن شاء الله.

فقال: هي كلمة مقولةٌ لا تدفعُ مَقضياً، ولا تستجلب آتياً.

ثم ركب، فكان آخر العهد به.

فلمَّا بلغ دير العاقول خرج عليه فاتك ومَنْ مَعه، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فلما رأى المتنبي الغلبةَ لهم، انهزم ولاذ بالفرار. فقال له غلامه: أين قولُك:

الخيــــــلُ والليــــــلُ والبيــــــداءُ تعــــــرفني   والســـيفُ والــرّمح والقرطـــاسُ والقلـــمُ

فقال: قتلتني قَتَلَكَ الله، ثم قاتل حتى قُتِلَ وابنه وغلمانه[1]. وحاز فاتك ورفاقه كل ما كان مع المتنبي من ذخائر وأموال.

* * *

وهكذا، قَتَلَ شِعرُ المتنبيّ المتنبيَّ مرتين:

الأولى: حين هجا ضبة، فسعى فاتك حتى أوقع به، وقتل ابنه، وحاز كل ما يملك.

والثانية: حين ردّه إلى القتل، وأذكى فيه الحمية، ورغّب إليه الموت، كيلا يقال: جبار في الشعر، خوَّار في الحرب، كذوب في القصيد، هَروب في الحصيد.

لقد كان بحق فارساً بطلاً، قُتل التزاماً بقضية ناضل في سبيلها، وتحقيقاً لذات أراد إثباتها، فلئن أخفق في الوصول إلى السلطة لأن الزمان جفاه، لقد تربَّع على قلوب الناس ألف سنةٍ وقد عشقت لفظه ومعناه، وكفاه بذلك شرفاً وسلطة، وقد جاءت الأيام مصدّقةً لقوله:

وَمَـــا الـــدّهْرُ إلاّ مِـــنْ رُواةِ قَصـــائِدي   إذا قُلــتُ شِــعراً أصْــبَحَ الــدّهرُ مُنشِــدَا

---

(1) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: 27/7.

عمر بن حسن الهَوزني[1]

ترجمته:

هو أبو حَفص عمر بن حسن الهَوزَنِي. أندلسي من أهل إشبيلية. وكان من رجال السياسة، شاعر بليغ، وعالم بالحديث.

كان زعيم إشبيلية قبل رياسة عَبَّاد (المعتضد)، وهو من أصدقائه، فلما قَوِيَ أمر المعتضد فيها، استعداداً لأخذ البيعة لنفسه، أحسَّ الهوزني بتغيره عليه؛ فاستأذنه في الحج (سنة 444 هـ) وحجَّ، وسمِعَ الحديث، وعاد، فسكن مُرسية، وهو على اتِّصال حَسَنٍ بالمعتضد.

ولما استولى الإسبان على مدينة بَرْبُشْتُر سنة (456 هـ) فكتب إلى المعتضد، يحضه على الجهاد، فأجابه المعتضد برسالة يشير عليه فيها بالرجوع إلى إشبيلية، فجاءها (سنة 458 هـ)، وقدَّمه المعتضد، وأظهر التعويل عليه في كبار الأعمال، إلى أن تمكَّن منه فباشر قتله بيده، في قصره، ودفنه داخل القصر بثيابه وقلنسوته من غير غسل ولا صلاة، وذلك سنة (460هـ).

قصة مقتله على يد المعتضد:

لما أحسّ عمر بن حسن تغيَّر المعتضد عليه، فضَّل البعد على الوقيعة، فاستأذنه بالحج سنة (444هـ)، ولما عاد استوطن مرسية مبتعداً عن جوار المعتضد خشية سطوتِهِ، وإن حافظ معه على الود والتراسل المستمر.

وكان حال الأندلس في انحطاط وانهيار، حيث أخذت مدنه تتهاوى أمام المد الصليبي الإسباني، وسرى التخاذل في نفوس الناس، فما كان من عمر ـ وهو العالم السياسي الشاعر ـ إلا أن هبَّ يحض الناس على الجهاد، ويستنفر الأندلسيين للدفاع عن ديارهم، يقول:

بَيِّتِ الشَّرَّ فلا يَستزلّ ... طَرَقَ النوَّامَ سَمعٌ أَزَلُّ
فَثِبُوا واخشوشنُوا واحزئِلُّوا ... كلُّ ما رزءٍ سوى الدِّينِ قُلُّ
صَرَّحَ الشَّرُّ فلا يُسْتَقَلُّ ... إنْ نَهلتُمْ جَاءَكُمْ بَعدُ عَلُّ
بَدءُ صعق الأرض نَشءٌ وطلّ ... ورياحٌ ثمَّ غَيمٌ أبلُّ
قَدْ رَجَتْ عَادٌ سَحَاباً يُهِلُّ ... فإذا ريحٌ دَبورٌ مِحَلُّ
نقِّبُوا فالداءُ رزءٌ يَحُلُّ ... واغمدُوا سَيفاً عليكم يُسلُّ

---

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: 3/81-94، ونفح الطِّيب: 2/93-94، والأعلام: 5/44.

يـــدُنا العُليـــا وهـــم وَيْـــكَ شُـــلُّ فلِـــمَ اســـترعى الأعـــزَّ الأذلُّ
عَجـــبُ الأيامِ ليـــثٌ صـــملُ ذَعرتـــهُ نَعجـــةُ إذ تصـــلُّ
خَـــبَرٌ مـــا جـــاءَنا مُصـــمئِلُّ جـــلَّ حَـــتَّى دَقَّ فيـــه الأجـــلُّ

حتى كانت وقعة بَرْبُشْتُر سنة (456 هـ)، حيث سقطت المدينة بأيدي الإسبان، فأثار سقوطها غَضبة عمر للإسلام، ونظر فلم يرَ خيراً من المعتضد يعوِّل عليه في دفع المصيبة، وردّ المدينة؛ فكتب إليه محرضاً له على الجهاد، كتاباً طويلاً ضمَّنه الكثير من شعره، بدأه بقوله:

أَعَبَّـــادُ جَـــلَّ الـــرّزءُ والقـــومُ هُجَّـــعُ علـــى حَالـــةٍ مـــن مثلِهـــا يُتَوقَّـــعُ
فَلَـــقِّ كِتـــابي مـــن فَراغِـــكَ سَـــاعةً وإن طـــالَ فالموصـــوفُ للطّـــولِ مَوضـــعُ
إذا لم أَبـــثَّ الـــداءَ رُبَّ دوائِـــهِ أَضـــعْتُ وأهـــلٌ للمـــلامِ المضـــيَّعُ

ومما جاء فيه: «وكتابي عن حالةٍ يَشيبُ لشهودها مَفرقُ الوليد، كما يغبرُّ لورودها وجه الصعيد، بَدؤها ينسف الطريف والتالد، ويستأصل الوليد والوالد ، تذر النساء أيامى، والأطفال يتامى، فلا أيِّمة إذا لم تبق أنثى، ولا يتيمَ والأطفال في قيد الأسرى، بل تعم الجميع جماً جَمّاً، فلا تخص، وتزدلف إليهم قُدُماً قُدماً، فلا تنكص، طَمَّتْ حتى خِيفَ على عروة الإيمان الانفضاض، وطَمَتْ حتى خُشيَ على عمود الدين الانقضاض، وسَمَتْ حتى تُوُقِّعَ على جناح الدين الانهياض.

– كَأنَّ الجميع في رقدة أهل الكهف، أو على وعدٍ صادق من الصَّرف والكَشف، وأنى لمثلها بالدفاع عن الحريم، ولما نمتثلْ أدب العزيز الحكيم في قوله: {**وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ** } [البقرة: 251]، وقوله تعالى: {**وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ** } [الحج: 40].

ومِنْ أينَ لنا دَفعُهم بالكفاية أو كيف، ولم نمتطِ إليهم الخوفَ، ونُساجلهم السيفَ، بل لما يُرأبْ من صدوعهم ثَلمٌ، ولا دُووي من جراحهم كَلمٌ، ولا رُدَّ في نحورهم سَهمٌ، إن حاربوا موضعاً أرسلناه، أو انتسفوا قُطراً سَوَّغناهُ، وإنَّ هذا لأمر له ما بعده، إلا أن يُسنِّي الله على يديك دفعَهُ وصَدَّهُ:

فكـــم مِثلَهـــا جَـــأواء نَهَنْهْـــتَ فانثنـــت وناظِرُهـــا مـــن شِـــدَّة النَّقـــعِ أَرمـــدُ
فمـــرَّتْ تُنـــادي الويـــلَ للقـــادحِ الصَّـــفا لـــبعضِ القلـــوبِ الصَّـــخرُ أو هـــي أَجلـــدُ
وأَلقَـــتْ ثَنـــاءً كاللطـــائمِ نَشـــرُهُ تَبيـــدُ الليـــالي وهـــو غَـــضٌّ يجـــدّدُ

– والحرب في اجتلائِها حسناءُ عروسٌ تطَّبي الأغمارَ بزَّتُها، وفي بنائها شمطاءُ عبوسٌ تختلي الأعمار غرَّتها، فالأقل للهبها واردٌ، والأكثر عن شهبها حائدٌ، فأخلقْ بمحيدٍ عن مكانها، وعزلةٍ في ميدانها، فوقودُها شِكَّة السلاح، وفِرندها مساقطُ الأشباح، وقُتارها متصاعدُ الأرواح. فإن عسعسَ ليلُها مدةً من الانصارم، أو انبجس وَبلُها ساعةً لانسجام؛ فيومها غَسَقٌ يردّ الطرفَ كليلاً، ونبلُها صَيِّبٌ يزيد الجوف غليلاً:

أَعبَّـــادُ ضَـــاقَ الـــذَّرعُ واتَّســـعَ الخَـــرْقُ	ولا غَـــربَ للـــدُّنيا إذا لم يكـــن شَـــرقُ
ودُونَـــكَ قَـــولاً طـــالَ وهـــو مقصّـــرٌ	فللعـــينُ معـــنًى لا يُعـــبِّرُهُ النّطـــقُ
إِليـــكَ انتهـــتْ آمالُنـــا فـــارمِ مـــا دَهَـــى	بعزمِـــك، يَـــدمغْ هامـــةَ الباطـــلِ الحـــقُّ

وما أخطأ السبيلَ مَنْ أتى البيوت من أبوابها، ولا أرجى الدليلَ من ناط الأمور بأربابها، ولربَّ أملٍ بين أثناء المحاذير مُدمَج، ومحبوب في طي المكاره مُدرَج؛ فانتهز فرصتها فقد بان من غيرك العجزُ، وطبِّق مضاربها فكأنْ قد أمكنكَ الحزُّ.

ولا غرو أن يُستمطَرُ الغمام في الجَدبِ، ويستصحبُ الحسامُ في الحرب؛ فالسهام تَطيشُ فتختلف، والرماح تَلين وتنقصفُ، فإن جَعجَعْتَ أيها الساعي المخِبُّ في بغاء الفَرَجِ، وتحقَّقت بالحثِّ على جلاء تلك اللّجج، ووجدت في فتح ذلك الباب المرتج:

فنـــــــادِ: أعبَّـــــــادُ ذَا عائـــــــذٌ	وقَـــدْكَ، علـــى حينِهـــا تَنصَـــرِمْ
تُجِبْـــكَ أســـودُ علـــى ضُـــمَّرٍ	مُعـــوَّدةٌ مـــا بَغَـــتْ أن يـــتمّْ
كَـــأنَّ المقـــاديرَ حـــزبٌ لـــهُ	فيمضـــي علـــى رَأيـــهِ مـــا حَكَـــمْ
سَـــقَتْهُ الحميَّـــةُ جريالهـــا	وصـــحَّتْ مَنَاقِبُـــهُ في الكَـــرَمْ
فَصـــابٌ لأعدائـــه مُمْقِـــرٌ	وغَيـــثٌ لِرَاجيـــهِ حُلـــوُ الـــدِّيَمْ
كنـــوه بمـــا مُـــدَّ في عُمـــرِهِ	وكـــان نُحـــورَ العـــدا يَختـــرِمْ
تقيِّـــدنا حُـــرُّ أفعالِـــهِ	وكنيتُـــهُ تقتصـــي مـــا رســـمْ
فَمَـــنْ ذيـــنِ تفريـــعُ أوصـــافِهِ	وبالرَّمـــزِ نَعـــنِي الـــذَّكيَّ الفَهِـــمْ

– وما زلْتُ أعتدُّك لمثل هذه الجولة وَزَراً، وأدَّخرك في مُلِمِّها ملجأ وعَصَراً، لدلائل أوضحت فيك الغيب، وشواهدَ رفعت من أمرك الريبَ؛ فالنهار من الصباح، والنور من المصباح. ولئن كان ليلُ الفساد مما دَهَمَ قد أغدفَ جلبابه، وصباح الصلاح بما ألمَّ قَدْ قدّ إهابه؛ فقد كان ظهر قديماً من اختلال الأحوال ما أيأس، وتبيَّن من فساد التدبير ما أبلس، حتى تدارك فَتقَ ذلك سلفك، فرتقه جميل نظرهم ورأبه، وصرفه مشكورُ أثرهم وشعبه:

فعـــــادَ الشَّـــــملُ منتظمـــــاً هَنيَّـــــا وآضَ الصّـــــدعُ ملتئمـــــاً سَـــــويَّا

ثم تَوَلَّيتَ فكفيتَ، وخلفتَ فأربيتَ، وبرعتَ فأوريتَ، فالناس مُذ بوَّأتهم رحب جنابك في عَطَنٍ يربي على لين الدِّمقس، وتحت مِنَنٍ تعلو على مُنى النفس، وفي زمان كالربيع اعتدل هواؤه، وتشاكهت أرضه وسماؤه، واخضرَّ بالنبت أديمُها فكأنها الرَّقيعُ، وتعمَّم بالنور جميمُها فتقول: هو الترصيع، ففضلكم في الأعناق أطواق، ومجدكم للآفاق إشراق، وحيثما حللت: الأرض عراق، فأنا أول مَن هو إلى تلك الحضرة مشتاق، فلا تحرمنّي وصلاً كُنت جاهداً في إنباطه، ولا تصدّني عن مَنهل كنتُ صدراً في فُرَّاطه، فأحقُّ الورى بجزيل تلك الآلاء، وأخلقهم بمنزل تلك السماء، أنصحهم له جيباً، وأصحهم فيه غيباً:

أعبـــاد كـــلاً قـــد علـــوتَ فضـــائلاً تقاصـــرَ عنهـــا كـــلّ أروعَ ماجـــدِ
فأوّلهـــــا جُـــــودٌ أرانا أكُفّهـــــم جُمـــوداً ككـــفٍّ لم تؤيَّـــدْ بِسَـــاعدِ
وسَـــعيٌ لِمَـــا تبغـــي يُخيِّـــلُ سَـــعيَهم تَلاعُـــبَ ولـــدانٍ أطافـــتْ بوالـــدِ
ونصـــرٌ لِمَـــنْ واليـــتَ يُـــردِي عَـــدوَّه ردى أهـــلِ جَـــوٍ في وقيعـــة خالـــدِ
منعـــتَ بـــني جـــالوتَ مـــا قـــد أباحَهـــم ســـواكَ بحـــربٍ قَيَّـــدتْ كـــلَّ شَـــاردِ
فَمَـــنْ شَـــاءَ فلينظـــرْ أُســـوداً بروضـــةٍ تراعـــي عصـــا راعٍ وتعنـــو لرائِـــدِ
عجائـــبُ مجـــدٍ أعجـــزتْ مَـــنْ ســـواكمُ ومِـــنْ سِـــرِّها المشـــهورِ صِـــدقُ المواعـــدِ
فـــإنْ رَاثَ أمـــري فـــادَّركني برحلـــةٍ إلى مَـــأمَنٍ فـــالخوفُ أَعجـــلُ طَـــاردِ
وحُـــدَّ مكـــاناً آتـــهِ فرضـــاكُمُ هـــواي وإن أَغشـــى كريـــهَ المـــواردِ
فَقَـــدْ جـــدَّ أمـــرٌ هَـــدَّ شَـــرعَ محمَّـــدٍ ومـــا مُخـــبرٌ عـــن حالـــةٍ مِثـــلُ شـــاهِدِ
لكـــلِّ يبـــينُ الـــرأيُ عِنـــدَ وفاتِـــهِ وهـــل مِـــنْ دَواءٍ بعـــد نَهـــشِ الأســـاودِ
أَضـــاعُوا وُجـــوهَ الحَـــزمِ يومـــاً فعـــزَّهم علـــى أمـــرِهم مَـــنْ لـــيس عنـــه بهاجـــدِ

– فالثمرة من ساقِها، والجياد على أعراقِها، ولَئِنْ لذَّت تلك الثمرة لذائق، وشَدَخَتْ غُرَّةُ تلك القرحة لرامق؛ لمما يبين كُنهَ المجتنى قبل تفطُّرِ أكمامه، ومما يصحّح عِتقَ الجنين قبل أوان فِطامه؛ فلذوي الأبصار أدلّةٌ على العتق لائحة، ولأولي الألباب شواهدُ على الكرم واضِحة، وبحقٍّ أدركتَ، فعلى السوابقِ سلكتَ، وبمشاعر المعالي نَسكتَ فتنسّكتَ:

«ومـــا يَـــكُ مـــن خـــيرٍ أَتـــوه فإنَّمـــا توارثَـــــهُ آباءُ آبائِهـــــمْ قَبـــــلُ
وهـــل يُنبِـــتُ الخطـــيَّ إلا وشـــيجُهُ وتُغـــرَسُ إلاَّ في منابتهـــا النخـــلُ»[1]

(1) البيتان لزهير بن أبي سلمى.

وقـــولُ رَســـولِ الله أعـــدلُ شـــاهدٍ فحكمتُـــهُ شَـــرعٌ ومَنطِقُـــهُ فَصـــلُ
يقـــول: بنـــو الـــدُّنيا معـــادنُ، خَيرُهـــا إذا مـــا زَكَـوا مَـنْ كـانَ قِـدماً لـهُ الفَضـلُ

وصلَّى الله على رسوله فقد نبَّه بتصحيح، ودلَّ دلالة نصيح؛ فإن المعادن لا تُؤتي غيرَ معهود فِلزّها، كما لا تصحّ الدوائر إلا على نقطة مركزِها، فمن طلب النبلَ في غير معادنه، واستثار الخير من غير مكانه؛ أعجزه من مطلبه مَرامَهُ، وطاشت في سهمته أقلامه، بل قد ضلَّ قَصدَ السبيل، واعتسف الفَلاة بغير دليلٍ، فسقط العشاءُ به على سِرحان، وأفضى القضاء به إلى الطّوفان، وإنما هو الفجر أو البحر».

فلما بلغَ هذا الكتاب المعتضد، بمنثوره ومنظومه، لاطف عمر بن حسن، ودعاه لاستيطان إشبيلية ليكون عضداً له في المعروف وسنداً، وقد أضمر في نفسه خلاف قوله، وسعى إلى أن يقيم في بلده لينال منه في أي وقت شاء.

وبالفعل، صدَّق عمر دعوةَ المعتضد، فقَدِمَ عليه إشبيلية سنة (458 هـ)، فلقيه المعتضد فأعلى محلَّه، وفوَّض إليه المهام عظامها وصغارها، وعوَّل عليه في الحلِّ والعقد؛ ليُدخل الطمأنينة في نفس عمر، ويظنّ أن الصحبة قد عادت إلى سابق عهدها. ولم يدر المسكين أن هناك ناراً تحت الرماد، وأن دعوته المعتضد إلى الجهاد، وتحريضه على الاستعداد؛ هي أعظم سبة في حقِّ المعتضد؛ الذي يؤدِّي جزيةً لملك قشتالة وهو ذليل راغم على ملكه خائف، في الوقت الذي يتعالى ويشمخ على حكام الأندلس وأبناء شعبه!

وقد صبر المعتضد سنتين يُظهر خلاف ما يبطن، حتى كانت ليلة الحادي عشر من ربيع الأول من سنة ستين وأربعمئة؛ فأحضر عمر بن حسن بين يديه، وقد غلب على المعتضد السكر (كما قيل)، وأمر خادمين له بقتله. لكنَّ الخدامين رَفَضَا الأمرَ، وأبيا سَفك دمٍ بريء لرجل عالم مثل عمر!

فاستشاط المعتضد غيظاً، وانقضّ على عمر فقتله بيده، ودفنه داخل القصر بثيابه وقلنسوته، من غير غسل ولا صلاة!

ولكن دمه لم يذهب هدراً، فإنَّ ابناً له يُعرف بأبي القاسم انتقم له بعد ذلك، بأن حَرَّض يوسف بن تاشفين أمير المرابطين على المعتمد بن المعتضد؛ فكان سبباً لزوال مُلكِهِ ودولته.

ابن الأبّار[1]

ترجمته:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن أبي بكر القُضاعي الأندلسي البَلنسي، المعروف بابن الأبَّار. وُلد ببلنسية سنة (595 هـ)، ونشأ فيها، وتخرج على أيد علمائها.

وكان شاعراً وكاتباً بارعاً بليغاً، مما أهَّله ليرأس وَفد بلنسية إلى سلطان تونس أبي زكرياء الحفصي مبايعين ومستصرخين له على ردّ الإسبان؛ وأنشده ابن الأبار سينيّته المشهورة فأجج في نفسه روح الحمية، وأرسل أسطوله لإعانة المدينة المحاصرة، ولكنّ العدو حال دون وصول تلك الإعانة إلى المدينة فسقطت في يدي ملك برشلونة الإسباني سنة (637هـ).

فرحل ابن الأبار عن بلنسية لما احتلها الإسبان، واستقر مع أهله في تونس، فقربه صاحبها السلطان أبو زكرياء، وولاه الكتابة (العلامة) في صدور الرسائل مدة، ثم صرفه عنها، وأعاده.

وارتفعت مكانة ابن الأبار بعد أن تسلَّم المستنصر ابن أبي زكرياء للحُكم.

ولكنَّ كثرة الأندلسيين الوافدين من الأندلس إلى تونس، واحتلالهم للمناصب الرفيعة التي سُلبت من أيدي البلديين؛ جعلت كثيراً منهم ينقمون عليهم، ويحرضون ليوقعوا بهم. وكان نصيب ابن الأبار وافراً من هذا التحريض؛ حيث أُنمي إلى سَمعِ الخليفة المستنصر[2] أن ابن الأبار كان يزري عليه في مجالسه، وعُزيت إليه أبيات في هجائه؛ فأمر به فقُتل قَعصاً بالرماح في تونس سنة (658 هـ).

ومن مؤلفاته وكتبه: التكملة لكتاب الصلة في تراجم علماء الاندلس، والحلة السّيراء في تاريخ أمراء المغرب، وتحفة القادم في شعراء الأندلس، وإعتاب الكتاب.

ومن عيون شعره قصيدته السينية التي أنشدها لأبي زكرياء يحيى الحفصي محرضاً له على نصرة بلنسية، وهي من أجمل ما قيل في رثاء المدن، ويقول فيها:

أَدرِكْ بخيلِكَ خَيلَ الله أندلسا ... إنَّ السَّبيلَ إلى منجاتِها دَرَسَا
وهَبْ لها من عَزيزِ النصرِ ما التمستْ ... فلم يَزلْ مِنكَ عِزُّ النَّصرِ مُلتَمَسا
وحاشِ مِمَّا تُعانيهِ حَشاشتها ... فطالما ذَاقَتِ البلوى صَباحَ مَسَا

---

(1) نَفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب: 2/589-594 و4/457-460، وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: 3/204، وتاريخ الدولتين الحفصية والموحدية: 35-36، والأعلام: 6/223.

(2) بُويع المستنصر الحفصي بالخلافة سنة (657 هـ) بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد سنة (656هـ)؛ اعتماداً على أن الحفصيين يرجعون في النسب إلى أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ.

يا للجزيرةِ أَضحى أهلُها جَزَرَاً   للحادثاتِ وأمسى جَدُّها تَعِسَا
في كلِّ شارقةٍ إلمامُ بائقةٍ   يعودُ مأتَمَها عند العدا عُرُسَا
وكلُّ غاربةٍ إجحافُ نائبةٍ   تثني الأمانَ حذاراً والسرورُ أسى
تقاسمُ الرُّومُ لا نالتْ مقاسمُهم   إلا عقائلَها المحجوبةَ الأُنسا
وفي بلنسيةٍ منها وقرطبةٍ   ما ينسفُ النفسَ أو ما ينزفُ النَّفَسا
مدائنٌ حلَّها الإشراكُ مبتسماً   جذلانَ، وارتحلَ الإيمانُ مُبتَئِسا
وصيَّرتْها العوادي العائثاتُ بها   يستوحشُ الطَّرفُ منها ضِعفَ ما أنسا
فمن دَساكرَ كانت دونها حرساً   ومن كنائسَ كانت قبلها كُنسا
يا للمساجدِ عادتْ للعِدا بِيعاً   وللنداءِ غدا أثناءَها جَرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها   مدارساً للمثاني أصبحت درسا
وأربعاً نَمْنَمَتْ أيدي الرَّبيعِ لها   ما شئتَ من خِلَعٍ موشيةٍ وكِسَا
كانت حدائقُ للأحداقِ مونقةً   فصوَّحَ النضرُ من أدواحِها وعسا
وحالَ ما حولها من منظرٍ عَجَبٍ   يستجلسُ الرَّكبَ أو يستركبُ الجلسا
سرعانَ ما عاثَ جيشُ الكفرِ واحربا   عَيثَ الدَّبا في مغانيها التي كَبسَا
وابتزَّ بزتها مما تحيَّفها   تحيُّفَ الأَسدِ الضَّاري لما افترسا
فأينَ عيشٌ جَنَيناه بها خَضِراً؟   وأينَ عصرٌ جَليناه بها سلسا؟
محا مَحاسنَها طاغٍ أُتيحَ لَهُ   ما نامَ عن هضمِها حيناً ولا نَعِسا
ورجَّ أرجاءَها لما أحاطَ بها   فغادرَ الشُّمَّ من أعلامِها خنُسا
خلا له الجوُّ فامتدَّت يداهُ إلى   إدراكِ ما لم تطأْ رجلاهُ مُختَلِسا
وأكثرَ الزَّعم بالتثليثِ مُنفرداً   ولو رأى رايةَ التَّوحيدِ ما نَبَسا
صِلْ حَبلَها أيُّها المولى الرَّحيمُ فما   أبقى المِراسَ لها حَبلاً ولا مَرسا
وأحيِ ما طَمَستْ منها العُداةُ كما   أحييتَ من دعوةِ المهديّ ما طُمِسَا
أيامَ صرتَ لنصرِ الحقِّ مستبقاً   وبتّ من نورِ ذاك الهدي مُقتَبسا
وقمتَ فيها بأمرِ الله مُنتصراً   كالصَّارمِ اهتزَّ أو كالعارضِ انبجَسا
تمحو الذي كَتَب التجسيمُ من ظُلَمٍ   والصَّبحُ ماحيةٌ أنوارهُ الغلسا
وتقتضي الملكَ الجبارَ مهجَتَهُ   يومَ الوغى جهرةً لا ترقُبُ الخلسا
هذي رسائلُها تدعوك من كثبٍ   وأنتَ أفضلُ مرجوٍّ لمنْ يَئِسَا

وافَتْكَ جَاريةً بالنُّجحِ رَاجيةً ... منك الأمير الرضى والسَّيدَ الندسا
خاضَتْ خَضَارة يُعليها ويُخفِضُها ... عبابهُ فتعاني اللين والشّرسا
وربما سَبِحَتْ والرِّيحُ عَاتيةٌ ... كما طلبتَ بأقصى شَدِّهِ الفَرَسَا
تؤمُّ يحيى بن عبد الواحد بن أبي ... حَفصٍ مُقبِّلةٌ من تربه القُدسا
ملكٌ تقلَّدتِ الأملاكُ طاعتَهُ ... ديناً ودُنيا فغشَّاها الرضى لبسا
مِنْ كُلِّ غَادٍ على يُمناهُ مُستلماً ... وكلّ صادٍ إلى نعماه ملتمسا
مؤيّد لو رَمى نَجمَاً لأثبتهُ ... ولو دعا أُفقاً لبَّى وما احتبسا
تالله إنَّ الذي تُرجى السعودُ لهُ ... ما جالَ في خَلَدٍ يوماً ولا هَجَسا
إمارةٌ يحمل المقدارُ رايتَها ... ودولةٌ عزُّها يستصحب القَعَسا
يبدي النَّهارَ بها من ضوئِهِ شَنَباً ... ويَطلعُ الليلُ مِنْ ظَلمائِهِ لَعَسا
مَاضي العزيمةِ والأيامُ قد نَكلتْ ... طَلقُ المحيَّا ووجهُ الدَّهرِ قد عَبَسا
كأنَّهُ البدرُ والعلياءُ هَالتُهُ ... تحفُّ من حَولِهِ شُهبُ القنا حَرَسا
تدبيرُهُ وَسِعَ الدُّنيا وما وَسِعَتْ ... وعُرْفُ معروفِهِ واسى الورى وَأَسَا
قامتْ على العَدلِ والإحسانِ دَولَتُهُ ... وأنشرتْ من وُجودِ الجودِ ما رُمِسَا
مُبارَكٌ هَديهُ بادٍ سكينتُهُ ... ما قامَ إلاَّ إلى حُسنى وما جَلَسَا
قد نوَّر اللهُ بالتقوى بَصيرتَهُ ... فما يُبالي طُروقَ الخطبِ مُلتبسا
برى العُصاةَ ورَاشَ الطائعينَ فقُلْ ... في الليثِ مُفترساً والغيثِ مُرتجسا
ولم يُغادرْ على سهلٍ ولا جَبلٍ ... حَياً لَقاحاً إذا وافيته بَخَسا
فربَّ أَصيدَ لا تُلفي به صَيَداً ... وربَّ أشوسَ لا تَلقَى لهُ شَوَسَا
إلى الملائكِ يَنمى والملوكُ معاً ... في نبعةٍ أثمرتْ للمجدِ ما غَرسا
من ساطعِ النُّورِ صَاغَ الله جَوهَرَهُ ... وصانَ صَيقلهُ أَنْ يَقربَ الدَّنَسَا
لهُ الثَّرى والثُّريا خُطَّتانِ فلا ... أعزَّ من خطتيهِ ما سَما وَرَسَا
حَسْبُ الذي باعَ في الأخطارِ يَركبُها ... إليهِ محياهُ أن البيع ما وَكسَا
إنَّ السعيدَ امرؤٌ أَلقى بحضرتِهِ ... عصاهُ محتزماً بالعدلِ مُحترِسا
فظلَّ يوطنُ من أرجائِها حَرَماً ... وباتَ يُوقدُ من أضوائِها قَبَسا
بُشرى لعبدٍ إلى البابِ الكريمِ حَدَا ... آمالَهُ ومن العَذبِ المعينِ حَسَا
كأنَّما يَمتَطِي واليُمنُ يَصحَبُهُ ... مِنَ البحارِ طَريقاً نحوهُ يَبَسا

فاستقبلِ السعدَ وَضَّاحاً أسرَّتُهُ | مِن صفحةٍ فَاضَ منها النورُ وانعَكَسا
وقبِّلِ الجودُ طَفَّاحاً غواربُهُ | مِنْ راحةٍ غَاصَ فيها البحرُ وانغَمَسا
يا أيُّها الملكُ المنصورُ أَنتَ لها | عَلياءُ تُوسِعُ أعداءَ الهدى تَعسا
وقد تَواتَرَتِ الأنباءُ أَنَّك مَنْ | يُحيي بقتلِ ملوكِ الصُّفر أَندَلُسا
طَهِّرْ بلادَكَ مِنهُمْ إنَّهم نَجَسٌ | ولا طهارةَ ما لم نَغسِلِ النَّجَسا
وأَوطِئِ الفيلقَ الجرَّار أرضَهُمُ | حَتَّى يُطأطِئَ رأساً كلُّ مَنْ رَأَسا
وانصُرْ عَبِيداً بأقصى شَرقِها شَرقتْ | عُيونُهم أدمعاً تَهمِي زَكا وخسا
هُمْ شِيعةُ الأمرِ وهي الدَّارُ قد نَهَكتْ | داءً متى لم تُباشِرْ حَسمَهُ انتكسا
فاملأْ هَنيئاً لكَ التأييدُ ساحتَها | جُرداً سَلاهبَ أو خَطِّيَّةً دعسا
واضْرِبْ لها مَوعداً بالفتحِ تَرقُبُهُ | لعلَّ يومَ الأعادِي قد أتى وَعَسَى

قصة مقتله على يد المستنصر الحفصي:

تركَ سقوط بلنسية أثراً عميقاً في نفس ابن الأبار، ولئن كان أبو زكريا الحفصي قد أحسن منزله، وسلَّمه عَلامَتَهُ؛ إلاَّ أنه بقي يشعر بنفسه غريباً في مجتمع ينقمُ عليه أصحابه تسلّمه لمنصب هم أحق الناس به — في نظرهم. وقد ولَّد هذا الشعور في نفسه نقمةً وجرأةً على أيّ إنسان ينتقده أو يسلبه شيئاً مما خُصّ أو مُنِحَ أياً كان هذا الإنسان، ولو كان السلطان الحفصي نفسه!

وهذا ما حصل بالفعل، فلمَّا قَدِمَ ابن الأبار إلى تونس مستوطناً بعد سقوط بلنسية أعظم السلطان الحفصي مَقدمه، وجعله كاتب علامته وتوقيعاته. فلبث على ذلك مدة، ثم جعل السلطانُ أبا العباس أحمد بن إبراهيم الغساني مكانَهُ في هذا المنصب؛ فاستاء ابن الأبار من تجريده من هذا المنصب، وأنِفَ من إيثار غيره عليه، وهو مَنْ هو علماً وأدباً وبلاغةً! وانقلبت النقمة إلى مجاهرةٍ بالنقد للسلطان علانيةً، ولم يرعوِ ولم يهدأ، بل أنشد في غَضبته قول المتنبي:

اطلبِ العزَّ في لظًى وذرِ الذُّ | لَّ ولو كانَ في جِنانِ الخلودِ

فبلغَ السلطان قول ابن الأبار، ونقده لفعله؛ فأمره بلزوم بيته، وعدم الخروج منه.

فلما جلس ابن الأبار مع نفسه أدرك سوء قوله وعمله، وأن لا دارَ له بعد فقده بلنسية إلا تونس، وخشي أن يُنفى منها، فعاد إلى صوابه، فأخذ يعتذر من السلطان بقوله:

لمبشِّري برضاكَ أن يتحكَّما | لا المالَ أستثني عليهِ ولا الدَّما
ندمي على ما ندَّ مني دائمٌ | وعلامة الأوَّابُ أن يتندَّما

وشرع يستعتب السلطان ويعتذر له بتأليف كتاب ضمَّنهُ عدّ مَنْ عوتب من الكُتاب، وما قالوه في اعتذارهم، ليكون قولهم سبيلاً إلى قلب السلطان علَّه يغفر له زلَّته. وسمَّى ذلك الكتاب: إعتاب الكتَّاب.

وقد سعى في الشفاعة لدى السلطان ابنه وولي عهده أبو عبد الله محمد، فلما غفر له السلطان زلته أعاده إلى الكتابة.

وزادت مكانة ابن الأبار في عهد الخليفة المستنصر ابن أبي زكرياء الحفصي، ولكن زيادة المكانة قابلها زيادة في الطعن به، والحطّ من شأنه، ولا سيما من قِبَل الوزير ابن أبي الحسين. وزاد من تركّز سهام خصومه وحساده عليه كونه لا عُصبةَ له، غريباً في ديار حلَّها بعد سقوط بلده؛ فنَفَس عليه القوم ما حازه بفضله من مكانة، وما ارتفع من منزلة؛ فسعوا به عند المستنصر.

وقد أعانهم ابن الأبار على نفسه بحدَّة طبعه الناشئة عن الغربة وألم فقد الوطن؛ فهو لا يرى بلاداً كالأندلس، ولا ولاةَ أمرٍ كحُكَّامها!

وقد أثَّر كلّ ما قيل في نفس المستنصر؛ فكان يعرف فضله فقط إذا ورد عليه بيت ملغز أو عَلَمٌ جُهلتْ تَرجمَتُهُ، أما إذا حضر إليه في مجلسه فكان يتجاهله ولا يلتفت إليه، ولا يعيره أذناً، وهذا ما جعل ابن الأبار يعبر عن ذلك بقوله:

أَمـــــــري عَجيـــــــبٌ في الأمـــــــورِ	بَـــــــينَ التَّـــــــوارِي والظُّهـــــــورِ
مُســــــــتَعمَلٌ عنـــــــدَ المغَيَّـــــــ	ـــــبِ ومُهمَـــــلٌ عنـــــدَ الحضـــــورِ

وقال يشكو هذا الزمان الذي دال عليه:

تحيَّـــــف حــــالتي حيــــف الزمــــانِ	وصــــدقُ اليــأسِ مــن كــذبِ الأمــاني
وبــــــرَّت في أَليَّتِهــــــا اللَّيــــــالي	بترويعــــــي فــــــإِنِّي بالأمــــــانِ
أمـــا قَنِعَـــتْ وقـــد كَلِفَـــتْ بِهَضْـــمِي	وَضَـــــيْمِي دُونَ أَبنَـــــاءِ البَيَـــــانِ
أحـــــاولُ أنْ أَقـــــومَ لِمَـــــا يُـــــواتِي	فتقعـــــدُني الخطـــوبُ بِـــلا تَـــوانِي
وأطبــــاقُ الثَّـــــرى بالحـــرِّ أَحـــرَى	إذا ألفـــى الثَّـــراءُ مـــن الهـــوانِ
فهــــل مِــــنْ آخــــذٍ بِيَــــدِي أَخيــــذٍ	بعــــينِ الله شـــــدّة مـــــا يُعــــاني
ومـــا أبغـــي علـــى تلفـــي دلـــيلاً	كفـــاني أنَّـــني حَـــيٌّ كَفَـــاني

وقال أيضاً:

عَلَـــتْ سِـــنِّي وقَـــدرِي في انخفَـــاضِ	وَحُكـــمُ الــرَّبِّ في المربـــوبِ مَـــاضِ
إلى كَـــمْ أســـخطُ الأقـــدارَ حَـــتَّى	كـــأنِّي لم أَكُـــنْ يَومـــاً بِراضِـــي

وحاول ابن الأبار أنْ يستعيدَ مكانته من المستنصر؛ فحانت له ـ في نظره ـ فرصةٌ، حيث إنه سمع المستنصر يسأل مَنْ حضره عن مولد ولده الواثق، فغدا إليه في اليوم التالي برقعة فيها تاريخ الولادة وطالعها الفلكي. فلما رآها المستنصر استشاط غضباً من فضوله وتطفّله. وكانت وشايات الحساد قد أوغرت صدره، وزاد على ذلك اتهامه ـ بعد هذه الحادثة ـ بتوقع المكروه للدولة، ونظره في النجوم، وادعاؤه به معرفة الغيب؛ فما كان من السلطان إلا أن أمر بالقبض عليه، ومصادرة جميع كتبه ومؤلفاته، وعَهِدَ إلى غريمه الكاتب أحمد بن إبراهيم الغساني بتفتيش كتبه للبحث على إثبات يدل على نقده الشديد للدولة ممثلة بشخص المستنصر.

وخلال البحث، عُثِر ـ كما يُزعم ـ على رقعة فيها هجاء المستنصر، كقوله:

طَغـــــــى بتـــــــونسَ خَلـــــــفٌ سَمَّـــــــوهُ ظلمـــــــاً خَليفـــــــهْ

وقوله:

عَـــــــقَّ أباهُ وجفـــــــا أمَّـــــــهُ ولم يُقـــــلْ مـــــن عشـــــرةٍ عمَّـــــهُ

كما عُثر في كتاب سمَّاه «كتاب التاريخ» على ما يُسيء إلى المستنصر، فَغَضِب عليه، وأمر بضربه بالسِّياط، وقتله قَعصاً بالرماح، ثم أُحرق شلوه، وأحرقت معه جميع كتبه ودواوينه، وذلك صبيحة الثلاثاء في الحادي والعشرين من المحرم سنة (658 هـ).

ويقال: إن المستنصر لم يقتله إلا خوفاً منه أن يكون قد خطّط لقلب الحكم عليه!

الفصل الثاني

الشعراء المُعاقبون

بشر بن أبي خازم(1)

ترجمته:

هو بشر بن أبي خازم ـ واسمه عمرو ـ بن عوف الأسدي الوالبي. قد عاش في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، وتوفي نحو (598 م).

شارَكَ قومه بني أسدٍ في حروبهم ضد بني عامرٍ، ولا سيما يومي النِّسار والجفار؛ شعراً وسيفاً، وتفاخر بانتصاراتهم. ولعل أعظم مَفخرٍ لقبيلته قَتلها لملك كِندة حجر بن الحارث والد امرئ القيس الشاعر، الذي لطالما تغنى به شاعرنا.

هجا أوس بن حارثة الطائي لأسباب مالية وقبلية، فجرَّ ذلك عليه الويل؛ حيثُ لاحقهُ أوسٌ حيث حلَّ، حتى وقع في يديه، ثم منَّ عليه فأطلقه ووصلهُ، فلهج لسان بشر بالثناء عليه، ومحا أهاجيه فيه بمدائح، إنصافاً له.

ولأنَّ حياة الفرسان في الجاهلية قائمة على الحروب والغارات، كانت حياتهم محفوفة بالمخاطر، وعرضةً للهلاك؛ وهذا ما حصل مع شاعرنا، حيث كان في إحدى غاراته على بني صعصعة، فأُصيب في غارته، ومات (2).

قصته مع أوس:

إنِّ هجاءَ بشر لأوس بن حارثة الطائي كاد يقضي عليه، حيث أثارَ عليهِ شريفاً مرموق المكانة بسبب شيء من المال، ولكنَّ حكمة أم أوسٍ وانقياده للحق أنقذه من الهلاك بعد أن قاربه، ومنَّ عليه أوس بالعفو والحبو، فما كان من بشر إلا أن مدح معتقه، وأزالَ عنه خطيئته.

ولكنْ، لكل قصةٍ بداياته، فكيف بدأت قصتنا، وتمادت إلى هجاء بشر لأوس، ثم مطاردة له، ثم عفو عنه لما تمكَّنَ منه؟

لا بدَّ أن نعلمَ أن أوس بن حارثة بن لأم الطائي كان سيِّداً مطاعاً في قومه، وجواداً مقداماً، وكان بيته بيت سعد بن قُطرة بن طيِّئ في تنافس على المجد والسؤدد مع بيت حاتم الطائي بيت عمرو بن الغوث بن طيِّئ.

---

(1) الكامل في اللغة والأدب: 301-303، والكامل في التاريخ: 1/561-563، وخزانة الأدب: 4/442-445، والشعر والشعراء: 1/262-263، والأعلام: 2/54.

(2) انظر خبر مقتله في أسماء المغتالين (نوادر المخطوطات): 2/232-233.

وذات يوم، وفد أوس وحاتم الطائي على عمرو بن هند، فدعا عمرو أوساً فقال له: أنت أفضلُ أم حاتم؟

فقال: أبيتَ اللعنَ! إنَّ حاتماً أَوحدُها وأنا أَحَدُها، ولو مَلَكَني حَاتِمٌ وولدي ولُحمتي لَوَهَبنا في غَداة واحدة.

ثم دعا عمرٌو حاتماً فقال له: أنت أفضلُ أم أوسٌ؟

فقال: أبيتَ اللعن! إنما ذَكرتَ أوساً ولأحدُ ولده أفضلُ مني. فاستحسن ذلك منهما وحباهما وأكرمهما.

وهذا الخبر يبين بذور التنافس بين هذين البطنين من طيئ حتى إنَّ ملك الحيرة العالم به حاول إثارته ليعرف مدى احترام كلٍّ من الرجلين للآخر، وقد أثبت الرجلين رجاحة عقليهما، وسموّ نفسيهما؛ حين تعاليا عن التفاخر الأعمى، واعترف كلّ بفضل صاحبه، بل وقدَّمه على نفسه.

حتَّى جاء عهد النعمان بن المنذر، فقدمتْ عليه وفود العرب، وكان فيهم أوس بن حارثة، فخرج عليهم النعمان بحلّة من حلل الملوك مرصعة فائقة الجمال، فجعل الناس يتعجَّبون من حسنها وبراعة صانعها، وجمال لابسها، إلا أوساً، فإنه لم يلتفت لها، وأعارَ سمعه وبصرَهُ الملك دون ثيابه. فلما رأى الملك ذلك قال للوفود: احضُروا في غدٍ فإنِّي مُلبسٌ هذه الحلَّةَ أَكرَمَكُم.

فلما كان الغد حَضَرَ القوم جميعاً إلا أوساً، فقيل له: لِمَ تَتَخلَّفُ؟

فقال: إنْ كان المراد غيري فأجملُ الأشياء بي ألاَّ أكون حاضراً، وإن كنتُ المراد فسأُطلَبُ، ويُعرفُ مكاني.

فلما جلس النعمان ولم ير أوساً، سألَ عنه، فأُخبرَ بخوفه من ألاَّ يكونَ صاحب الحلة، وهو المعتزّ بنفسه وكرمه، وإنْ كانت له فسيطلب لها، فقال الملك: اذهبوا إلى أوس فقولوا له: احضر آمناً مما خفت.

فحضر، فأُلبس الحلة. فحسده قوم من أهله الطائيين، وعجبوا كيف يتمّ تزكية أوس وبيته على حساب بقية البيوت الطائية، وأحرق التكريم أكبادهم، فأرادوا إطفاء نيران حسدهم بالبحث عن شاعرٍ هجاءٍ ليسقِّه من شأن أوس، ويحطّ من مكانته، ولكن من خارجِ طيئ، ومن أعدائها حتى لا يشكَّ بهم، ولا يظهر غيظهم لأوس، فلم يجدوا خيراً من الشاعر الحطيئة العبسي، الناقم على الواقع الجاهلي، فقالوا للحطيئة: اهجه ولك ثلاثمئة ناقة.

ولكنَّ الحطيئة لم يستجب لطلبهم ولا لإغرائهم . وهي الشاعر السَّؤول . لأنَّ أوساً أسره مرَّةً، ثم أطلق سراحهُ من غير فداء، فرأى أن مجازاته على كرمه معه وفضله جحودٌ لا يليق به، وقال لهؤلاء الناس: كيف أهجو رجلاً لا أرى في بيتي أثاثاً ولا مالاً إلا منه. ثم أنشد(1):

كيــفَ الهجــاءُ ومــا تنفــكُّ صــالحةٌ مِــنْ أَهــلِ لأْمٍ بِظهــرِ الغَيــبِ تَأتِيــنِي

جــادتْ لهُــمْ مُضــرُ العليــا بمجــدِهِمُ وأحــرزُوا مَجــدَهُمْ حِينــاً علــى حــينِ

فلما بلغَ بشرٌ الأسدي سَعيهم للحطِّ من مكانة أوس، استجاب للقوم، وقال لهم: أنا أهجوه لكم. فأعطوه النوق، وهجاه فأفحش في هجائه، وذكر أمه سعدى.

ولم يكن هجاؤهُ لأوسٍ محصوراً على رغبته في النوق فقط، بل لأنَّ تكريم النعمان لأوس على مشهد من العرب قد حرَّك الأحقاد النائمة في كل القبائل، وليس في طيئ وحدها، سواء في ذلك الوفود التي كانت حاضرة، أو من كان غائباً. ونذكر على سبيل المثال بنو بدر رؤساء بني فزَارة، وهم أعرق بيت في قيس عيلان، فقد عدّوا ذلك مَنقصة لهم ونسياناً لفضلهم من ملكٍ قحطاني حين كرَّم رجلاً قحطانياً مثله. ومما زاد الطين بلّة أن أوساً هو ألدّ أعدائهم؛ لأنّه أسر مرةً نفراً من بني بدر، فجزَّ نواصيهم، وأطلقهم من غير فداء، وهذا في عرف الجاهلية حطٌ من المكانة؛ لأن الجزّ يذكر بالعبد المحرَّر من رقّ العبودية!

فربَّما اجتمع في نفس بشرٍ طمعان: طمع في الجائزة الكبيرة، وطمع في الحطّ من مكانة أوس، لتعرّضه . سابقاً . لبني بدر الفزاريين، وهم حلفاء بني أسد.

وهجا بشر أوساً بست قصائد، وهي بحسب أحرف الهجاء:

1- قال بشر(2):

تَعَــنَّى القَلــبَ مِــنْ سَــلمى عَنَــاءُ فمــا للقلــبِ مُــذْ بانُــوا شِــفاءُ(3)

هــدوءاً ثم لأياً مــا اســتقلّوا لــوجهتهمْ وقــد تَلــعَ الضَّــحاءُ(4)

وآذن آلُ ســلمى بارتحــالٍ فمــا للقلــبِ إذ ظَعَنُــوا عَــزَاءُ

أُكــاتِمُ صــاحِبي وَجــدي بســلمى ولــيس لوجــدِ مُكتَــتِمٍ خَفــاءُ

فلمَّــا آذَنُــوا ذَرَفَــتْ دُمــوعِي وجَهــلٌ مــن ذوي الشَّــيبِ البِكــاءُ

(1) ديوان الحطيئة: 174-175.

(2) ديوانه: 55-58.

(3) تعنى القلب: لزمه. والعناء: المشقة.

(4) هدوءاً: حين هدأت العيون: أي نامت. والضحاءُ: الضحا. وتلع: ارتفع.

كأنّ حمولهمْ لما استقلوا ... نخيلُ محلِّمٍ فيها انحناءُ[1]
وفي الأظعانِ أبكارٌ وعُونٌ ... كعِينِ الرَّملِ أوجُهُها وِضاءُ
عفا منهنَّ جِزعُ عَرَيْتِنَاتٍ ... فصارةُ فالفوارعُ فالحِساءُ
فيا عجبا عجبتُ لآلِ لأْمٍ ... فليسَ لهمْ إذا عَقَدُوا وَفاءُ
مجاهيلٌ إذا نُدبُوا لجهلٍ ... وليس لهم سوى ذاكُمْ غَناءُ
وأنكاسٌ إذا استعرتْ ضَرُوسٌ ... تخلَّى من مخافَتِها النِّساءُ[2]
حلفتُ لتأتينَّهمُ قوافٍ ... لها منْ بعدِ هُلكِهِمُ بقاءُ
فإنَّكم ومِدحتَكم بجيراً ... أبا لجأٍ كما امتُدِحَ الألاءُ[3]
يراهُ النَّاسُ أخضرَ من بعيدٍ ... ويمنعُهُ المرارةُ والإِباءُ[4]
كذلكَ خِلْتُهُ إذْ عقَّ أوساً ... وأدركَهُ التَّصعلكُ والذَّكاءُ
فيا عَجَبا! أيُوعِدُني ابنُ سُعدَى ... وقد أبدى مساوِئَهُ الهِجاءُ
وحولي من بني أسدٍ حُلولٌ ... كمثلِ الليلِ، ضَاقَ بها الفضاءُ
همُ وردُوا المياهَ على تميمٍ ... كوردِ قطاً نَأَتْ عنهُ الحِساءُ[5]
فظلَّ لهم بنا يومٌ طويلٌ ... لنا في عرضِ حوزتهم نداءُ[6]
وجمعٍ قد سموتُ لهم بجَمعٍ ... رحيبِ السَّربِ ليس لهُ كِفاءُ
لُهامٍ ما يرام إذا تهافى ... ولا يُخفي رقيبَهم الضَّراءُ[7]
له سَلفٌ تَنِدُّ الوَحشُ عنهُ ... عريضُ الجانبين له زُهاءُ
صبحناهُ لِنلبسهُ بزَحْفٍ ... شديدِ الرّكنِ ليسَ لهُ كفاءُ[8]
بشيبٍ لا تخيمُ عن المنادِي ... ومُردٍ لا يُرَوِّعُها اللّقاءُ

---

(1) الحمول: الإبل التي عليها النساءُ. محلم: نهر بالبحرين. فيها انحناء: أي مائلة الأعذاق.

(2) الأنكاس: الذين لا خير فيهم الجبناء البخلاء؛ وأصله من السهم إذا قلبَ نصله مكان فوقه. استعرت: توقَّدت. والضّروس: الحرب. ويقال للناقة السيئة الخلق ضَروس إذا كانت تعض من دنا إلى ولدها. تخلى من مخافتها: أي تظهر من الفزع.

(3) الألاء: شجر الدفلى؛ وله رواءٌ ومنظرٌ حسنٌ. وأبو لجأ: هو بجير بن أوس بن حارثة.

(4) الإباء: مصدر أبى إباء؛ الكراهة، أي أنه يخشى على ما يأكله من الدواب أن يوبأ.

(5) الحساء: جمع الحسي؛ وهو سهل من الأرض يستنقع فيه الماء.

(6) حوزتهم: ناحيتهم. وعرضها: جانبها.

(7) تهافى: خفَّ وأسرع. الرقيب: الطليعة. الضراءُ: ما واراكَ من شجر. ومثله الخمر.

(8) لنلبسه: لنخلطه. الزَّحفُ: الجيش. الرُّكنُ: الجانب. الكِفاءُ: المثلُ.

علـــى شُـــعثٍ تَخُـــبُّ علـــى وَجاهـــا   كمـــا خَبَّـــتْ مُجَوَّعـــةٌ ضِـــراءُ[1]

2- وقال أيضاً[2]:

تغـــــيَّرتِ المنـــــازلُ بالكَثيـــــبِ   وعفَّـــى آيَهـــا نسَـــجُ الجَنُـــوبِ
منـــازلُ مـــن سُـــليمى مُقفـــراتٌ   عَفاهـــا كـــلُّ هطَّـــالٍ سَـــكوبِ
وقفـــتُ بهـــا أُســـائلها ودَمعـــي   علـــى الخَـــدَّينِ في مِثـــلِ الغُـــروبِ[3]
نأتْ ســـلمَى وغيَّرهـــا التَّنـــائي   وقـــد يســـلُو المحـــبُّ عـــنِ الحبيـــبِ
فـــإنْ يـــكُ قـــد نأتـــني اليـــومَ سَـــلمى   وصـــدَّتْ بعـــدَ إلـــفٍ عـــن مشـــيبي
فقـــد ألهـــو إذا مـــا شـــئتُ يومـــاً   إلى بيضـــاءَ آنســـةٍ لَعـــوبِ
ألا أبلـــغْ بـــني لأْمٍ رَســـولاً   فبـــئسَ محـــلُّ راحلـــةِ الغريـــب
لضـــيفٍ قـــد ألمَّ بهـــا عشـــاءً   علـــى الخَســـفِ المبـــيِّنِ والجُـــدُوبِ
إذا عقـــدُوا لجِـــارٍ أخفـــرُوهُ   كمـــا غـــرَّ الرِّشـــاءُ مـــن الـــذَّنُوبِ[4]
ومـــا أوسٌ ولـــو ســـوَّدتُموهُ   بمخشـــيِّ العُـــرامِ ولا أَريـــبِ[5]
أتُوعـــدني بقومِـــكَ يا بـــنَ سُـــعدَى   وذلـــكَ مـــن مُلمَّـــاتِ الخُطـــوبِ
وحـــولي مـــنْ بـــني أســـدٍ حلـــولٌ   مـــبنٌّ بـــينَ شُـــبَّانٍ وشِـــيبِ[6]
بأيـــديهِمْ صَـــوارمُ للتَّـــداني   وإنْ بَعُـــدُوا فوافيـــةُ الكُعـــوبِ
هـــم ضـــربوا قـــوانسَ خيـــلِ حِجـــرٍ   بجنـــبِ الـــرَّدهِ في يـــومٍ عَصـــيبِ[7]
وهـــم تركُـــوا عتيبـــةَ في مَكَـــرٍّ   بطعنـــةِ لا ألـــفَّ ولا هَيـــوبِ[8]
وهـــم تركُـــوا غـــداةَ بـــني نُمـــيرٍ   شُـــريحاً بـــين ضِـــبعانٍ وذِيـــبِ
وهـــم ورَدُوا الجِفـــارَ علـــى تمـــيمٍ   بكـــلِّ سميـــدعٍ بطـــلٍ نَجيـــبِ

---

(1) الوجا: أن يَجِدَ الفرسُ في حافره وجعاً يَظلعُ منهُ.
(2) ديوانه: 70-72.
(3) الغُروب: جمع الغَرب؛ وهو الدلو العظيمة. يقول: كأن دمعي من جريه في غربين.
(4) أخفرتُ الرجلَ: نقضتُ عهده. وأخفرته: جعلتُ معه خفيراً. وخفرته: أجرته، وهي الخفارة. غرَّ: قطع. الذَّنوب: الدلو.
(5) العرام: الشرُّ. الأريب: العاقل.
(6) مبنّ: مقيم.
(7) حِجر: هو حِجر بن الحارث والد امرئ القيس الشاعر.
(8) عُتيبة: هو عتيبة بن الحارث بن شهاب، طعنه ذؤابٌ الأسدي. والألفّ: الثقيل، وفي لسانه لَفف؛ أي ثِقل.

وأفلــــتَ حاجـــــبٌ تحـــتَ العـــوالي ... علـــى مثـــلِ المولَّعـــةِ الطَّلـــوبِ[1]

وحــــيَّ بــــني كـــلابٍ قـــد شَـــجرْنا ... بأرمـــــاحٍ كأشــــطانِ القَليـــــبِ

إذا مـــا شمـــرتْ حـــربٌ سمـــونا ... سمـــوَّ البُـــزْلِ في العطـــنِ الرَّحيـــبِ[2]

3- وقال[3]:

إنَّـــــكَ يا أوسُ اللئـــــيمُ مُحْتِـــــدُهْ

عَبَـــدٌ لِعبـــدٍ في كـــلابٍ تُســـنِدُهْ

مُعَلْهَـــجٌ فـــيهم خبيـــثٌ مَقعـــدُهْ[4]

إذا أتاهُ ســـــــائِلٌ لا يَحمـــــــدُهْ

مِثـــلَ الحِمـــارِ في حمـــيرٍ تَرفـــدُهْ

واللّـــؤمُ مَقصـــورٌ مُضـــافٌ عَمَـــدُهْ

4- وقال[5]:

ألا قَبُحـــــــتْ خفـــــــارةُ آل لأمٍ ... فـــلا شـــاةً تـــرُدُّ ولا بعـــيرا

لِئـــامُ النـــاسِ مـــا عاشـــوا حيـــاةً ... وأنتـــــنُهم إذا دُفِنُـــــوا قُبـــــورا

وأنكـــاسٌ غـــداةَ الـــرَّوعِ كُشْـــفٌ ... إذا مـــا البـــيضُ خَلَّـــيْنَ الخـــدورا

ذُنابى لا يَفـــــون بعقـــــد جـــــارٍ ... ولـــيس يَنعَشُـــون لهـــم فقـــيرا

إذا مـــا جئـــتَهم تَبغـــي قِـــراهم ... وجـــدتَ الخـــيرَ عنـــدهم عَســـيرا

فمَـــنْ يـــكُ جـــاهلاً مِـــنْ آل لأْمٍ ... تَجـــدني عالِمـــاً بِهِـــمُ خبـــيرا

جَعلـــتمْ قـــبرَ حارثـــةَ بـــنَ لأمٍ ... إلهـــاً تَحلفـــونَ بـــه فُجـــورا

فقُولـــــوا للـــــذي آلى يمينـــــاً: ... أفيَّ نَـــــــذَرتَ يا أوسُ النّـــــــذُورا

فباسْـــتِكَ حـــارَ نَـــذْرُكَ يا بـــنَ سُـــعدى ... وحُـــقَّ لِنـــذرِ مِثلـــكَ أنْ يَحُـــورا

إذا مـــا المكرُمـــات رُفعـــنَ يومـــاً ... مَـــدَدْتَ لِنيلهـــا باعـــاً قَصـــيرا

---

(1) المولّعة: العقاب فيها سوادٌ وبياض. الطَّلوب: التي تطلب الصيد.

(2) البُزل: جمع البَزول؛ وهو البعير إذا بلغ التاسعة من عمره، وبزل نابه؛ أي شقّ وطلع، وذلك حين استكمال قوته. العَطَن: مَبرك الإبل.

(3) ديوانه: 100.

(4) المعلهج: الدّعي الذي ليس بخالص النَّسب.

(5) ديوانه: 122-124.

غَدرتَ بجارِ بيتِكَ يا بنَ لأْمٍ ... وكُنتَ بمِثلِ فَعلتِها جَديرا

فلو لاقيتني لَلَقيتَ قِرناً ... لِنارِ الحربِ إذْ طَفِئتْ سَعورا

سَمَونا لابن أُمِّ قَطَامِ حتَّى ... عَلونا رأسَهُ البيضَ الذُّكورا[1]

وأوجرنا عُتيبةَ ذات خُرصٍ ... تخالُ بنَحرِهِ مِنها عَبيرا[2]

وصدَّعْنَ المشاعبَ من نُميرٍ ... وقد هتَّكْنَ مِنْ كَعبٍ سُتورا

وَمِلْنا بالجِفارِ على تميمٍ ... غَدَاةَ أتينَهمْ رَهواً بُكورا

شَجَرْناهُمْ بأرماحٍ طِوالٍ ... مُثقّفةٍ بها نَفري النّحورا

وَفِئنَ غداةَ زُرنَ بني عُقيلٍ ... وقد هدَّمْنَ أبياتاً وَدُورا

وسَعداً، وقد ضَرَبْنا هامَ سَعدٍ ... بأسيافٍ يُقصِّمْنَ الظّهورا

فلو عايَنْتَنا وبني كلابٍ ... سَمِعْتَ لنا بعقوتِهمْ زَئيرا

وكمْ منْ جَمعِ قومٍ قد تَرَكْنا ... ضِباعَ الجوِّ فيهم والنّسورا

5- وقال[3]:

ألا تَفدي رُغاءَ البَكرِ أوساً ... بسوطٍ من هجائي يا بُجيرُ[4]

وسوطٌ كان أهونَ من قوافٍ ... كأنَّ رِعالهُنَّ رِعالُ طَيرِ[5]

6- وقال[6]:

أهمَّتْ منكَ سلمى بانطلاقِ ... وليسَ وِصالُ غانيةٍ بباقي

تغيَّرَ عَسعسٌ منها فَشرْقٌ ... فأينَ مِنَ ال سَماكَ التَّلاقي

غَداةَ تبسَّمتْ عن ذي غُروبٍ ... لذيذٍ طَعمُهُ عَذبِ المذاقِ

مُقلَّدةٌ سُموطاً مِنْ فريدٍ ... يَزينُ الجِيدَ مِنها والتَّراقي

---

(1) ابن أمّ قطام: هو حِجر بن الحارث والد امرئ القيس الشاعر. البِيض: جمع الأبيض؛ وهو السيف. الذُّكور: جمع الذَّكر؛ وهو السيف الحاد المصنوع من ذكر الحديد، وهو أيبس الحديد وأشدّها وأجودها.

(2) أوجره الرّمح: طعنه به في فِيه. ذات خرص: رمح ذو سنان.

(3) ديوانه: 100.

(4) بجير: هو ابن أوس.

(5) الرِّعال: جمع رِعلة؛ وهي القطعة من الخيل ليست بالكثيرة، وسرب القطا والطير.

(6) ديوانه: 177-181.

هَضيمِ الكَشحِ ما غُذيتْ ببؤسٍ ... ولا مَدَّتْ بناحيةِ الرِّباقِ(1)

على أنْ قدْ أُسلِّي الهمَّ عنّي ... بِناجيةٍ من الأُدمِ العِتاقِ

عُذافرةٍ يَئِطّ النِّسعُ فيها ... إذا ما خبَّ رَقراقُ الرِّقاقِ(2)

مُذكّرةٍ، كأَنَّ الرَّحلَ منها ... على ذي عانةٍ وافي الصِّفاقِ(3)

ألظَّ بهنَّ يحدُوهُنَّ حتَّى ... تبيَّنَ حُولَهُنَّ من الوِساقِ

فإنّي والشَّكاةَ من الِ لأْمٍ ... كَذاتِ الضِّغنِ تمشي في الرِّفاقِ(4)

سأرمي بالهجاء ولا أَفيهِ ... بني لأْمٍ، وللمَوقِيِّ واقي

وسوف أخصُّ بالكلمات أوساً ... فيلقاهُ بما قدْ قُلتُ لاقي

إذا ما شئتُ نالكَ هاجراتي ... ولم أُعمِلْ بِهنَّ إليكَ ساقي

قوافٍ عُرَّمٌ لم يَسبقُوها ... وإنْ حلُّوا بسلمى فالوراقِ

أُجهّزُها، ويحملُها إليكُمْ ... ذوو الحاجاتِ والقُلُصُ المِناقي(5)

فإذْ جُزَّتْ نواصي آل بَدرٍ ... فأدُّوها وأسرى في الوَثاقِ

وإلاَّ فاعلموا أنَّا وأنتُمْ ... بُغاةٌ ما حَيينا في شِقاقِ

وخيلٍ قدْ لَبِسْنَاها بِخَيلٍ ... نُساقيها كذلكَ ما تُساقي

ونحنُ أُولى ضَرَبنا رأسَ حُجرٍ ... بأسيافٍ مُهنَّدةٍ رِقاقِ

ومِلنا بالجِفارِ على تميمٍ ... على شُعثٍ مُسوَّمةٍ عِتاقِ

فلما بلغ أوساً أهاجي بشرٍ أغارَ على النوق فاكتسحها، وألحَّ في طلبه وترصّده، فهرب منه، والتجأ إلى بني أسد عشيرته، فمنعوه منه، ورأوا تسليمه إليه عاراً.

---

(1) هضيم الكَشح: دقيقة الخصر. الرِّباق: جمع الرِّبقة؛ وهي الحبل والحلقة تشد بها البهائم.

(2) العذافرة: الناقة الصلبة الشديدة الوثيقة. يئط: يصوّت ويُسمع له صرير عند السير. الرّقاق: جمع الرِّقّة؛ وهي كل أرض إلى جنب وادٍ منبسطٍ عليها الماء أيامَ المد، ثم ينحسر عنها، فتكون مكرمة للنبات.

(3) ذو عانة: يريد حمار الوحش. والعانة: القطيع من حُمر الوحش. الصِّفاق: الجلد الباطن الذي يلي سواد البطن، وهو دون الجلد الذي يُسلخ. ووافي الصّفاق: يريد أن ضلوعه طوال جداً.

(4) ذات الضغن: الناقة التي في قلبها نزاع إلى وطنها. الرِّفاق: حبل يُشدّ من الوظيف إلى العنق، أو من العنق إلى المرفق؛ إذا خِيف على الناقة أن تنزع إلى وطنها، فيمنعها من الإسراع.

(5) القُلُص: جمع قَلوص؛ وهي الفتية من الإبل. المناقي: جمع مُنقية؛ وهي الناقة السمينة ذات الشحم؛ من النّقي: وهي الشحم أو المخّ.

فجمع أوس جديلة طيئ، وسار بهم إلى أسد، فالتقوا بظهر الدهناء تِلقاء تيماء، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت بنو أسد، وقُتلوا قتلاً ذريعاً. وهرب بشر، فجعل لا يأتي حَياً من أحياء العرب يطلب جوارهم إلا امتنع من إجارته على أوس.

ثم غزا بشر بن أبي خازم طيئاً، فأغار على بني نبهان، فجُرِحَ فأُثخِنَ، وهو يومئذ يحمي أصحابه. فأسره بنو نبهان، فخبؤوه كراهة أن يبلغَ خبره أوس بن حارثة، فسمع أوسٌ أنه عندهم فكتموه؛ فآلى أن يدفعوه إليه، وكانوا يخافون أن يقتله.

فلما أبوا عليه أعطاهم مئتي بعير، وأخذه وأدخله في جلدِ بعير حين سلخهُ. وقيل: في جلد كبش. ثم تَرَكَهُ حتى جفَّ عليه، فصار فيه كأنه عصفورٌ.

فبلغ ذلك أمه سُعدى بنت حصن، وهي من طيئ من سادتهم، فخرجت إليه، فقالت: ما تريدُ أن تصنعَ؟

فقال: أَحرِقُ هذا الذي شَتَمَنا.

فقالت: قَبَّح الله قَوماً يسوِّدونكَ أو يقتبسونَ من رأيك! واللهِ لكأنما أخذت به رَهدَناً(1)، أما تعلم ما مَنزِلَتَهُ في قومه؟ أو ما تَعلَمُ أنَّه هجاك في بني بدر! خَلِّ سبيلَه وأكرمه؛ فإنه لا يَغسِلُ عنك ما صَنَعَ غيرُهُ، وايم اللهِ لو فعلتَ ما اسْتَقَلْتَها أنت ولا قومُك أبداً.

فاحتبسه عنده، وداوى جراحه، وكَتَمَهُ ما يريد أن يصنع به، وقال: ابعث إلى قومك ليفدوك؛ فإني قد اشتريتك بمئتي بعير.

فأرسل بشرٌ فهيئوا له الفداء، وبادرهم أوس، فأحسن إليه، وكساه اليُمنة وغيرها، وحمله على نجيبه الذي كان يركب، وسار معه حتى إذا بلغ أداني غطفان مَنَّ عليه أوس وأطلقه، ورَدَّ عليه ما كان أَخَذَ منهُ، وأعطاه من ماله مئةً من الإبل، فقال بشر: لا جرمَ لا مدحتُ أحداً، حتى أموتَ، غيرَك. وعاهد أوساً على محو ما هجاه فقال:

وإنّي سأمحو بالَّذي أنا قائلٌ ... بهِ صادِقاً ما قُلتُ إِذْ أنا كَاذِبُ

وقد صَدَقَ، فمحا ما هجاه بما يقابله من المديح، وكان مجموع ما هجاه ست قصائد، فمدحه بست قصائد أيضاً، فمحَا هجاءه بمديحه.

والقصائد الستة هي:

1- قال بشر(1):

---

(1) الرَّهدن: طائر أصغر من العصفور.

إِنّي لأرجــــو منــــكَ يا أَوسُ نعمــــةً وإنّي لأخـــرى مِنـــكَ يا أَوسُ راهِـــبُ
فهـــل يَنفعـــتِّي اليـــومَ إنْ قلـــتُ إنَّـــني سأشـــكرُ إنْ أنعمـــتَ والشَّـــكرُ واجِـــبُ
وإِنّي قـــد أَهجَـــرتُ بالقـــولِ ظالمـــاً وإِنّي مِنـــهُ يا بـــنَ سُـــعدى لتائِـــبُ
فـدًى لابـن سـعدى اليـومَ كـلَّ عشـيرتي بـــني أســـدٍ أقصـــاهم والأقـــاربُ
تـــداركني أَوسُ بـــن سُـــعدَى بِنعمـــةٍ وقـــد أَمكَنَتْـــهُ مـــن يَـــديَّ العَوَاقِـــبُ
وإِنّي إلى أوسٍ ليقبـــــلَ عِـــــذرتي ويعفـــوَ عـــنِّي مـــا حييـــتُ لَراغـــبُ
فهـــبْ لي حيـــاتي، فالحيـــاةُ لقـــائمٍ بِشُـــكرِكَ فيهـــا خـــيرُ مـــا أنـــتَ واهـــبُ
فقـلْ كالـذي قـال ابـن يعقـوبَ يوسـفٌ لإِخوتِـــهِ، والحكـــمُ في ذاكَ راسِـــبُ
وإنّي ســـأمحو بالـــذي أنا قائـــلٌ بـــهِ صـــادِقاً مـــا قُلـــتُ إِذْ أنا كَـــاذِبُ

2- وقال بشر[2]:

تَـــداركَني أوسُ بـــن سُـــعدى بِنعمـــةٍ وقـــد ضـــاقَ مِـــنْ أرضٍ علـــيَّ عَـــريضُ
فمَـــنَّ وأعطـــاني الجزيـــلَ وإنَّـــهُ بأمثالِهـــا رَحـــبُ الـــذِّراعِ نَهُـــوضُ[3]
تَـــدَاركتَ لَحمـــي بعـــدما حلَّقَـــتْ بـــهِ مَـــعَ النَّســـرِ فَتخـــاءُ الجنـــاحِ قَبـــوضُ[4]
فقلـــتُ لهـــا: رُدِّي عليـــهِ حياتَـــهُ فـــرُدَّتْ كمـــا ردَّ المنـــيحَ مُفـــيضُ[5]
فـــإنْ تجعـــلِ النَّعمـــاء منـــك تمامـــةً ونُعمـــاكَ نُعمـــى لا تـــزالُ تفـــيضُ
يكـــنْ لـــكَ في قـــومي يـــدٌ يشـــكُرونَها وأيـــدي النَّـــدى في الصَّـــالحينَ قُـــروضُ
فَكَكْـــتَ أســـيراً ثم أفضـــلتَ نِعمـــةً فسُـــلِّمَ مَـــبريُّ العِظـــامِ مَهـــيضُ

3- وقال يمدحه[6]:

هـــلْ أنـــتَ علـــى أطـــلالِ ميَّـــةَ رابـــعُ بحوضـــى تُســـائلُ رسمَهـــا أو تطـــالِعُ
منـــازلُ منهـــا أَقفـــرَتْ بتَبالـــةٍ ومنهـــا بأعلـــى ذي الأراكِ مرابِـــعُ
تمشَّـــى بهـــا الثِّـــيرانُ تَـــردي كأنَّهـــا دَهـــاقينُ أنبـــاطٍ عليهـــا الصَّـــوامِعُ

---

(1) ديوانه: 122-124.
(2) ديوانه: 135-136.
(3) رَحب الذراع: واسع القوة والقدرة والبطش. النَّهوض: القوي.
(4) الفَتخاء: (يريد عقاباً) ليِّنة الجناح، تكسره كيف شاءت.
(5) المنِيح: أحد سِهام الميسر، لا غُنم له ولا غُرم عليه. المفيض: الضارب بقداح الميسر.
(6) ديوانه: 140-142.

قطعتُ إلى معروفِها مُنكراتِها   بِعَيْهَمةٍ تنسلّ، والليلُ هاكِعُ[1]

إلى ماجدٍ أعطى على الحمدِ مالَهُ   جميلِ المحيَّا للمغارمِ دافِعُ

تَداركَني أوسُ بنُ سُعدى بنعمةٍ   وعرَّدَ منْ تُحنى إليهِ الأصابعُ

تَداركَني منهُ خليجٌ فردَّني   لهُ حَدَبٌ تستنُّ فيه الضَّفادِعُ[2]

تَداركَني من كُربةِ الموتِ بعدما   بَدَتْ نَهِلاتٌ فوقهنَّ الودائِعُ

لعمرُكَ لو كانت زِنادُكَ هُجنةً   أوريتَ إذْ خدِّي لخدِّكَ ضارعُ

فأصبحَ قومي بعد بُؤسى بنعمةٍ   لقومِكَ والأيَّامُ عُوجٌ رواجِعُ

عبيدُ العصا لم يمنعوكَ نفوسَهمْ   سوى سَيبِ سُعدى إنَّ سيبَكَ واسِعُ

فتًى من بني لأْمٍ أغرُّ كأنَّه   شهابٌ بدا في ظلمةِ اللَّيلِ ساطِعُ

فدًى لكَ نفسي يا بنَ سُعدى وناقتي   إذا أبدتِ البِيض الخِدامُ الضَّوائعُ[3]

ومستسلمٍ بينَ الرِّماحِ أجبتَهُ   فأنقذتَه والبيضُ فيهِ شوارِعُ

بطعنةِ شَزرٍ أو بضربةِ فَيصلٍ   إذا لم يكنْ للموتِ في القومِ دافِعُ

أخو ثقةٍ في النَّائباتِ مرزَّأٌ   لهُ عَطَنٌ عندَ التَّفاضُلِ واسِعُ[4]

وكنتَ إذا هشَّتْ يداكَ إلى العلى   صنعتَ فلمْ يصنعْ كصنعكَ صانِعُ

4- وقال يمدحه[5]:

كفى بالنَّأيِ مِنْ أسماءَ كافي   وليسَ لحُبِّها إذ طَالَ شافي

بلى، إنَّ العزاءَ لهُ دواءٌ   وطولُ الشوقِ يُنسيكَ القوافي

فيا لكِ حاجةً ومِطالَ شوقٍ   وقَطعَ قرينةٍ بعدَ ائتلافِ

كأنَّ الأتحميَّةَ قامَ فيها   لحسنِ دَلالِها رَشَأٌ مُوافِ[6]

منَ البِيضِ الخدودِ بذي سَديرٍ   يَنُشْنَ الغضنَ من ضالٍ قَضافِ[7]

---

(1) العَيهمة: الناقة السريعة. الليل هاكع: أي بارك مُنيخ، من هَكَعَ الليل إذا سكنَ وأرخى سدولَهُ.

(2) الخليج: بمعنى النهر. الحَدب: كثرة الماء وارتفاع الأمواج. تستن: تذهب وتجيء، وتنزو مرحاً ونشاطاً.

(3) البِيض: النِّساء البيض الجميلات. الخِدام: جمع الخَدَمَة؛ وهي الخلخال. الضوائع: المضيّعة المتروكة بعد فَقدِ أهلهن.

(4) المرزّأ: الرجل الكريم يصيب الناس خيره كثيراً. واسع العطن: رحب الذِّراع، كثير المال، واسع الرَّحل.

(5) ديوانه: 162-167.

(6) الأتحمية: ثيابٌ من ثياب اليمن. الموافي: المشرف من مكان عالٍ ينظر. الرَّشأ: ولد الظبية.

(7) ينشنَ الغصن من ضالٍ قِضاف: يتناولنَ من شجرٍ دقيقِ العيدان صغيرٍ.

أو الأدمِ الموشَّـــــــــحةِ العَـــــــــواطِي   بأيـــــديهنَّ مــــن سَـــلمِ النِّعـــافِ[1]

كــــأنَّ مُدامــــــةً مــــن أذرعـــــاتٍ   كُميتـــــاً لونُهــــا لــــونُ الرُّعـــافِ

علـــــى أَنيابهـــــا بغــــــريضِ مُــــزنٍ   أَحالتْـــــهُ السَّــــحابةُ في الرِّصـــافِ

وإنَّـــكِ لــــو رأيـــتِ غــــداةَ بِنــــتُمْ   خشــــوعِي للتَّفــــرّقِ واعـــــترافِي[2]

إذاً لرثيـــــــــتِ لي وعلمــــــــتِ أنيِّ   بـــوُدِّي غــــيرُ مطَّـــرفِ التَّصـــافِي[3]

وحاجـــــةِ آلـــــفٍ بــــدَّلتُ صــــرماً   إذا هـــــمَّ القرينــــــةُ بانصـــــرافِ

علـــــى أَنيِّ علـــــى هُجـــــرانِ ليلـــــى   أُمنِّيهــــــا المـــــودَّةَ في القــــــوافي

فســــــلِّ طِلابَهـــــا وتعـــــزَّ عنهـــــا   بناجيـــــــةٍ تخيَّـــــلُ بالــــــرِّدافِ[4]

بحُرجُـــــوجٍ يَـــــئِطُّ النِّســـــعُ فيهـــــا   أطـــــيطَ السَّـــــمهريةِ في الثِّقـــــافِ[5]

كـــــأنَّ مواضـــــعَ الثَّفِنـــــاتِ منهـــــا   إذا بَرَكَـــتْ وَهُـــنَّ علـــى تجَــافِ[6]

معــــــرَّسُ أربـــــعٍ مُتقــــــابلاتٍ   يُــــادِرْنَ القطـــا سَمَـــلَ النِّطَـــافِ[7]

فـــــأبقى الأيــــنُ والتَّهجــــيرُ منهـــــا   شُـــجوباً مثـــل أعمـــدةِ الخِـــلافِ[8]

تخــــــرُّ نِعالُهــــــا ولهــــــا نَفِــــــيٌّ   مــن المِعْــزاءِ مثــل حصــى الخِــذافِ[9]

كـــأنَّ السُّـــوطَ يقـــبضُ جنـــبَ طـــاوٍ   بأجمــــادِ اللُّبــــينِ مــــن جُفــــافِ[10]

---

(1) العواطي: التي تتناولُ بأيديها؛ مِنْ عطتْ تعطو؛ وذلك أن ترفع يدها فتضعهما على الغصن.

(2) الاعتراف: الصَّبر؛ من اعترف للأمر إذا صبر عليه واحتمله إذا حمل عليه.

(3) المطرَّف: المستَحدَث الجديد.

(4) سل طلابها: أي اتركه وانسهُ. تخيلُ: تتبختر في مشيتها وتشولُ بذنبها. والرِّداف: الرديف. يقول: إذا حملتْ رديفاً رأيتَ لها نشاطاً.

(5) الحُرجُوج: الناقة الشديدة الخفيفة، أُخذت من الريح الحُرجوج؛ وهي الشديدة البَرد. وقيل الحرجوج من الإبل: الضامرة. السَّمهرية: منسوبة إلى قرية بالبحرين يقال لها: سَمَهر. الأطيط: الصوت.

(6) الثَّفِنات: ما لزم الأرض منها حين تبرك. التجافي: الارتفاع عن الأرض.

(7) شبه آثار ثفِناتها بمواقع أربعٍ من القطا. والأسمال: بقايا الماء. والنطاف: المياه؛ الواحدة نِطافة.

(8) الأين: الإعياءُ. التَّهجير: السير نصف النهار. الشّجوب: القوائم.

(9) تَخِرّ نعالها: تسقط من أيديها وأرجلها. النَّفِيّ: ما تنفيه بأيديها وأرجلها من الحصى، شبهه بحصى الخذاف الذي يخذف به. المِعْزاءُ: الحجارة البيض تكون في الأرضِ الخشنة.

(10) طاوٍ: أي ثور ضامر. ويقال للذي يخرج من أرضٍ إلى أرضٍ (طاوي). والأجماد: ما صَلُبَ من الأرضِ. واللبين: موضع.

شـــــجـجتُ بهـــــا إذا الآرامُ قالـــــتْ رؤوسَ اللامعـــــاتِ مـــــن الفيـــــافي[1]

فليـــــتي قـــــد رأيـــــتُ العِـــــيسَ ترمـــــي بأيـــــديها المفـــــاوزَ عـــــن شِـــــرافِ

عوامـــــدَ للمَـــــلا وجُنُـــــوبِ سَـــــلمى علـــــى أعجازِهـــــا دُكُـــــنُ العِطـــــافِ[2]

إلى أوسِ بـــــنِ حارثـــــةَ بـــــن لأمٍ لربّـــــكِ فـــــاعملي إنْ لم تخـــــافي[3]

فمـــــا صَـــــدَعٌ بخُبَّـــــةَ أو بشُـــــوطٍ علـــــى زُلُـــــقٍ زوالِـــــقَ ذي كِهـــــافِ[4]

تـــــزِلُّ اللَّقـــــوَةُ الشَّـــــغواءُ عَنهـــــا مخالبُهـــــا كـــــأطرافِ الأشـــــافي[5]

بأحـــــرزَ مَـــــوئِلاً مـــــن جـــــارِ أوسٍ إذا مـــــا ضِـــــيمَ جـــــيرانُ الضِّـــــعافِ

ومـــــا ليـــــثٌ بعثَّـــــرَ في غَريـــــفٍ يُغنّيـــــهِ البعـــــوضُ علـــــى النِّطـــــافِ[6]

مُغـــــبٌّ، مـــــا يـــــزالُ علـــــى أكيـــــلٍ يُنـــاغي الشَّـــمسَ لـــيسَ بـــذي عِطـــافِ[7]

بأبأسَ ســـــورةً للقِـــــرنِ مِنـــــهُ إذا دُعِيَـــــتْ نَـــــزالِ لـــــدى الثِّقـــــافِ

ومـــــا أوسُ بـــــنُ حارثـــــةَ بـــــنِ لأمٍ بغُمـــــرٍ في الأمـــــورِ ولا مُضـــــافِ[8]

5- قال بشر[9]:

أنيّـــــةٌ الغـــــداةَ أم انتقـــــالُ لمنصـــــرفِ الظَّعـــــائِنِ أم دَلالُ

جَعلـــــنَ قَنـــــا قُراقـــــرةٍ يمينـــــاً لِنِيَّـــــتِهِنَّ، فانجـــــذمَ الوِصـــــالُ

كـــــأنَّ علـــــى الحُـــــدُوجِ مُخـــــدَّراتٍ دُمـــــى صَـــــنعاءَ خُـــــطَّ لهـــــا مِثـــــالُ[10]

---

(1) اللامعات: التي تلمع بآلال. الأرآم: الظِّباء البيض. والفيافي: الصحارى، واحدها فَيفاء.

(2) سلمى: أحد جبلى طيئ. وأراد بالعطاف: مطارف الخزّ. والعطاف أيضاً: السيوف. والعطاف: القسي، الواحدة عطيفة. والملا: الصحراءُ.

(3) أراد إلى ربك. اعملي: أي سيري إن لم يلزمك الخوف.

(4) الصَّدع: الوعل الخفيف الجسم. خبة: أرض. والخبة: الطريق في الرمل. الزُّلُق: جمع زَلوق؛ يريد بها الجبال الملس. الكِهاف: الغيران في الجبال.

(5) اللّقوة (بفتح اللام وكسرها): الُعقاب الخفيفة السريعة الاختطاف. الشَّغواء: التي ركب منقارها الأعلى الأسفل. يقال: قد شغثْ سن الغلام: إذا ركبت العليا السفلى.

(6) الغريف: الشّجر الملتفّ.

(7) مُغبّ: يُصيب يوماً ويوماً لا يصيب، وما يزال هذه حاله. الأكيل: ما يأكله السبع. يناغي: يَرقُب وينظر. يناغي الشمس: أي أن الأسد عينه إلى الشمس يرقب سقوطها فخرج عند الليل. ليس بذي عطاف: أي ليس عليه لباس. والعطاف: الملحفة.

(8) الغُمرُ: الذي لم يجرّب الأمور. المضاف: الذي قد أُضيف إلى قومٍ ليس منهم.

(9) ديوانه: 182-184.

(10) الحُدوج: جمع حِدج؛ وهو مركب من مراكب النساء على الإبل شِبه المِحفَّة. الدّمى: جمع دُمية؛ وهي التمثال المنحوت من عاج

أو البيضَ الخُدودِ بذي سديرٍ ... أَطاعَ لهُنَّ عُبريٌّ وَضالُ
فسلِّ الهمَّ عنكَ بذاتِ لَوثٍ ... صَموتٍ ما تخوَّنَها الكَلالُ[1]
ترى الطَّرقَ المعبَّدَ من يديها ... لِشُذَّانِ الحصى منهُ انتضالُ[2]
تَخِرُّ نِعالُها ولها نَفِيٌّ ... نفيَّ الحَبِّ تَطحَرُهُ المِلالُ[3]
ألا تنسى الكفورَ، وكلّ شيءٍ ... مِنَ الأخلاقِ تنتجعُ الرِّجالُ
إلى أوسِ بنِ حارثةَ بنِ لأْمٍ ... وحقَّ لقاءُ ربِّكَ لو يُنالُ
وما ليثٌ بعثَّرَ في غريفٍ ... مُعيدُ الهَصرِ، خَطْفَتُهُ شِمالُ
بأصدقَ عَدوةً مِنهُ وبأساً ... غداةَ الرَّوعِ، إذ خَلَتِ الحِجالُ
ولو جارَاكَ أبيضُ مُتلئِبٌّ ... قُرى نَبَطِ السَّوادِ لهُ عِيالُ
تَهِفُّ يداكَ من هذا وهذا ... وتُغرفُ منْ جوانِبهِ السِّجالُ
لأصبحتِ السَّفينُ مُخوِّياتٍ ... على القُذُفاتِ ليس لها بِلالُ[4]

6- قال بشر[5]:

أتعرفُ من هُنيدةَ رسمَ دارٍ ... بِخَرجي ذَروةٍ فإلى لِواها
ومِنها مَنزلٌ بِبِراقِ خَبتٍ ... عَفَتْ حِقَباً، وغيَّرها بِلاها
أربَّ على مغانيها مُلِثٌّ ... هَزيمٌ وَدْقُهُ حتَّى عَفَاها[6]
وما أشجاكَ من أطلالِ هِندٍ ... وقد شطَّتْ لطيَّتِها نَواها[7]
وقد أَضحَتْ حِبالُكما رِثاثاً ... بِطاءَ الوَصلِ، قد خَلُقتْ قُواها
ليالِيَ لا تطيشُ لها سِهامٌ ... ولا ترنُو لأسْهُمِ مَنْ رماها

أو غيره تشبَّه به النساء.

(1) ذات لوث: ناقة ذات قوة. الكَلال: التعب والإعياء.

(2) شذان الحصى: ما تطاير منه وتفرّق.

(3) النَّفيّ: ما تنفيه من تحت قوائمها من دقاق الحصى. تطحره: ترمي به. المِلال: المقالي.

(4) مخويات: مرتفعات.

(5) ديوانه: 221-224.

(6) أربَّ على مغانيها: أقام بها، ودام عليها. ومغاني الدَّار: حيث يقيم أهلها. الملثّ: المطر الدائم. الودق: المطر. عفاها: محاها.

(7) أشجاك: هيَّجك وأحزنك. شطَّت: بعدت. لطيَّتها: لوجهتها.

وموماةٍ عليها نَسجُ رِيحٍ يُجاوِبُ بُومَها فيها صَدَاها[1]
فلاةٍ قد سَرَيْتِ بها هدوءاً إذا ما العَينُ طافَ بها كراها
بصادقةِ الهواجرِ ذات لوثٍ مُضبَّرَةٍ تخيَّلُ في سُراها[2]
إليكَ نَصَصْتُها تعلو الفيافي بِمَوماةٍ يَحارُ بها قَطَاها[3]
عُذافرةٍ أضرَّ بها ارتحالي وحَلِّي بَعدَهُ حتَّى بَراها
أشجُّ بها إذا الظلماءُ ألقَتْ مَراسيها وأردَفَها دُجاها
إلى أوسِ بنِ حارثةَ بنِ لأمٍ ليقضيَ حاجتي، ولقد قضاها
فما وَطِئَ الحصى مثلُ ابنِ سُعدى ولا لَبِسَ النِّعالَ ولا احتذاها
إذا ما المكرماتُ رُفِعنَ يوماً وقصَّرَ مُبتغوها عن مَداها
وضاقَتْ أذرعُ المثْرِينَ عنها سَمَا أوسٌ إليها فاحتواها
نَمَى مِنْ طيّئٍ في إرثِ مجدٍ إذا ما عُدَّ مِنْ عَمرٍو ذُراها
وأضحى من جديلةَ في محلٍّ لهُ غاياتُها، ولهُ لُهاها
نَمَوهُ في فروعِ المجدِ حتَّى تأزَّرَ بالمكارمِ وارتداها
غِياثُ المرملينَ إذا أناخُوا بهِ في الليلةِ الغالي قِراها[4]
لَهُ كَفَّانِ: كَفٌّ كَفُّ ضُرٍّ وكفُّ فواضلٍ خَضِلٌ نَداها
إذا ما شمَّرتْ حَربٌ عَوَانٌ يَخافُ النَّاسُ عُرَّتَها كَفاها
يُجيبُ المرهَقينَ إذا دَعَوهُ ويكشِفُ عن أطاخِيها دُجاها[5]
بِخَيلٍ تَحسِبُ الزَّفَراتِ منها زئيرَ الأُسدِ مشدوداً قَراها

* * *

وهكذا، قَطَعَ أَوسٌ بن حارثة لسانَ بشر بالعفو والعطاء، وأثبتَ أن الكريم الشريف يعفوَ إذا ملك، وحقّ فيه وفي بشر قول المتنبي:

---

(1) الموماة: المفازة الواسعة التي لا ماء بها ولا أنيس. نسج الريح: هو أن تسحب الريح التراب، وتجمع بعضه على بعض. الصَّدى: الذَّكر من البوم. وهو هنا يشير إلى أسطورة الهامة.

(2) صادقة الهواجر: أي ناقة تصدق السير عند اشتداد الحر. ذات لوث: ذات قوة. المضبّرة: الموثقة المكتنزة اللحم.

(3) نصصْتها: رفعتها. الفيافي: الصحارى الواسعة، واحدها فيفاة.

(4) المرملون: القوم الذين نفدَ زادهم. القِرى: طعام الضيف.

(5) أطاخيها: ظلماتها.

إذا أنـــتَ أكرمـــتَ الكـــريمَ مَلكتَـــهُ وإنْ أنـــتَ أكرمـــتَ اللئـــيمَ تمـــرَّدا

فبِشر شَعَرَ أن كرمَ وفضل أوس قد طوَّق عنقها، ولا سبيل إلى مجازاته إلا الثناء عليه، والشكر بين يديه، وكفّ اللسان عنه، وسوق المدح إليه.

النابغة الذبياني(1)

ترجمته:

هو أبو أُمامة زياد بن معاوية بن ضِباب الذُّبياني. لُقِّب بالنابغة لقوله:

* فقد نبغت لهمْ منَّا شؤون *

وقيل: لأنه قال الشعر بعد أن كبرت سنّهُ، ومات ولم يهتر ويذهب عقله. بمعنى: أنه قال الشعر فجأةً من غير مقدمات، كما ينبعُ الماء من الأرض فجأةً.

وهو شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى المقدَّمين على سائر الشعراء، وهو من أصحاب المعلَّقات. وكانت تُضرب له قبةٌ من أَدَمٍ بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء، فتعرضُ عليه أشعارَها؛ تقديراً لمكانته، وتسليماً بمنزلته الشعرية.

اتَّصل بالنعمان بن المنذر ومدحه، فأكرمه النعمان، وأعلى منزلته، وجعله شاعره الخاص. إلى أن وقع بينهما وحشة بسبب قصيدة قالها النابغة في المتجرِّدة زوج النعمان، فخشي النابغة على نفسه، وفرَّ إلى عدوّ النعمان ملك الغساسنة عمرو بن الحارث؛ فمدحه وأخاه، وهو خلال إقامته يعتذر من النعمان، حتى عفا عنه، فقدم عليه، وأقامَ على أحسن حال معه، ومات في قومه نحو سنة (604م).

قصّته مع النعمان:

كان للنعمان بن المنذر زوجة فائقة الجمال تُدعى المتجرِّدة، وكان النعمان دميماً قصيراً أبرش، وكان يحبّ أن يتباهى بجمال زوجته. واتفق مرة أن طلب النعمان من النابغة . شاعره وصديقه . أن يصف هذا الجمال، ويخلِّد تلك الفتنة، وألح عليه في ذلك؛ فقال النابغة يصف المتجردة ودقائق جسدها(2):

أمِـــــنَ آلِ مَيّـــــةَ رائـــــحٌ أو مُغْتَـــــدِ ... عَجـــــــلانَ ذا زادٍ وغـــــــيرَ مـــــــزودِ
أَفِـــــدَ التّرَحّـــــلُ غـــــير أنّ رِكابَنَـــــا ... لمـــــا تَـــــزَلْ برحالِنـــــا وكـــــأنْ قـــــدِ
زَعَـــــمَ البَـــــوارِحُ أنّ رِحْلَتَنــــا غَـــــداً ... وبِـــــذاكَ تنعـــــابُ الغـــــرابِ الأســـــودِ
لا مرحبـــــاً بغـــــدٍ ولا أهـــــلاً بـــــهِ ... إنْ كـــــانَ تَفريـــــقُ الأحبّـــــةِ في غَـــــدِ
حـــــانَ الرّحيـــــلُ ولم تُـــــوَدِّعْ مهـــــدَداً ... والصّـــــبْحُ والإمســـــاءُ منهـــــا مَوْعِـــــدي
في إثْـــــرِ غانِيَـــــةٍ رَمَتْـــــكَ بسَـــــهَمِها ... فأصـــــابَ قلبَـــــك غـــــير أنْ لم تُقْصِـــــدِ

---

(1) الأغاني: 11/3-40، وجمهرة أشعار العرب: 71-80، والشعر والشعراء: 1/156-171، وخزانة الأدب: 2/135-138، والنابغة الذبياني لمحمد زكي العشماوي، والعصر الجاهلي لشوقي ضيف: 266-299.

(2) أشعار الشعراء الستة الجاهليين للشنتمرى: 1/228-232.

غَنِيَتْ بذلك إذ همُ لكَ جيرةٌ ... منها بعَطْفِ رسالَةٍ وتَوَدُّدِ

ولقد أصابَتْ قَلبَهُ مِنْ حُبِّهَا ... عن ظَهْرِ مِرْنانٍ بسَهمٍ مُصرِدِ

والنظمُ في سلكٍ يُزيّنُ نَحرَها ... ذَهَبٌ توقَّدُ كالشّهابِ الموقَدِ

صَفراءُ كالسِّيرَاءِ أكْمِلَ خَلقُها ... كالغُصنِ، في غُلَوائِهِ، المتأوِّدِ

والبَطنُ ذو عُكَنٍ لطيفٌ طَيُّهُ ... والإتْبُ تَنْفُجُهُ بثَدْيٍ مُقْعَدِ(1)

محطُوطَةُ المتنَينِ غيرُ مُفاضَةٍ ... ريّا الرّوادِفِ بَضّةُ المتَجرَّدِ(2)

قامتْ تراءى بينَ سجفيْ كلةٍ ... كالشّمسِ يومَ طُلُوعِها بالأسعدِ

أوْ دُرّةٍ صَدَفِيّةٍ غوّاصُها ... بَهِجٌ متى يرها يهلَّ ويسجدِ

أو دُميَةٍ مِنْ مَرْمَرٍ مرفوعةٍ ... بنيتْ بآجرٍ تشادُ بقرمدِ

سَقَطَ النّصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَهُ ... فتناولتهُ واتّقتنا باليدِ

بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنّ بنانَهُ ... عَنمٌ يكادُ من اللطافةِ يعقدُ

نظرَتْ إليكَ بحاجةٍ لم تَقْضِها ... نظرَ السَّقيمِ إلى وجوهِ العُوَّدِ

تَجْلُو بقادِمَتَيْ حَمامةِ أيكَةٍ ... برداً أسفّ لثاتهُ بالإثمدِ(3)

كالأقحوانِ غَداةَ غِبِّ سَمائِه ... جفَّتْ أعاليهِ، وأسفلهُ ندي

زَعَمَ الهُمَامُ بأنّ فاها باردٌ ... عَذبٌ مقبلُهُ شهيُّ الموردِ(4)

زَعَمَ الهُمامُ، ولم أذُقْهُ، أنّهُ ... عَذبٌ إذا ما ذقتهُ قلتَ: ازددِ

زَعَمَ الهُمامُ، ولم أذُقْهُ، أنّهُ ... يُشفَى، بريَّا رِيقها، العَطِشُ الصَّدِي

أخذ العذارى عِقدَها فنَظَمْنَهُ ... مِن لُؤلُؤٍ مُتتابعٍ مُتَسَرّدِ

لو أنها عَرَضَتْ لأشمطَ رَاهبٍ ... عَبَدَ الإلهِ، صرورة المتعبِّدِ

لَرَنَا لبهجتِها وحُسنِ حَديثِها ... ولخالَهُ رَشَداً وإنْ لم يَرشُدِ

بتَكَلّمٍ، لو تَستَطيعُ سَماعَهُ ... لدنتْ لهُ أروى الهضابِ الصُّخَّدِ

---

(1) العكَن: جمع عُكنة؛ وهو ما انطوى وتثنّى من لحم البطن. الإتب: ثوب. تنفجه: ترفعه.

(2) محطوطة المتنين: أي متناها أملسان مكتنزان. المفاضة: الواسعة البطن الممتلئة باللحم والشَّحم. الرَّيَّا: الممتلئة. البضَّة: الرَّخصة الرَّطبة.

(3) القوادم: الريش المقدّم في جناح الطائر، ويكون شديد السواد. اللثاث: مغارز الإنسان. من عادتهم أن يذروا عليها الإثمد ليبين بياض الأسنان.

(4) الهُمام: السيّد، ويريد به النعمان.

وبفـــــاحمٍ رَجـــــلٍ أثيـــــثٍ نيتـــــهُ   كـــالكَرمِ مـــالَ علـــى الـــدَّعامِ المسـنَدِ
فـــإذا لَمســـتَ لمســـتَ أجْـــثَمَ جاثِمـــاً   متحيـــــزاً بمكانِـــــهِ مـــــلءَ اليـــــدِ
وإذا طَعَنـــتَ طعنـــتَ في مســـتهدفٍ   رابي المجسّـــــةِ ، بالعَبـــــيرِ مُقَرْمَـــــدِ
وإذا نَزعـــتَ نزعـــتَ عـــن مستحصـــفٍ   نَـــزْعَ الحَـــزَوَّرِ بالرّشـــاءِ المحْصَـــدِ(1)
وإذا يعـــــضّ تَشُـــــدُّهُ أعضـــــاؤهُ   عَـــضَّ الكَبـــيرِ مِـــنَ الرّجـــالِ الأدردِ
ويكـــادُ ينـــزِعُ جِلـــدَ مَـــنْ يُصْـــلى بـــهِ   بلـــــوافحٍ ، مثـــــلِ السّـــعيرِ الموقَـــدِ

ويبدو أن النابغة لم يُنشد هذه القصيدة أمام النعمان، بل أوصلها إليه مرة بن سعد القريعي حين سمعها منه ـ وكان ناقماً على النابغة بسبب سيف له وصفه للنعمان فسلبه منه ـ فلما بلغ إلى قول النابغة:

فـــإذا لَمســـتَ لمســـتَ أجْـــثَمَ جاثِمـــاً   متحيـــــزاً بمكانـــــهِ، مـــــلءَ اليـــــدِ
وإذا طَعَنـــتَ طعنـــتَ في مســـتهدفٍ   رابي الَمجَسّـــــةِ، بالعَبـــــيرِ مُقَرْمَـــــدِ
وإذا نَزعـــتَ نزعـــتَ عـــن مستحصـــف   نَـــزّعَ الحَـــزَوَّرِ بالرّشـــاءِ المحْصَـــدِ

قال المنخَّل اليشكري ـ وكان مُتَّهماً بالمتجردة، شغفاً بها، غيوراً عليها، وكان النابغة عفيفاً لم يقصد إلا تلبية رغبة الملك ـ: أيد الله الملك! ما يقول هذا إلا من جرَّب ورأى؛ فوقع ذلك في نفس النعمان.

ويبدو أن مرة بن سعد وعبد قيس بن خفاف البرجمي(2) قد استغلاّ الموقف، فنسبا للنابغة أبياتاً في هجاء النعمان، مثل قوله:

مَلِـــــكٌ يُلاعِـــــبُ أُمَّـــــه وقَطِينَـــــه   رِخْـــــوُ المَفَاصِـــــلِ أَيْـــــرُه كـــــالمِرْوَدِ

وقوله:

قَـــــبَّح اللهُ ثم ثَـــــنَّى بِلَعْـــــنٍ   وارثَ الصـــائغِ الجَبَـــانَ الجهُـــولاَ(3)
مَـــنْ يَضُـــرُّ الأدنىَ وَيَعْجِـــزُ عـــن ضَـــرّ   الأقاصِـــي ومَـــنْ يَخُـــون الخلـــيلا
يجمـــع الجـــيشَ ذا الألـــوفِ ويغـــزو   ثم لا يَـــرْزأ العَـــدُوَّ فَتـــيلا

فأثَّر ذلك ـ مع قول المنخَّل ـ في نفسه، فلم يجد النابغة بُدّاً من الهرب، خوف أن يقتله النعمان.

---

(1) الحزوَّر: القوي. المحصد: الشديد الفتل.

(2) أميل إلى أن مرة قد تزيَّد على هذه القصيدة أبيات الفحش؛ لأن النابغة العاقل لا أظنه يقول ما يقول في زوجة النعمان صاحبه وولي نعمته، وهو بعد عربي غيور لا يقبل أن يُقال مثل هذه في جواريه فكيف في زوجة صاحبه الملكة الحرة؟! لذا أنا أذهب إلى أن النابغة قد وقع فريسة مؤامرة أعدّها خصومه من الشعراء خصوصاً.

(3) وارث الصائغ: هو النعمان، وكان جده لأمه بفدك يقال له عطية، وأم النعمان هي سلمى بنت عطية.

ولكنْ، إلى أينَ يذهب النابغة؟

أيذهب إلى قومه، فإنَّهم لا بدَّ سيحموه، أم يبحث عن رجل عظيم يجيره على الملك النعمان؟

لم يفعل النابغة أياً من الحلَّين، بل اتَّخذ طريق الشام، وسار إلى بصرى عاصمة الغساسنة، والتحق في خدمتهم؛ وشرع يمدح ملكهم عمرو بن الحارث الأصغر وأخاه النعمان.

ويبدو أنَّ التجاء النابغة إلى الغساسنة لم يكن المقصد منهم حقيقةً إغاظة النعمان بالالتقاء في حضن أعدائه . وإن كانوا قد سرُّوا كثيراً بمقدمه؛ لمكانته الشعرية، ولكونه شاعر عدوّهم! .، بل لأن الغساسنة كانوا قد أوقعوا ببني ذبيان وحلفائهم بني أسد، فأراد أن يفتكَّ قومه من الأسر، ولا سبيل لذلك سوى مدح الغساسنة، والإقامة عندهم مدة؛ لا سيما وقد هرب من النعمان، على الأقل إلى أن يأمن جانِبَهُ.

والحقّ، إن النعمان اكتشف براءة النابغة مما رُمي به في شأن زوجته المتجردة، لاسيما بعدما أوقع بالمنخَّل وقبض عليه متلبّساً بجرمه. ولكنْ ساءه كثيراً ما بلغه من فرار النابغة إلى عدوه الغساني، ومدحه له، فلم يملك نفسه أن كتب إلى النابغة يقول: إنك صرتَ إلى قومٍ قتلوا جدي فأقمتَ فيهم تمدحهم، ولو كنتَ صِرتَ إلى قومك لقد كان لك فيهم ممتنعٌ وحِصنٌ، إن كنا أردنا بك ما ظننتَ. وسأله أن يعود إليه.

ولكن النابغة لم يَقدُم على النعمان، فقد رأى في كتابه بعض الغضب عليه، فأراد أن يستلَّه أولاً، ويمهِّد لعودته، حتى لا يفتكَ به إن عاد ولم يكن قد قدَّم لذلك. فبدأ يمدح النعمان ويذكر كرمه، ويعتذر منه، فقال في المعلقة[1]:

قالــتْ لــهُ الــنَّفسُ: إني لا أرى طمعــاً ... وإنّ مـــولاكَ لم يســـلمْ، ولم يَصِـــدِ
فتلـــكَ تُبلغـــني النَّعمـــانَ إنّ لـــهُ ... فَضــلاً علــى النّــاس في الأدنىَ وفي البَعَــدِ
ولا أرى فـــاعلاً في النَّـــاسَ يُشـــبهه ... ولا أُحاشــي، مــن الأقــوام، مــن أحَــدِ
إلاّ ســـليمانَ، إذ قـــالَ الإلـــهُ لـــهُ: ... قُــمْ في البريــةِ فاحــددها عــنِ الفَنــدِ
وخــيّسِ الجِــنّ إنّي قــد أَذِنْــتُ لهــمْ ... يَبْنُــونَ تَــدْمُرَ بالصُّــفَّاحِ والعَمَــدِ
فَمَــنْ أطاعــكَ فانفعْــهُ بطاعتــهِ ... كمــا أطاعــكَ، وادْلُلْهُ علــى الرَّشــدِ
ومَــنْ عَصــاكَ فعاقِبْــهُ مُعاقَبَــةً ... تنهَــى الظَّلــومَ ولا تَقعُــدْ علــى ضَــمَدِ
إلاّ لِمثْلِــكَ، أوْ مَــنْ أنــتَ ســابِقُهُ ... سَــبقَ الجــوادِ إذا اســتولى علــى الأمــدِ
أعطــى لفارِهَــةٍ حُلــوٍ توابِعُهــا ... مــنَ المواهِــبِ لا تُعْطَــى علــى نَكَــدِ
الواهِــبُ المائَــةِ المعْكــاء زَيَّنَهــا ... سَــعدانُ توضِــحَ في أوبارِهــا اللِّبَــدِ

---

(1) أشعار الشعراء الستة الجاهليين للشنتمرى: 1/188-197.

والأُدمَ قد خُيِّستْ فتلاً مرافقُها ... مَشدودَةً برِحالِ الحيرةِ الجُدُدِ
والرَّاكضاتِ ذيولَ الرَّيطِ فانقها ... بردُ الهواجرِ كالغزلانِ بالجردِ
والخَيلَ تَمزَغُ غرباً في أعِنّتِها ... كالطيرِ تنجو من الشؤبوبِ ذي البرَدِ
احكمْ كحكمِ فتاةِ الحيّ إذ نظرتْ ... إلى حمامِ شراعٍ واردِ الثّمدِ[1]
يحفّهُ جانبا نيقٍ وتتبعهُ ... مثلَ الزجاجةِ، لم تكحلْ من الرَّمدِ
قالت: ألا ليْتَما هذا الحَمامُ لنا ... إلى حمامتِنا ونصفَهُ فقدِ
فحسَّبوهُ، فألفوهُ كما حسبتْ ... تِسعاً وتِسعينَ لم تَنقُصْ ولم تَزدِ
فكمَّلتْ مئةً فيها حمامتُها ... وأسرعَتْ حسبةً في ذلكَ العددِ
فلا لعمرُ الذي مسَّحتُ كعبتهُ ... وما هُريقَ على الأنصابِ من جَسَدِ
والمؤمنِ العائذاتِ الطّيرَ تمسَحُها ... ركبانُ مكةَ بينَ الغَيلِ والسّعدِ
ما قلتُ من سيءٍ مما أتيتَ بهِ ... إذاً فلا رفعتْ سوطي إليّ يدي
إلاّ مقالةَ أقوامٍ شَقيتُ بها ... كانَتْ مقَالَتُهُمْ قَرْعاً على الكَبِدِ
إذاً فعاقبني ربي مُعاقبةً ... قَرَّتْ بها عينُ مَنْ يأتيكَ بالفَندِ
أُنبِئْتُ أنّ أبا قابوسَ أوْعَدَني ... ولا قرارَ على زأرٍ منَ الأسدِ
مَهْلاً، فِداءٌ لكَ الأقوامِ كُلّهُمُ ... وما أُثمِّرُ من مالٍ ومنْ ولدِ
لا تقذفنّي بركنٍ لا كفاءَ لهُ ... وإنْ تأثّفَكَ الأعداءُ بالرِّفَدِ
فما الفُراتُ إذا هَبَّ الرّياحُ لهُ ... تَرمي أواذيُّهُ العِبْرَينِ بالزّبَدِ
يَمُدّهُ كلُّ وادٍ مُترَعٍ لجِبٍ ... فيه رُكامٌ من الينبوتِ والخضدِ[2]
يظَلّ من خوفهِ المِلاحُ مُعتصِماً ... بالخيزرانةِ ، بعدَ الأينِ والنجدِ
يوماً، بأجوَدَ منهُ سَيْبَ نافِلَةٍ ... ولا يَحُولُ عَطاءُ اليومِ دونَ غَدِ
هذا الثّناءُ، فإن تَسمَعْ بهِ حَسَناً ... فلم أُعرِّضْ، أبَيتَ اللّعنَ، بالصَّفَدِ
ها إنّ ذي عِذرَةٌ إلاّ تكُنْ نَفَعَتْ ... فإنّ صاحبَها مشاركُ النَّكدِ

وتابعَ النابغة في اعتذارياته فقال[3]:

---

(1) فتاة الحي: هي زرقاء اليمامة، وكانت حادة البصر، تبصر مسيرة ثلاثة أيام.

(2) المترع: المملوء. اللَّجب: ذو الصوت. الرُّكام: الحُطام المتكاثف. الينبوت: شجر الخشخاش. الخضد: ما خضد وتكسّر.

(3) أشعار الشعراء الستة الجاهليين للشنتمرى: 1/220-221.

أتاني، أبيـــتَ اللعـــنَ، أنّـــكَ لُمْتَـــني وتلـــكَ الـــتي أَهـــتمُّ منهـــا وأنصـــبُ
فبِـــتُّ كـــأنّ العائـــداتِ فرشـــنني هَراســـاً بـــه يُعلـــى فِراشـــي ويُقْشَـــبُ
حَلَفْـــتُ، فلـــم أتـــرُكْ لنفسِـــكَ ريبَـــةً ولـــيسَ وراءَ اللّهِ للمَـــرْءِ مَـــذهَبُ
لَـــئِنْ كنـــتَ قـــد بُلِّغـــتَ عـــني خِيانَـــةً لَمُبْلغُـــكَ الواشـــي أغَـــشُّ وأكـــذَبُ
ولكنـــني كُنـــتُ امـــرأً ليَ جانـــبٌ مـــنَ الأرضِ فيـــهِ مســـتَرادٌ ومَـــذهَبُ
مُلـــوكٌ وإخـــوانٌ، إذا مـــا أتَيـــتُهُمْ أُحكّـــمُ في أمـــوالهِمْ وأقـــرّبُ
كفعلِـــكَ في قـــومٍ أراكَ اصـــطنعتهمْ فلـــم تـــرَهُمْ، في شـــكر ذلـــك، أذْنَبُـــوا
فإنـــكَ شمـــسٌ، والملـــوكُ كواكـــبٌ إذا طلعـــتْ لم يبـــدُ مـــنهنّ كوكـــبُ
فـــلا تترُكـــنّي بالوعيـــدِ كـــأنني إلى النّـــاسِ مَطلـــيٌّ بـــه القـــارُ أجْـــرَبُ
ألمْ تـــرَ أنّ اللهَ أعطـــاكَ سُـــورةً تـــرى كُـــلّ مَلْـــكٍ ، دونَهـــا ، يتذَبـــذَبُ
ولســـتَ بمســـتبقٍ أخـــاً لا تَلُمّـــهُ علـــى شَـــعَثٍ، أيُّ الّرجـــال المهَـــذَّبُ؟
فـــإنْ أكُ مظلومـــاً فعبـــدٌ ظلمتـــهُ وإنْ تـــكُ ذا عُتَـــبى فمثلُـــكَ يُعتِـــبُ

ويلاحظ في هذه الاعتذارية أن النابغة قد حاول إقناع النعمان أن ما فعله من مدحه للغساسنة لم يكن بدعاً جديداً؛ فلطالما كان الشعراء يمدحون الغساسنة ثم يمدحونه ولا يجد ذلك خطأ منهم، فكيف يجده منه؟

ولكنّ النابغة بلا ريب كان يعلم سبب عتب النعمان؛ فهو لا يراه شاعراً كبقية الشعراء، بل صديقاً، لذا عتب عليه التجاهه ومدحه للغساسنة.

إلا أن النابغة لم يكتف بما قاله من اعتذاريات، بل تابع محاولاته. ويبدو لي أن النابغة كان يحضره دائماً عطايا النعمان وهباته فكان يسعى لإعادتها. أما أن يكون الخوف هو السبب في كل ما قاله فهذا مستبعد؛ لتباعد ما بينهما، ولاستحالة أن يشنّ النعمان حرباً على الغساسنة لأجل شاعر كان يمدحه! وأظن أن النعمان كان يسعى هو الآخر إلى استحضار النابغة إليه ثانيةً رغبةً في مدحه له.

ومن نفائس ما اعتذر به النابغة إلى النعمان قصيدته التي يقول فيها(1):

وعيـــدُ أبي قـــابوسَ في غـــيرِ كُنهِـــهِ أتاني ودوني راكـــسٌ فالضـــواجِعُ
فبِـــتُّ كـــأَنِّي ســـاورتني ضـــئيلةٌ مـــن الـــرُّقْشِ، في أنيابِهـــا السُّـــمُّ ناقِـــعُ(2)

(1) أشعار الشعراء الستة الجاهليين للشنتمرى: 1/197-201.

(2) الضّئيلة: هي الأفعى الدقيقة الجسم. ساورتني: لدغتني. الرقش: جمع رقشاء؛ وهي التي فيها نقط بيض وسود، والناقع القاتل.

يُسَهَّدُ من لَيلِ التّمامِ سَليمُها   لحلي النساءِ في يديهِ قعاقعُ
تناذرَها الرّاقُون مِنْ سوءِ سُمِّها   تُطلِّقُهُ طَوراً، وطَوراً تُراجِعُ
أتاني، أبيتَ اللعنَ، أنَّكَ لُمْتَني   وتلكَ التي تَستكُّ منها المسامِعُ
مَقالةُ أنْ قد قلتَ: سوفَ أنالُهُ   وذلك، من تلقاءِ مثلكَ، رائعُ
لعمري، وما عمري عليَّ بهيّنٍ   لقد نَطَقَتْ بُطلاً عليّ الأقارعُ
أقارعُ عَوْفٍ، لا أحاولُ غيرَها   وُجُوهُ قُرُودٍ ، تَبتَغي مَنَ تجادِعُ
أتاكَ امرُؤٌ مُسْتَبْطِنٌ ليَ بِغْضَةً   لهُ من عَدُوٍّ، مثل ذلك، شافِعُ
أتاكَ بقَوْلٍ هَلهَلِ النّسجِ كاذبٍ   ولم يأتِ بالحقّ الذي هو ناصِعُ
أتاكَ بقَوْلٍ لم أكُنْ لأقولَهُ   ولو كَبُلتْ في ساعديّ الجوامعُ
حلَفْتُ ، فلم أترُكْ لنَفسِكَ رِيبةً   وهلْ يأثَمَنْ ذو أُمةٍ وهوَ طائِعُ؟
لكلفتني ذَنبَ امرئٍ وتركتَه   كذي العُرّ يُكوَى غيرُهُ، وهو راتعُ
فإن كنتُ لا ذو الضغنِ عني مكذَّبٌ   ولا حلفي على البراءةِ نافعُ
ولا أنا مأمُونٌ بشيءٍ أقُولُهُ   وأنتَ بأمرٍ، لا محالةَ، واقعُ
فإنّكَ كاللّيلِ الذي هو مُدْرِكي   وإنْ خِلْتُ أنّ المنتأى عنكَ واسِعُ
خطاطيفُ حجنٌ في جبالٍ متينةٍ   تمدّ بها أيدٍ إليكَ نوازعُ
أتوعدُ عبداً لم يَخُنْكَ أمانةً   وتتركُ عبداً ظالماً، وهوَ ظالعُ؟
وأنتَ ربيعٌ يُنعِشُ النّاسَ سَيبُهُ   وسيفٌ أُعِيرَتْهُ المنيّةُ قاطِعُ
أبى اللهُ إلاّ عَدلَهُ ووفاءَه   فلا النُّكرُ معروفٌ ولا العُرفُ ضائعُ
وتُسقَى، إذا ما شئتَ، غيرَ مصرَّدٍ   بزوراءَ في حافاتها المسكُ كانعُ

وطال الفراق، وتطاولت الأيام، حتى بلغَ النابغة أن النعمان عليلٌ لا يُرجى شفاؤه، فأشفقَ عليه، ورثا لحاله، وشدَّ الرحال إليه، فألفاه عليلاً يُحمل على أكتاف الرجال، فقال لحاجبه عصام بن شهبر مستفسراً عن حاله، وكان عصام صديقاً للنابغة:

ألم أُقْسِمْ عَلَيكَ لَتُخْبِرَنّي   أمحمولٌ على النَّعْشِ الهُمَامُ
فإنّي لا ألومُك في دخولي   ولكنْ ما وراءَكَ يا عِصَامُ
فإنْ يَهْلِكْ أبو قابُوسَ يَهْلِكْ   ربيعُ النَّاسِ والشهرُ الحرامُ
ونُمْسِك بعده بِذِنَابِ عيشٍ   أجَبِّ الظهر ليس له سَنَامُ

ويشفى النعمان، والنابغة مستتر يريد مَنْ يدخله عليه، ليلتمس له الأمان، وحصل له المراد حين تكفَّل زبّان ومنظور ابنا سيَّار الفزاري بذلك، وكان بينهما وبين النعمان مودة صافية، فدخلا عليه، فضرب لهما قبَّة، واتَّفقا مع قينة مغنية لتسمعهم أبياتاً من دالية النابغة المعلقة في اعتذاره من النعمان، فلمَّا سَمِعَ النعمان الشعر قال: أقسم بالله إنَّهُ لشعر النابغة. وسأل عنه.

فأخبره الفزاريان بخبره، وأنهما قد أجاره، وهو معهم، وسألا الملك العفو عنه. وهذا ما كان ينتظره النعمان، أن يقدم عليه النابغة ليحيي الأيام الخوالي؛ فقبل الملك العفو عن النابغة.

وهكذا، عفا النعمان عن النابغة، وأدناه منه، وزاد في حَبوته؛ فكان هذا وبالاً على الشعراء[1]، إذ هو إمامهم، وأنى للمتبوع أن يسبق إمامَهُ؟!

ولقد صدق مَنْ قال: أشعر الناس النابغة إذا رَهِبَ. لقد كانت اعتذارياته هي عيون شعره، ويكفيه أن إحداها كانت هي المعلقة التي سلَّم له الناس بتفوقه فيها. ولله در المتنبي حين قال:

ومـــا قَتَـــلَ الأحـــرارَ كـــالعفوِ عـــنهُمُ   وَمَـــنْ لـــكَ بالحـــرِّ الـــذي يحفـــظُ اليـــدا

---

(1) انظر قصة حسان بن ثابت في الأغاني: 28/2.

أبو شجرة بن عبد العزى السُّلمي[1]

ترجمته:

هو أبو شجرة عبد الله بن رواحة بن عبد العزَّى السُّلمي، يُنسب إلى جدّه. أمّه الخنساء الشاعرة.

كان شاعراً فاتكاً. ارتدَّ مع مَن ارتدَّ مِن قومه بني سُليم بعد وفاة النبيِّ ﷺ، وانهزم أمام جموع المسلمين الذين قادهم معن بن حاجز السُّلمي، ثم أمام خالد بن الوليد ﷺ، وعاد إلى الإسلام مَع مَنْ عادوا، وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، سنة (20 هـ)[2].

قصّته مع عمر ﷺ:

ارتدّ أبو شجرة مع قومه بني سليم بعد وفاة النبي ﷺ، وانحاز إلى جموع المرتدين، وقاتل معن بن حاجز الذي جعله الصديق أميراً لجيش المسلمين، ثم حارب جيش خالد بن الوليد، وقال في ردَّته معتزّاً بفعله، وبما سفكه من دماء المسلمين:

صَحَا القلبُ عَنْ مَيٍّ هَواهُ وأَقصَرا ... وطَاوَعَ فيها العاذلينَ فأَبصَرا
وأَصبحَ أَدنى رَائدِ الجهلِ والصِّبا ... كما وُدُّها عنَّا كذاك تَغيَّرا
وأَصبحَ أَدنى رائدِ الوَصلِ مِنهُمُ ... كما حَبلُها مِنْ حَبلِنا قد تَبتَّرا
ألا أَيُّها المُدْلِي بِكثرةِ قَومِهِ ... وحَظُّك مِنهُمْ أَنْ تُضَامَ وتُقهَرَا
سَلِ النَّاسَ عَنَّا كُلَّ يَومِ كَريهةٍ ... إذا ما التقينا دَارِعِينَ وحُسَّرا:
أَلسْنَا نُعاطي ذَا الطِّمَاحِ لِجامَهُ ... ونَطعنُ في الهَيَجَا إذا الموتُ أَقفَرَا
وعَاضِرَةٌ شَهباءُ تَخطِرُ بِالقَنا ... تَرى البُلقَ في حافاتِها والسَّنوَّرا[3]
فَروَّيتُ رُمحِي مِنْ كَتيبةِ خَالدٍ ... وإنِّي لأرجُو بَعدَها أَنْ أُعمَّرا

فلما رأى الدائرة على المرتدين، اضطر إلى العودة مع مَنْ عادوا.

فلما كان زمن عمر بن الخطاب ﷺ قَدِمَ المدينة، فأناخ ناقته بصعيد بني قريظة، وكان عمر يعطي المساكين من الصدقة، ويقسمها بين فقراء العرب، فقال: يا أمير المؤمنين! أعطني، فإني ذو حاجة.

قال: ومَنْ أَنتَ؟

قال: أبو شجرة بن عبد العزى السُّلمي.

---

(1) تاريخ الملوك والأمم: 3/266-267، والكامل في التاريخ: 3/207-208، والكامل في اللغة والأدب: 503-504.

(2) الأعلام: 3/119.

(3) السنوّر: كل سلاحٍ من حديد.

فامتعض وجه أمير المؤمنين وقال: أبو شجرة؟! أي عدو الله! ألستَ الذي تقول:

فَرَوَّيـــتُ رُمحِـــي مـــن كَتِيبـــةِ خَالـــدٍ   وإِنِّي لأرجُــــو بَعــــدَها أن أُعمَّـــــرا

ثم جعل يَعلُوه بالدرّة في رأسه، حتى سبقه أبو شجرة عَدواً، فرجع إلى ناقته فارتحلها، ثم أسندها في حرة شوران، راجعاً إلى أرض بني سليم، فقال:

ضَـــنَّ عَلينـــا أبـــو حَفـــصٍ بِنَائِلِـــهِ   وكـــلّ مختـــبطٍ يومـــاً لـــه وَرَقُ[1]

مـــا زالَ يُـــرهِقُني حَـــتَّى خَـــذِيتُ لَـــهُ   وحـــالَ مِـــنْ دُونِ بَعـــضِ الرَّغبـــةِ الشَّـــفَقُ

لمـــا رَهبـــتُ أبا حَفـــصٍ وشُـــرطَتَهُ   والشَّـــيخُ يَفـــزَعُ أَحيـــاناً فَيَنْحَمِـــقُ

ثم ارعويـــتُ إِليهـــا وَهـــيَ جَانحـــةٌ   مِثـــلَ الطَّريـــدةِ لم يَنبـــتَ لهـــا وَرَقُ[2]

أَوردتهـــا الخـــلَّ مـــن شَـــورانَ صـــادرةً   إِنِّي لأُزرِي عَليهـــا، وهـــي تَنطَلِـــقُ[3]

تَطِـــيرُ مَـــرْوُ أبانٍ عـــن مَناسِمِهـــا   كمـــا تُنوقِـــدَ عِنـــدَ الجهبـــذِ الـــوَرِقُ

إذا يُعارِضُـــــها خَـــــرقٌ تُعارِضُـــــهُ   وَرهـــاءُ فيهـــا إذا اســـتعجلتها خُـــرُقُ

يَنـــوءُ آخرُهـــا منهـــا بأوَّلِهـــا   سُـــرحُ اليـــدينِ بهـــا نَهَّاضَـــةَ العُنُـــقِ

وما ردّ أمير المؤمنين له إلاّ لأنه تفاخر بقتل المسلمين، ورأى أن قتلهم يزيد في عمره؛ فأراد أمير المؤمنين أن يريه أن طول العمر مقرون مع الذلّ... لا محبةَ ولا كرامةَ.

---

(1) الخبط: ضَرْبُ ورق الشجر حتى يتساقط، وينبت غيره، من غير أن يضرَّ هذا الضرب بأصل الشجرة وأغصانها.

(2) ارعويت إليها: راقبتها ونظرتُ إليها.

(3) حرة شوران: من حِرار الحجاز.

ضابئ بن الحارث البرجمي[1]

ترجمة الشاعر:

هو ضابئ[2] بن الحارث بن أرطاة، من بني غالب بن حنظلة التميمي البُرجمي، أدركَ الإسلامَ فأسلم. وكان شاعراً هجَّاءً بذيء اللِّسان، وقد أوقَعهُ لسانه في الحبس فلبث فيه حتى مات في خلافة عثمان بن عفان ﷺ.

قصته مع عثمان ﷺ:

كان ضابئ شاعراً بذيئاً، وكان يَقنصُ الوحش، فاستعار من بعض بني جرول بن نهشل كلباً اسمه قُرْحان، وكان يصيد به البَقَر والظِّباء والضِّباع، فطال مُكثه عندَه، فطلبوه فامتنعَ، فركبوا يطلبون كَلبَهُمْ، فقال لامرأته: اخلطي لهم في قِدرِكِ من لحوم البقرِ والظِّباءِ والضِّباع، فإن عَافُوا بعضاً، وأكلوا بعضاً؛ تركُوا كلبك لك. وإن هم لم يُفرِّقوا فلا كَلبَ لك.

فلما أَطعَمَهم أكلوهُ، ثم أخذوا كلبهم، فغَضِبَ ضابئ، ورمى أمَّهم بالكلب، وقال في هجائها وهجائهم:

تَجَشَّـــم نحـــوي وَفـــدُ قُرحـــانَ شـــقّةً ... تظـــلُّ بـــهِ الوَجنـــاءُ وهـــي حَسِـــيرُ
فَـــأَرْدَفَتْهُم كَلبـــاً فراحُـــوا كَأَنَّمـــا ... حَبَـــاهم بِتـــاجِ الهُرمُـــزانِ أَمـــيرُ
وقلَّـــدتُهم مـــا لـــو رميـــتُ مُتالعـــاً ... بِـــهِ وهـــو مُغـــبرّ لكـــادَ يطـــيرُ[3]
فيـــا راكبـــاً إمَّـــا عَرَضْـــتَ فـــبلِّغنْ ... أُمامـــةَ مِـــنّي، والأمـــورُ تـــدورُ
فـــأُمَّكُمُ لا تَتْرُكُوهـــا وَكَلْـــبَكُمْ ... فـــإِنَّ عُقُـــوقَ الوالِـــداتِ كَبِـــيرُ
فإِنَّـــكَ كَلْـــبٌ قـــد ضَـــرِيتَ بمـــا تَـــرَى ... سَمِيـــعٌ بمـــا فَـــوْقَ الفِـــرَاشِ بصـــيرُ
إذا عَثَّنَـــتْ مـــن آخِـــرِ اللَّيْـــلِ دُخْنَـــةً ... يَبيـــتُ لهـــا فَـــوْقَ الفِـــرَاشِ هَريـــرُ[4]

---

(1) طبقات فحول الشعراء: 172-175، والشعر والشعراء: 338-340، والكامل في اللغة والأدب: 502-503، وتاريخ الطبري: 402/4-403، وخزانة الأدب: 324/9-326، والإصابة في تمييز الصحابة: 933.
(2) الضَّابئ: اللاَّصق، مأخوذ من قولهم: ضَبَأت الأرض، أي: لَصِقتُ بها.
(3) مُتالع: جبل بنجد.
(4) غثنت: دخنت.

فلمَّا بلغهم الشعر، وأنه رمى أمَّهم بالكَلب، استعدوا عليه عثمان بن عفان ﷺ، وكان يحبسُ على الهجاء، فأرسلَ إليه فأنشده الشعرَ، فقال له عثمان ﷺ: «ما أعرفُ في العربِ أفحشَ ولا أَلأَمَ منكَ؛ فإني ما رأيتُ أحداً رمى أحداً بكَلبٍ غَيرَكَ، وإنِّي لأظُنُّكَ لو كنتَ في زمن النبي ﷺ لنزلَ فيكَ وحيٌ».

فحبسه في السِّجنِ، فقال فيه:

ومَــــنْ يَـــكُ أَمْسَـــىَ بالمدِينَـــةِ رَحْلُـــهُ ... فــــإني وقَيَّـــــاراً بهـــــا لَغَرِيـــــبُ
ومــا عــاجِلاتُ الطَّــيْرِ تُــدْنِي مــن الفَــتَى ... رَشَـــاداً ولا عـــن رَيْـــثِهنَّ يَخِيـــبُ
ورُبَّ أُمُـــــورٍ لا تَضِـــــيرُك ضَـــــيْرَةٌ ... ولِلْقَلْـــبِ مـــن مَخْشَـــاتِهِنَّ وَجِيـــبُ
ولا خَـــيْرَ فـــيمَنْ لا يُـــوَطِّنُ نفْسَـــهُ ... علـــى نائِبـــاتِ الـــدَّهْرِ حـــينَ تَنُـــوبُ
وفي الشَّـــك تَفْـــرِيطٌ، وفي الجَـــزْم قُـــوَّةٌ ... ويُخْطِـــئُ في الحَـــدْسِ الفَـــتَى ويُصِـــيبُ
ولَسْـــتَ بِمُسَـــتْبقٍ صَـــدِيقاً ولا أَخـــاً ... إِذَا لم تُفِـــدْهُ الشـــيءَ وهْـــوَ قَرِيـــبُ

فلما سمعها عثمان رقَّ له وأخرجه من السجن، وعرضه مع بقية السجناء، فخرجَ ضابئ وقد شدَّ سكيناً على ساقِهِ يريد أن يَفتِكَ بعثمان ﷺ، فَفَطِنَ له، فأُخذَ وضُرِبَ بالسِّياط، ثم أُمرَ به فحُبس ثانيةً، وفي ذلك يقول:

مَـــــنْ قَافِـــــلٌ أَدنى الإلـــــهِ ركابَـــــهُ ... يُبلِّـــغُ عـــني الشِّـــعرَ إِذْ مَـــاتَ قَائِلُـــهْ
وقائلــــةٍ إن مـــاتَ في السِّـــجنِ ضـــابئٍ ... لـــنعمَ الفـــتى نخلـــو بـــهِ ونواصـــلُهْ
وقائلـــــةٍ لا يَعَـــــدَنْ ذلـــــك الفَـــــتَى ... ولا تبعـــــدنْ أخلاقُـــــهُ وشمائلُـــــهْ
وقائِلـــــــةٍ لا يُبعِـــــــدُ الله ضـــــــابئاً ... إذا الكـــبشُ لم يُوجَـــدْ لَـــهُ مَـــنْ يُنازِلُـــهْ
فـــلا تقـــبلنْ بعـــدي امـــرؤٌ سِـــيمَ خُطَّـــةً ... حِـــذارَ لقـــاءِ المـــوتِ، والمـــوتُ نائِلُـــهْ
فـــــلا تتبعيـــــني إن هلكـــــتُ ملامـــــةً ... فلـــيسَ بعـــارٍ قَتـــلُ مَـــنْ لا أقاتلُـــهْ
فـــــإِنِّي وإيَّاكُـــــمْ وشـــــوقاً إلـــــيكُمُ ... كَقَـــابضِ مـــاءٍ لم تُطِعْـــهُ أَنَامِلُـــهْ
هَمَمْـــتُ ولم أَفْعَـــلْ وكِـــدْتُ ولَيْتَـــني ... تَرَكْـــتُ علـــى عثمـــانَ تَبْكِـــي حَلاَئِلُـــهْ
ومـــا الفتـــكُ مـــا أمَّـــرتَ فيـــهِ ولا الـــذي ... تُخَـــبِّرُ مَـــنْ لاقيـــتَ أَنَّـــكَ فَاعِلُـــهْ

ولم يزلْ في الحبس حتَّى أصابتهُ الدُّبيلة(1)، فأنتنَ، فمات في الحبس.

وكأنّ الله سبحانه قد جعل نهايته بمرضٍ يشبه حقيقة حاله؛ فنتن جوفه كما نَتن شعره؛ الخارج من جوفه. وصدقت العرب بقولها: إنّ العفوَ يُفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم، وقد قال الشاعر:

---

(1) الدُّبيلة: دُمَّل يظهر في الجوف، فيقتل صاحبه غالباً.

والعَفـــو عنـــدَ لبيـــبِ القـــومِ موعِظـــةٌ وبعضـــهُ لسَـــفيهِ القـــومِ تـــدريبُ

كعب بن زهير[1]

ترجمته:

هو كعب بن زهير بن (ربيعة) أبي سلمى بن قرط المزَني. من فحول الشعراء المخضرمين، عاشَ الجاهلية، وأدركَ الإسلامَ، فأَسلمَ.

وكان وفادته على النبي ﷺ سنة تسع للهجرة، منصرف النبي ﷺ من غزوة الطائف، بعد أن سبق منه تعريض بالنبي ﷺ، فأهدر النبي ﷺ دمه، حتى جاءه في هذه السنة مسلماً معتذراً.

وكانت وفاته سنة (26هـ)[2].

وقد نشأ كعب في بيت شِعر وأدب؛ فأبوه زهير أحد شعراء المعلقات، وأخوه بجير شاعر، وكذا بنوه من بعده. قال خلف الأحمر: لولا قصائدُ لزهير ما فضَّلتُهُ على ابنه كعب.

ومما يُستجاد من شعره غير البردة، قوله:

لــو كُنــتُ أَعجــبُ مِــنْ شــيءٍ لأعجَبَــني   سَــعيُ الفــتى وهــو مَخبــوءٌ لــهُ القَــدَرُ
يَســعَى الفــتى لأُمُــورٍ لــيسَ يُــدرِكُها   فــالنفسُ واحــدةٌ، والهــمُّ مُنتَشِــرُ
والمــرءُ مــا عــاشَ مَمــدودٌ لَــهُ أَمَــلٌ   لا تنتهــي العــينُ حــتى ينتهــي الأثــرُ

ومما يستجاد له أيضاً:

إنْ كُنــتَ لا تَرهَــبُ ذمِّــي لِمَــا   تَعْــرِفُ مِــنْ صَــفْحِي عــن الجاهــلِ
فــاخْشَ سُــكُوتي إذْ أَنا مُنصِــتٌ   فِيــكَ لمســموعِ خَنَــا القائــلِ
فالســامعُ الــذمِّ شــريكٌ لــهُ   ومُطِعــمُ المــأكولِ كالآكِــلِ
مقالــةُ السُّــوءِ إلى أهلِهــا   أســرَعُ مــن مُنْحَــدرٍ سَــائِلِ
ومَــنْ دَعــا النــاسَ إلى ذَمِّــه   ذمُّــوهُ بالحــقِّ وبالباطــلِ
فــلا تَهِــجْ إنْ كنــتَ ذا إربَــةٍ   حــرْبَ أخــي التجربــةِ العاقــلِ
فــإنَّ ذا العَقــلِ إذا هِجْتَــهُ   هجــتَ بــه ذا خَبَــلٍ خابــلِ

---

(1) سيرة ابن هشام: 4/113-125، وشرح قصيدة بانت سعاد لابن هشام بحاشية الباجوري: 2-5، والسيرة الحلبية: 3/239-240، ودلائل النبوة للبيهقي: 5/207-211، والأغاني: 17/82-91، وأسد الغابة: 4/449-451، والإصابة في تمييز الصحابة: 3/1688-1689، وطبقات فحول الشعراء: 1/99-1-103، ومجالس ثعلب: 408، والشعر والشعراء: 1/153-155، والمصون في الأدب: 194-198، وخزانة الأدب: 9/154-155.

(2) الأعلام: 5/226.

تُبْصــــــــرُ في عاجــــــــلِ شــــــــدَّاتِهِ   عليـــــكَ غِـــــبَّ الضَّـــرَر الآجــــلِ

قصّته مع النَّبيِّ ﷺ:

تبدأ قصة شاعرنا مع الإسلام برؤيا لأبيه زهير؛ حيث يروي أبو عمرو بن العلاء: أن زهيراً قال لبنيه: إنِّي رأيتُ في منامي سَبَباً دُلِّيَ من السَّماءِ إلى الأرضِ، فمَدَدْتُ يدي لأتناولَهُ فَفَاتَني؛ فَأَوَّلْتُهُ بالنَّبي الذي يُبعث في هذا الزمانِ، وإِنِّي لا أُدرِكُهُ، فَمَنْ أَدرَكَهُ منكم فليؤمن به.

فلما بعث الله محمداً ﷺ خرج ابنا زهير: كعب وبجير للسماع منه، واتباعه إن كان صادقاً! فلما بلَغا مكاناً يقال له: أبرق العزَّاف، قال بجير لكعب: اثبت في الغنم، حتى آتيَ هذا الرجل ـ يعني النبي ﷺ ـ فأسمعَ كلامه، وأعرف ما عنده.

وقدم بجير على النبي ﷺ، فسمع كلامه، ودخل الإسلامُ قلبه، ورأى به مصادق رؤية أبيه زهير؛ فأسلمَ، ولم يعد إلى أخيه ليخبره بخبر النبي حتى يكونا سواءً في الإسلام أو الشرك، فغضبَ كعبٌ لما بلغه إسلام أخيه، وكيف تفرَّد بالقرار دونه، وكأنه رأى أن النبي ﷺ قد سحره كما كانت قريش ترمي النبي ﷺ، فكتب إليه موبخاً له على الإسلام، ومعرّضاً بالنبي ﷺ يقول:

أَلا أَبْلِغَـــــا عَـــــنِّي بُجَـــــيْراً رِسَـــــالَةً   فَهَـلْ لَـكَ فِيمَـا قُلْـتُ وَيْحَـك هَـلْ لَكَـا؟
فَبَـــيِّنْ لَنَـــا إنْ كُنْـــتَ لَسْـــتَ بِفَاعِـــلٍ   عَلَـى أَيِّ شَـيْءٍ غَـيْرَ ذَلِـكَ دَلَّكَـا
سَـــقَاكَ بِهَـــا الْمَـــأْمُونُ كَأْســـاً رَوِيّـــةً   فَأَنْهَلَـــكَ الْمَـــأْمُونُ مِنْهَـــا وَعَلّكَـــا
وَخَالَفْـــتَ أَسْـــبَابَ الْهُـــدَى وَاتّبَعْتَـــهُ   عَلَـى أَيِّ شَـيْءٍ وَيْـبَ غَـيْرِك دَلّكَـا
عَلَـــى خُلُـــقٍ لَمْ تُلْـــفِ أُمّـــاً وَلا أَباً   عَلَيْـهِ وَلَمْ تُـدْرِكْ عَلَيْـهِ أَخـاً لَكَـا
فَـإِنْ أَنْـتَ لَمْ تَفْعَـلْ فَلَسْـتُ بِآسِـفٍ   وَلا قَائِـلٍ إمّـا عَثَـرْتَ لَعـاً لَكَـا[1]

وَبَعَثَ بِهَا إِلَى بُجَيْرٍ، فَلَمّا أَتَتْ بُجَيْراً كَرِهَ أَنْ يَكْتُمَهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَنْشَدَهُ إيّاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَمّا سَمِعَ "سَقَاك بِهَا الْمَأْمُونُ": «صَدَقَ وَإِنّهُ لَكَذُوبٌ، أَنَا الْمَأْمُونُ». وَلَمّا سَمِعَ "عَلَى خُلُقٍ لَمْ تُلْفِ أُمّاً وَلا أَبا عَلَيْهِ" قَالَ: «أَجَلْ، لَمْ يُلْفِ عَلَيْهِ أَبَاهُ وَلا أُمّهُ». ثم قال: «مَنْ لَقِيَ منكم كعب بن زهير فليقتُلهُ»، وذلك عند انصرافه من الطائف.

فلما سمع بُجَيْرٌ الأمر النبوي أرسل إلى أخيه كَعْبٍ يقول:

مَـــنْ مُبْلِـــغٌ كَعْبـــاً فَهَـــلْ لَـــكَ فِي الّـــتِي   تَلُـــومُ عَلَيْهَـــا بَاطِـــلاً وَهْـــيَ أَحْـــزَمُ

---

(1) لعاً لك: كلمة تُقال للعاثر، وهي دعاء له بالإقالة من عثرته.

إِلَى اللهِ (لا الْعُزّى وَلا اللاّتِ) وَحْدَهُ ... فَتَنْجُو إذَا كَانَ النّجَاءُ وَتَسْلَمُ
لَدَى يَوْمٍ لا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُفْلِتٍ ... مِنْ النّاسِ إلاّ طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ
فَدِينُ زُهَيْرٍ وَهُوَ لا شَيْءَ دِينُهُ ... وَدِينُ أَبِي سُلْمَى عَلَي مُحَرَّمِ

وكتب إليه: «إِنَّ رسول الله ﷺ قد أهدرَ دمكَ، وإنه قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وإِنَّ مَنْ بقيَ من شعراء مكة كابن الزِّبعرى وهبيرة بن أبي وهيب قد هربوا في كل وجهٍ، وما أَحسبُكَ ناجياً، فإنْ كانَ لك في نفسكَ حاجةٌ؛ فصرْ إليه، فإنه يقبلُ مَنْ أتاهُ تائباً، ولا يُطالبهُ بما تقدَّمَ الإسلام».

ومعلوم أن الشاعر إذا عرَّض بحاكم أو سيد شريف يفقد الأَمنَ والطمأنينة، ويلزمه الخوف والوحشة، ويسعى إلى الاستجارة بمن يوازيه مكانةً أو يفوقه منزلة ليأمنَ شره، وتسكن خواطره.

ولكنْ، هذا حال الشاعر مع حاكم أو سيِّد شريف، فما ظنّكَ بشاعرٍ تعرَّض لنبيٍّ؟! نبيٍّ مؤيدٍ بخبر السماء، محبوبٍ بين أتباعه، أَمرُهُ مطاعٌ، وقولُهُ صدقٌ، وخُلقُهُ عظيمٌ، ونصرُهُ مأَزَّرٌ من قِبَلِ الله، والبلادُ تدينُ لهُ، والجيوشُ تتحطَّم أمام جيشه المؤمن؛ أَتُرى هل يَأْمَنُ هذا الشاعر على نفسه وقد أُهدر دمه جزاءً لما فَاهَ بلسانِهِ؟ وكيف السبيل له حتى يتخلَّصَ مما دهاه ونزل به، أيظلّ طريداً هائماً مع الوحش بعد أن رفضتْ مزينةُ إجارتهُ؟ أم يهاجر بعيداً عن قومه وأهله ويحيا غريباً، فإن نجا في الدّنيا فكيف السبيلُ في الآخرة؟ أم الحلّ أن يُقدِمَ على هذا النبي الكريم، صاحب الخلق العظيم، المعروف بقلبه الرحيم؛ فيعتذرَ منه، ويضع نفسَهُ تحت أمره؛ مقرّاً بخطئه، ومكفراً عن سوء قوله؟

نعم، العاقل مَنْ اتَّعظ بغيره، والشقي من اتَّعظَ بنفسه، وقد سمع شاعرنا ما حصل لابن الزِّبعرى وهُبيرة بن أبي وهب، وكيف قُتل ابن خطل لما أُهدر دمه؛ عند ذلك خشي كعب أن يصيبه ما أصابهم، فسالت نفسه فزعاً، ودبَّ الخوف دبيبه، ولم يجد بُداً من الاستماع إلى نُصح أخيه؛ وهي أن يتخلَّص من غضب النبي ﷺ بالوصول إليه مسلماً، ويسعى إلى نزع غضبه بنفس الطريق الذي أثاره به؛ وهو الشعر.

فشدَّ المطيَّ إلى المدينة مُسلماً، ونزلها متخفِّياً على رجلٍ من جهينة صاحبٍ له، وسأل على أيِّ الرجال ألطفُ؛ فدُلَّ على أبي بكر الصديق ﵁، فجاءهُ وأعلمهُ بحالهِ وبمَقدمِهِ، وبأنه جاء مسلماً مكفِّراً عمَّا نطق لسانه؛ فسُرَّ الصديق بما سَمِعَ.

فلما كانت صلاة الصبح أتى به الصِّديق ﵁ إلى النبي ﷺ، وهو متلثِّم بعمامته ـ مخافة أن يعرفه أحد الصحابة فيقتله؛ لإهدار دمه، قبل أن يعفو النبي ﷺ عنه ـ، فوجده قد تحلَّق الصحب الكرام حولَهُ، وهو يحدِّثهم، فتخطَّى الحلق، حتى جلس إلى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ! رجلٌ يُبايُعكَ على الإسلام. وبسطَ يَدَهُ، وحسرَ عن وجهه، وقال: الأَمانَ يا رسولَ اللهِ!

قال: «وَمَنْ أنتَ؟».

قال: كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ.

قال: «أنت الذي يقولُ... كيف قال يا أبا بكر؟!» والتفتَ إلى أبي بكرٍ فأنشدهُ الأبيات حتى بلغ:

سَقَاكَ بِهَا الْمَأْمُورُ كَأْساً رَوِيّةً ... فَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُورُ مِنْهَا وَعَلّكَا

قال: يا رسول الله! ما قلتُ هكذا؟

قال: «فكيف قلتَ؟».

قال: إنما قلتُ:

سَقَاكَ بِهَا الْمَأْمُونُ كَأْساً رَوِيّةً ... فَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلّكَا

فقال ﷺ: «مأمونٌ واللهِ».

ولما عرَّف كعب بنفسه وَثَبَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! دَعْنِي وَعَدُوّ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «دَعْهُ عَنْك، فَإِنّهُ قَدْ جَاءَ تَائِباً، نَازِعاً عَمّا كَانَ عَلَيْهِ».

فَغَضِبَ كَعْبٌ عَلَى هَذَا الحَيّ مِنْ الأَنْصَارِ، لِمَا صَنَعَ بِهِ صَاحِبُهُمْ؛ وَذَلِكَ أَنّهُ لَمْ يَتَكَلّمْ فِيهِ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ إلا بِخَيْرٍ.

ولما أَمِنَ كعبٌ من غضب النبي ﷺ، وسَكَنَ روعه، وقَبِلَ النبي ﷺ إسلامه، أراد أن يُكفِّرَ عن أبياته السالفة، بقصيدة تصف حاله قبلَ وبعد الإسلام، فأنشدَ النبي ﷺ يقول(1):

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مُتَبْولُ ... مُتَيَّمٌ إثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إذْ رَحَلُوا ... إلاّ أَغَنَّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً عَجْزَاءُ مُدْبِرَةً ... لا يُشْتَكَى قِصَرٌ مِنْهَا وَلا طُولُ

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إذَا ابْتَسَمَتْ ... كَأَنّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ

شُجّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ ... صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهْوَ مَشْمُولُ

تَنْفِي الرّيَاحُ الْقَذَى عَنْهُ وَأَفْرَطَهُ ... مِنْ صَوْبِ غَادِيَةٍ بِيضٌ يَعالِيلُ

فَيَا لَهَا خُلّةً لَوْ أَنّهَا صَدَقَتْ ... بِوَعْدِهَا أَوْ لَوَ انّ النّصْحَ مَقْبُولُ

لَكِنّهَا خُلّةٌ قَدْ سِيطَ مِنْ دَمِهَا ... فَجْعٌ وَوَلْغٌ وَإِخْلافٌ وَتَبْدِيلُ

---

(1) انظر القصيدة كاملة مع شرح مفرداتها في: شرح قصيدة بانت سعاد لابن هشام بحاشية الباجوري: 8-84، وشرح قصيدة بانت سعاد لابن حجة الحموي: 27-64، وسيرة ابن هشام: 4/115-123.

فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا ... كَمَا تَلَوّنُ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ
وَمَا تَمَسّكُ بِالْعَهْدِ الّذِي زَعَمَتْ ... إلاّ كَمَا يُمْسِكُ الماءَ الْغَرَابِيلُ
فَلا يَغُرّنْكَ مَا مَنّتْ وَمَا وَعَدَتْ ... إنّ الأَمَانِيّ وَالأَحْلامَ تَضْلِيلُ
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً ... وَمَا مَوَاعِيدُهَا إلاّ الأَبَاطِيلُ
أَرْجُو وَآمُلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدّتُهَا ... وَمَا إخَالُ لَدَيْنَا مِنْكِ تَنْوِيلُ
أَمْسَتْ سُعَادُ بِأَرْضٍ لا يُبَلّغُهَا ... إلاّ العِتَاقُ النّجِيبَاتُ المَرَاسِيلُ
وَلَنْ يُبَلّغَهَا إلاّ عُذَافِرَةٌ ... لَهَا عَلَى الأَيْنِ إرْقَالٌ وَتَبْغِيلُ

وبعد أطنب في وصف ناقته، وصف حال كربه وخوفه حين أهدر النبي ﷺ دمه، وكيف تغيرت تلك الحال لما أسلم وقَبِل النبي ﷺ توبته، فقال:

تَسْعَى الْغُوَاةُ جَنَابَيْهَا وَقَوْلُهُمْ: ... إنّك يَا بْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ
وَقَالَ كُلّ صَدِيقٍ كُنْتُ آمُلُهُ: ... لا أُلْهِيَنّكَ إنّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ: خَلّوا سَبِيلِي لا أَبَا لَكُمْ ... فَكُلّ مَا قَدّرَ الرّحْمَنُ مَفْعُولُ
كُلّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلامَتُهُ ... يَوْماً عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ
نُبّئْتُ أَنّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي ... وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ
مَهْلاً هَدَاكَ الّذِي أَعْطَاك نَافِلَةَ الْـ ... ـقُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ
لا تَأْخُذَنّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ ... أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِيّ الأَقَاوِيلُ
لَقَدْ أَقُومُ مَقَاماً لَوْ يَقُومُ بِهِ ... أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الفِيلُ
لَظَلّ يَرْعَدُ إلاّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ... مِنَ الرّسُولِ بِإِذْنِ اللهِ تَنْوِيلُ
حَتّى وَضَعْتُ يَمِينِي مَا أُنَازِعُهُ ... فِي كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قِيلُهُ القِيلُ
فَلَهُوَ أَخْوَفُ عِنْدِي إذْ أُكَلّمُهُ ... وَقِيلَ إنّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْؤُولُ
مِنْ ضَيْغَمٍ بِضَرَاءِ الأَرْضِ مُخْدَرُهُ ... فِي بَطْنِ عَثّرَ غِيلٌ دُونَهُ غِيلُ
يَغْدُو فَيُلْحِمُ ضِرْغَامَيْنِ عَيْشُهُمَا ... لَحْمٌ مِنَ النّاسِ مَعْفُورٌ خَرَادِيلُ
إذَا يُسَاوِرُ قِرْناً لا يَحِلّ لَهُ ... أَنْ يَتْرُكَ الْقِرْنَ إلاّ وَهُوَ مَفْلُولُ
مِنْهُ تَظَلّ سِبَاعُ الجَوّ نَافِرَةً ... وَلا تَمَشّى بِوَادِيهِ الأَرَاجِيلُ
وَلا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخُو ثِقَةٍ ... مُضَرّجُ الْبَزّ وَالدّرْسَانِ مَأْكُولُ
إنّ الرّسَولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُهَنّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

فلمَّا أنشده البيت السابق، أشارَ النبي ﷺ إلى الخلقِ: أنْ اسمعوا.

فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمّا أَسْلَمُوا زُولُوا
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلا كُشُفٌ ... عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلا مِيلٌ مَعَازِيلُ
شُمّ الْعَرَانِينِ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمْ ... مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ
بِيضٌ سَوَابغُ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقٌ ... كَأَنَّهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ
لَيْسُوا مَفَارِيحَ إنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ ... قَوْماً وَلَيْسُوا مَجَازِيعاً إِذَا نِيلُوا
يَمْشُونَ مَشْيَ الْجِمَالِ الزّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ... ضَرْبٌ إِذَا عَرّدَ السّودُ التّنَابِيلُ
لا يَقَعُ الطّعْنُ إلاَّ فِي نُحُورِهِمْ ... وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ

فلما فرغ كعب من إنشاد القصيدة، خلعَ عليه النبي ﷺ بردتَهُ، وكساه إياها، وبقيت عند بنيه حتى اشتراها منهم معاوية بن أبي سفيان ﷺ بعشرين ألف درهم، وتناقلها بعده الخلفاء.

ولموقف الأنصاري منه لما همَّ بقتله، فقد عرَّض كعبٌ بالأنصار في عدة مواضع منها قوله:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً ... وَمَا مَوَاعِيدُهَا إلاَّ الأَبَاطِيلُ[1]
يَمْشُونَ مَشْيَ الْجِمَالِ الزّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ... ضَرْبٌ إذَا عَرّدَ السّودُ التّنَابِيلُ

فلما سمع المهاجرون بذلك قالوا: ما مَدَحنا مَنْ هجا الأنصار، وأنكروا قوله، وعوتب على ذلك فقال:

مَنْ سَرّهُ كَرْمُ الْحَيَاةِ فَلا يَزَلْ ... فِي مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحِي الأَنْصَارِ
وَرِثُوا الْمَكَارِمَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ ... إنّ الخِيَارَ هُمُ بَنُو الأَخْيَارِ
المكْرِهِينَ السّمْهَرِيّ بِأَذْرُعٍ ... كَسَوَالِفِ الْهِنْدِيّ غَيْرَ قِصَارِ
وَالنّاظِرِينَ بِأَعْيُنٍ مُحْمَرّةٍ ... كَالجَمْرِ غَيْرَ كَلَيْلَةِ الأَبْصَارِ
وَالْبَائِعِينَ نُفُوسَهُمْ لِنَبِيّهِمْ ... لِلْمَوْتِ يَوْمَ تَعَانُقٍ وَكِرَارِ
وَالْقَائِدِينَ النّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ ... بِالمشْرَفِيّ وَبِالقَنَا الخَطَّارِ
يَتَطَهَّرُونَ يَرَوْنَهُ نُسْكاً لَهُمْ ... بِدِمَاءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الكُفَّارِ
دَرِبُوا كَمَا دَرِبَتْ بِبَطْنِ خَفِيّةٍ ... غُلْبُ الرّقَابِ مِنَ الأُسْوَدِ ضَوَارِي
وَإِذَا حَلَلْتَ لِيَمْنَعُوك إلَيْهِمُ ... أَصْبَحْتَ عِنْدَ مَعَاقِلِ الأَغْفَارِ

---

(1) عرقوب: رجل من الأوس، يُضرب به المثل في إخلاف الوعد.

ضَـــرَبُوا عَلِيّـــاً يَـــوْمَ بَـــدْرٍ ضَـــرْبَةً دَانَـــتْ لِوَقْعَتِهَـــا جَمِيـــعُ نِـــزَارِ[1]

لَـــوْ يَعْلَـــمُ الأَقْـــوَامُ عِلْمِـــي كُلّـــهُ فِـــيهِمْ لَصَـــدّقَنِي الّـــذِينَ أُمَـــارِي

قَـــوْمٌ إذَا خَـــوَتِ النّجُـــومُ فَـــإِنّهُمْ لِلطَّـــارِقِينَ النّـــازِلِينَ مَقَـــارِي

فِي الْغُـــرّ مِـــنْ غَسّـــانَ مِـــنْ جُرْثُومَـــةٍ أَعْيَـــتْ مَحَافِرُهَـــا عَلَـــى الْمِنْقَـــارِ

* * *

وهكذا عرف كعب كيف ينجو، وعلمَ أن الإسلامَ يجبّ ما قبله، فجبَّ أبياته الجاهلية بقصيدة إسلامية سُمّيتْ بالبردة؛ فلله درها من جائزة! ولله درّها من قصيدة! ولله درّه من شاعر! ولله أنت يا بجير من ناصح!

---

(1) هو علي بن مسعود بن مازن.

الحطيئة[1]

ترجمته:

هو أبو مُليكة جرول بن أوس بن مالك العَبسي. لُقِّبَ بالحطيئة لِقصره وقُربه من الأرض. وقيل: سمِّي بذلك لدمامته.

ولد الحطيئة في الجاهلية سِفَاحاً من أمةٍ كانت لبنت رياح بن عوف الشيباني، فنشأ مغموز النسب، مما جعله ناقماً على المجتمع وأعرافه. وزاد على ذلك قُبح وجهه؛ فضاعف في نقمته، ودفعه إلى التعرض لهذا المجتمع ورموزه مدحاً إنْ أعطوا، وهجاءً إنْ مَنعُوا.

وهو شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم، ثم ارتد وعاد في خلافة أبي بكر. إلا أنه كان رقيق الإسلام، لم يلامس شغاف قلبه.

سجنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ في شعرٍ قالهُ بالزبرقان بن بدر ﷺ، ثم أطلقه بعد أن اعتذر إليه مما قاله؛ فاشترى الخليفة لسانه صيانة لأعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم.

وعاش إلى أيام معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وتوفي نحو سنة (45 هـ).

والحطيئة من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم، متصرِّف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب، مجيد في ذلك أجمع. وكان من مدرسة زهير التي تُعنى بتنقيح الشعر وحسن سبكه.

وكان ذا شَرٍّ وسَفَهٍ، ونسبه متدافع بين قبائل العرب، وكان ينتمي إلى كل واحدة منها إذا غضب على الآخرين.

وقال الأصمعي يذكر طباع الحطيئة: كان الحطيئة جَشِعاً سَؤُولاً مُلحِفاً، دَنِيءَ النَّفسِ، كثيرَ الشَّرِّ، قليلَ الخيرِ، بخيلاً، قبيحَ المنظرِ، رثَّ الهيئةِ، مغموزَ النسبِ، فاسدَ الدينِ، وما تشاء أن تقولَ في شعر شاعر من عَيبٍ إلا وجدته، وقلما تجد ذلك في شعره.

وقد بلغ الشر به أن هجا أباه الذي أتى به إلى الحياة سفاحاً، وهجا أمَّه الذي مكَّنت هذا الجاني، وهجا نفسه، ولم يسلم من التعريض زوجه وولده.

وأكثر ما يتَّضح جشعه ولؤمه وقلة الخير وفساد دينه في وصيته التي قالها قبل وفاته، حيث يروي صاحب الأغاني عن أبي عبيدة[2] قوله:

---

(1) ديوان الحطيئة بشرح السكري، والأغاني: 2/157-201، وطبقات فحول الشعراء: 1/112-121، والشعر والشعراء: 1/310-316، وخزانة الأدب: 2/406-413.

(2) الأغاني: 2/195-197، وديوان الحطيئة: 238-239، ومجمع الأمثال: 3/170-172.

«لما حَضرتِ الحطيئة الوفاةُ اجتمع إليه قومه فقالوا: يا أبا مليكة أوصِ.

فقال: ويلٌ للشعر من راوية السوءِ.

قالوا: أوص رَحمك الله يا حُطَيءُ!

قال: مَنْ الذي يقول:

إذا أَنْــبَضَ الرَّامــون عنهـــا تَرَنَّمَـــتْ   تـــرنُّمَ ثَكْلَـــى أَوجعتَهـــا الجنــــائزُ

قالوا: الشماخ.

قال: أبلغوا غَطفان أنه أشعر العرب.

فقالوا: ويحك أهذه وصيةٌ؟ أوص بما ينفعك.

قال: أبلغوا أهل ضابئ أنه شاعر حيث يقول:

لِكــــلِّ جَديـــدٍ لـــــذَّةٌ غـــيرَ أنّـــني   رأيـــتُ جديـــدَ المـــوتِ غـــيرَ لذيـــذِ

قالوا: أوص ويحك بما ينفعك.

قال: أبلغوا أهل امرئ القيس أنه أشعر العرب حيث يقول:

فَيَـــا لَـــكَ مـــن لَيْـــلٍ كـــأنَّ نجومَـــهُ   بكـــلِّ مُغَـــارِ الفَتْـــل شُـــدَّتْ بِيَـــذْبُلِ

قالوا: اتق الله، ودع عنك هذا.

فقال: أبلغوا الأنصار أن صاحبهم أشعر العرب حيث يقول:

يُغْشَـــوْنَ حـــتىّ مـــا تَهِـــرُّ كلابُهـــم   لا يَسْـــألونَ عـــن السَّـــوَادِ المقْبِـــلِ

قالوا: هذا لا يغني عنك شيئاً فقل غير ما أنت فيه. فقال:

الشِّـــعْرُ صَـــعْبٌ وطويـــلٌ سُـــلَّمُهْ   إذا ارتقَـــى فيـــه الـــذي لا يَعْلَمُـــهْ

زَلَّـــت بـــه إلى الحَضِـــيضِ قَدَمُـــهْ   والشِّـــعر لا يَسْـــطِيعُهُ مَـــنْ يظلمُـــهْ

يريـــــدُ أن يعربـــــهُ فَيُعْجِمُـــــهْ   مَـــنْ يَســـمِ الأعـــداءَ يبـــقَ مِيســـمُهْ

قالوا: هذا مثل الذي كنت فيه. فقال:

قـــد كنـــتُ أحيـــاناً شـــديدَ المعتَمَـــدْ   وكنـــتُ ذا غـــربٍ علـــى الخَصْـــمِ أَلَـــدّ

* فَوَرَدَتْ نفسي وما كادتْ تَرِدْ *

قالوا: يا أبا مليكة! ألك حاجة؟

قال: لا والله، ولكن أجزع على المديح الجيد يُمدَحُ به مَنْ ليس له أهلاً!

قالوا: فمَنْ أشعر الناس؟

فأومأ بيده إلى فيه وقال: هذا الحُجَير إذا طَمِعَ في خير . يعني فمه. واستعبر باكياً فقالوا له: قل لا إله إلا الله فقال:

قالـــــتْ وفيهـــــا حَيْـــــدَةٌ وذُعْـــــرُ عَـــــوْذٌ بِـــــرَبِّي مِـــــنْكُمُ وحُجْـــــرُ

فقالوا له: ما تقول في عبيدك وإمائك؟

فقال: هم عبيدٌ قِنٌّ ما عَاقبَ الليلُ النهارَ.

قالوا: فأوص للفقراء بشيء.

قال: أوصيهم بالإلحاح في المسألة؛ فإنها تجارة لا تبور، واستُ المسؤول أضيقُ.

قالوا: فما تقول في مالك؟

قال: للأنثى من ولدي مِثْلا حظِّ الذكر.

قالوا: ليس هكذا قضى الله جل وعز لهن!

قال: لكني هكذا قضيت!

قالوا: فما تُوصي لليتامى؟

قال: كُلوا أموالهم، ونِيكوا أمهاتهم.

قالوا: فهل شيء تَعهدُ فيه غير هذا؟

قال: نعم تحملوني على أتان، وتتركوني راكبها حتى أموتَ؛ فإن الكريم لا يموتُ على فراشه، والأتان مَركَب لم يَمُتْ عليه كريمٌ قَطّ.

فحملوه على أتان، وجعلوا يذهبون به ويجيئون عليها حتى مات، وهو يقول:

لا أحـــــــدٌ ألأمُ مـــــــن حُطَيَّـــــــهْ هجـــــا بَنِيـــــهِ وهجـــــا المرَيَّـــــهْ

* من لُؤمِه ماتَ على فُرَيَّهْ[1] *

وعلى الرغم من كوني لا أطمأن إلى كلّ تفاصيل هذه الوصية، إلا أنها تعطي انطباعاً واضحاً عن حياة هذا الشاعر المغترب، الذي يرى العالم عدواً يناصبه العداء، بدءاً من ولادته سفاحاً، مروراً بدمامة وجهه، انتهاءً بسوء طبعه الذي جعل من لسانه سيفاً مُسلطاً على رقاب الأشراف، يستنزفهم أموالهم، ليصونوا أعراضهم، والويل لهم إن مَنعوه أو قاربوا!

قصته مع الزِّبرقان وعمر رضي الله عنهما:

(1) الفرية: الأتان.

كان الزبرقان[1] بن بدر بن امرئ القيس بن خلف بن بَهَدَلة بن عوف ببن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم عاملاً للنبي ﷺ على الصدقة، وأُقر على عمله خلافة أبي بكر ﷺ.

ثم قدم على عمر ﷺ في سنة مجدبة ليؤدي صدقات قومه، فلقيه الحطيئة بقرقرى، ومعه ابناه أوس وسوادة وبناته وامرأته، فقال له الزبرقان وقد عرفه، ولم يعرفه الحطيئة: أين تريدُ؟

فقال الحطيئة: العراقَ، فقد حَطَمَتْنَا هذه السنةُ.

فقال له: وتصنعُ ماذا؟

قال الحطيئة: وددتُ أن أُصادفَ بها رجلاً يَكفِيني مؤونة عيالي، وأصفيه مدحي أبداً.

فطمع الزبرقان بمدح الحطيئة وقال: قد أصبتَهُ، فهل لك فيه يوسعكَ لبناً وتمراً، ويُجاورُك أحسنَ جوارٍ، وأكرمَهُ.

فقال له الحطيئة: هذا ـ وأبيك ـ العيشُ، وما كنت أرجو هذا كله.

قال الزبرقان: فقد أصبتَه.

فقال الحطيئة متلهفاً: عندَ مَنْ؟

قال: عندي.

قال: ومَنْ أنتَ؟

قال: الزبرقان بن بدر.

قال: وأين محلُّك؟

قال: اركب هذا الإبل، واستقبل مطلع الشمس، وسل عن القمر حتى تأتي منزلي.

فلحق الحطيئة بزوجته وهي هنيدة بنت صعصعة بن ناجية المجاشعية، وذلك في سنة صعبة مجدبة، فأكرمته المرأة، وأحسنت إليه. فبلغ وفادة الحطيئة على أهل الزبرقان بغيض بن عامر بن شماس بن لأْي بن جعفر ـ وهو أنف الناقة ـ بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وبلغ إخوته وبني عمه فأرادوا اغتنام فرصة قدومه عليها، وغياب الزبرقان لسلب ضيافته منهم؛ لأنهم يعلمون أن مَدحَهُ يرفع، وهجاءَهُ يضع، ولا سيما وأنهم يُعيَّرون بلقب أنف الناقة[2]، فطمعوا في أن يرفع هذا اللقب السبّة بمدحةٍ من قبله.

---

(1) الزِّبرقان: القمر، والرجل الخفيف اللحية.

(2) كان بنو جعفر بن قريع يغضبون من لقب أنف الناقة، وإنما سُمِّي جعفر أنف الناقة؛ لأن أباه قريعاً نَحَرَ ناقةً فقسمها بين نسائه، فبعثت أمّ جعفر ـ واسمها الشَّموس ـ ابنها جعفراً لتأخذ منها، ولم يبق من الناقة إلا رأسها وعنقها، فقال: شأنك بهذا. فأدخل يده

وكان بنو جعفر بن قريع بن عوف ينازعون الزبرقان الشرفَ والمكانة، وكانوا أشرف منه، إلا أنّ الزبرقان علاهم بنفسه وهمّته.

ولأنَّ الحطيئة كان دميماً سيِّئ الخلق، تزدريه العين، ومعه عيال كذلك؛ هان على زوج الزبرقان شأنه، وقصَّرت به. ونظر بغيض وبنو أنف الناقة إلى ما تصنع به هنيدة فأرسلوا إليه: أن ائتنا. فأبى عليهم وقال: إنَّ مِنْ شأنِ النساء التقصيرَ والغفلةَ، ولست بالذي أحملُ على صاحبها ذنبَها.

فلما ألحَّ عليه بنو أنف الناقة، وكان رسولهم إليه شماس بن لأي وعلقمة بن هوذة وبغيض بن شماس والمخبَّل الشاعر، قال لهم: لست بحاملٍ على الرجلِ ذَنبَ غيره، فإن تُرِكْتُ وجُفِيتُ تحوَّلتُ إليكم.

عند ذلك بدؤوا بإحداث وقيعة بين المضيف والضيف؛ حيث دسوا إلى هنيدة زوجة الزبرقان أنَّ الزبرقان إنما جعل الحطيئة في ضيافته لأنه يريد أن يتزوج ابنته مليكة ـ وكانت جميلة كاملة ـ فظهرت من المرأة للحطيئة جفوة وهي في ذاك تُداريه.

ثم أرادوا النجعة بحثاً عن المرعى، فقالت له هنيدة: قد حضرت النجعة، فاركب أنت وأهلك هذه الإبل إلى مكان كذا وكذا، ثم اردده إلينا حتى نلحقك، فإنه لا يسعنا جميعاً.

فأرسل إليها: بل تقدَّمي أنت، فأنت أحقّ بذلك؛ ففعلت، وتثاقلت عن ردِّها إليه، وتركته يومين أو ثلاثة، وألح بنو أنف الناقة عليه وقالوا له: قد تُرِكْتَ بمضيعةٍ.

وكان أشدهم في ذلك قولاً بغيض بن شماس وعلقمة بن هوذة، وكان الزبرقان قد قال في علقمة:

لي ابـــــــنُ عـــــــمٍّ لا يـــــــزا ... لُ يَعِيبُـــــــني ويُعـــــــينُ عائـــــــبْ
وأعينُـــــــــــــــهُ في النائبـــــــــــا ... تِ ولا يُعـــــينُ علـــــى النَّوائِـــــبْ
تَسْـــــــــــــــري عَقَارِبُـــــــــــــه إليَّ ... ولا تَـــــــدِبُّ لـــــــهُ عقـــــــاربُ
لأَهِ ابـــــــنُ عَمِّـــــــكَ لا يَخَـــــــا ... فُ المخْـــــزناتِ مـــــن العواقـــــبْ

فكان علقمة ممتلئاً غيظاً عليه.

فلما ألحّوا على الحطيئة ورأى ما وقعَ له من زوج الزبرقان أجابهم، وقال: أما الآن فنعم أنا صائرٌ معكم.

في أنفها، وجر ما أعطاه؛ فسمي أنف الناقة. حتى مدحهم الحطيئة بقوله:

قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ ... ومَنْ يسوّي بأنفِ الناقةِ الذنبا

فتحمَّل معهم، فضربوا له قبَّةً، وربطوا بكل طُنُبٍ من أطنابها جُلَّة هَجَرِيَّة، وأراحوا عليه إبلهم، وأكثروا له من التمر واللبن، وأعطوه لقاحاً[1] وكسوةً.

فلما قدم الزبرقان على أهله سأل عن الحطيئة، فأُخبر بقصته، فنادى في بني بهدلة بن عوف ـ وهم لأُمٍّ دون قريع أُمّهم السفعاء بنت غنم بن قتيبة من باهلة ـ فركب الزبرقان فرسه، وأخذ رمحه، وسار حتى وقف على نادي بني شماس القريعيين فقال: رُدُّوا عليَّ جاري.

فقالوا: ما هو لك بجارٍ، وقد اطَّرحتهُ وضيَّعتَهُ.

فكادت تكون الحرب بين الحيين لأجل الحطيئة، ثم حضرهم أهل العقل والفطنة من قومهم، فلاموا بَغيضاً وقالوا: اردُد على الرجل جَارَهُ.

فقال: لستُ مُخرِجَهُ وقد آويتهُ، وهو رجلٌ حُرٌّ مَالِكٌ لأمرِهِ فَخَيِّرُوه، فإن اختارني لم أُخرجْهُ، وإن اختاره لم أُكرهْهُ.

فخيروا الحطيئة، فاختار بغيضاً ورهطه، فجاء الزبرقان ووقف عليهِ، وقال له: أبا مليكة! أفارقتَ جِواري عن سَخَطٍ وذَمٍّ — وكأنه خافه أن يهجوه بسوء الجوار فتكون سبة بحقه.

فقال الحطيئة: لا. فانصرف وتركه.

وانطلق لسان الحطيئة يمدح بني أنف الناقة، ولا سيما بغيض بن عامر، من غير أن يهجو الزبرقان، وهم يحضونه على ذلك ويحرِّضونه ليسقطوا مكانته، ولكنَّ الحطيئة كان يأبى ويقول: لا ذنب للرجل عندي. وقد قال في مدحهم سبع قصائد، فمما قال مدحاً فيهم[2]:

طافـــت أُمامـــةُ بالرُّكبـــانِ آوِنَـــةً … يا حســـنَهُ مِـــن قـــوامٍ مـــا ومُنتقبـــا
إذ تســـتبيكَ بمصـــقولٍ عوارضُـــهُ … حَمْـــشِ اللِّثـــاتِ تـــرى في غربِـــهِ شَـــنبا
قـــد أخلقـــتْ عهـــدَها مِـــن بَعْـــدِ جِدَّتِـــهِ … وكـــذَّبَتْ حـــبَّ ملهـــوفٍ ومـــا كَـــذَبا
بِحَيْـــثُ يَنْسَـــى زِمَـــامَ العَـــنْسِ رَاكِبُهـــا … ويُصْـــبحُ المـــرءُ فيهـــا نَاعِســـاً وَصِـــبَا
مُسْـــتَهْلِكِ الـــوِرْدِ كالأُسْـــدِيِّ قـــد جَعَلَـــت … أيـــدي المِطِـــيِّ بـــه عَادِيَّـــةً رُغُبـــا
يَجتـــازُ أجـــوازَ قفْـــرٍ مـــن جوانبِـــه … يأوي إليـــه ويَلْقـــى دونـــه عَتَبَـــا
إذا مَخـــارمُ أَحْيـــاءٍ عرَضْـــنَ لـــهُ … لم يَنْـــبُ عنهـــا وخـــاف الجَـــوْرَ فاعتَتَبَـــا
والـــذِّئبُ يطرُقُنـــا في كـــلِّ منزلـــةٍ … عَـــدْوَ القـــرينينِ في آثارِنا خَبَبـــا

---

(1) اللِّقاح: جمع لقوح؛ الناقة الحلوب.

(2) ديوان الحطيئة: 11-18.

قالت أمامةُ: لا تَجْزعْ، فقلتُ لها: إنَّ العَزاءَ وإنَّ الصَبْرَ قد غُلبا
هلاّ التَمَستِ لنا، إنْ كنتِ صادقةً،   مالاً فيُسكننا بالخُرجِ أو نَشَبَا
حتى نُجازيَ أقواماً بسعيهمُ   من آلِ لأيٍ وكانوا سادةً نُجُبَا
لن يَعْدَمُوا رائحاً من إرْثِ مَجْدِهِمُ   ولن يَبِيتَ سِوَاهُمْ حِلْمُهُمْ عَزَبَا
لا بُدَّ في الجِدِّ أن تلقى حفيظتَهُمْ   يومَ اللقاءِ وعِيصاً دونَهم أَشِبا
رَدُّوا على جارِ مولاهمْ بمهلكةٍ   لولا الإلهُ ولولا عَطفُهم عَطَبا
فوفَّروا مالَهُ من فضلِ مالِهِمُ   لولا الإلهُ ولولا سَعيُهم ذَهَبا
لن يتركُوا جارَ مولاهُمْ بمتلفةٍ   غَبْرَاءَ ثُمَّتَ يَطْوُوا دونهُ السَّبَبا
سيري أُمامَ فإنَّ الأكثرين حصًى   والأَكْرَمين إذا ما يُنْسَبُونَ أبا
قومٌ يبيتُ قريرَ العينِ جارُهُمُ   إذا لوى بقُوى أطنابهم طُنُبا
قَوْمٌ إذا عَقَدوا عَقْداً لِجَارِهِمُ   شَدُّوا العِناجَ وشَدُّوا فوقه الكَرَبا
قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ   ومنْ يسوِّي بأنفِ الناقةِ الذّنبا
أَبلِغْ سَرَاةَ بني سعدٍ مُغلغلةً   جهدَ الرِّسالةِ لا ألتاً ولا كَذِبا
ما كان ذَنْبُ بَغِيضٍ، لا أَبَا لَكُمُ،   في بائسٍ جاء يحدو أَيْنُقاً شُسُبَا
حَطَّتْ بهِ من بلادِ الطَّوْدِ عاريةٌ   حَصَّاءُ لم تَتَّرِكْ دونَ العَصَا شَذَبا
ما كان ذَنْبُكَ في جارٍ جَعَلْتَ لهُ   عيشاً وقد كان ذاقَ الموتَ أو كَربا
جارٍ أبيتَ لعوفٍ أن يُسبَّ بهِ   أَلْقَاهُ قَوْمٌ جُفَاةٌ ضَيَّعُوا الحَسَبَا
أَخْرَجْتَ جارَهُمُ من قَعْرِ مُظْلِمَةٍ   لَو لم تُغِثْهُ ثَوَى في قَعْرِهَا حِقَبا

وقال يمدحهم[1]:

ألا طَرَقَتْنا بعدَ ما هَجَدُوا هندُ   وقَدْ سِرْنَ غَوْرَاً واستبان لنا نَجْدُ
ألا حبّذا هندٌ وأرضٌ بها هِندُ   وهِنْدٌ أتى مِنْ دُونِها النَّأْيُ والبُعْدُ
وهندٌ أتى من دونِها ذو غَوارِبٍ   يُقمِّصُ بالبوصيّ مُعرورِفٌ وَرْدُ
وإنَّ التي نَكَّبْتها عن مَعَاشِرٍ   عليَّ غِضابٍ أن صددتُ كما صدّوا
أتَتْ آلَ شمّاسِ بن لأيٍ وإنّما   أتاهُمُ بها الأحْلامُ والحَسَبُ العِدُّ
فإنَّ الشَّقِيَّ من تُعَادِي صدُورُهم   وذو الجِدِّ مَنْ لانُوا إليه ومَنْ ودُّوا

(1) ديوان الحطيئة: 39-42.

يَسُوسون أحلاماً بَعِيداً أَنَاتُها   وإنْ غَضِبُوا جاءَ الحفيظةُ والجِدُّ
أقِلُّوا عليهِمْ لا أبا لأبيكُمُ   من اللومِ أو سُدُّوا المكانَ الذي سَدُّوا
أولئك قومٌ إنْ بَنَوْا أحْسَنُوا البُنَى   وإن عاهدُوا أوفوا وإن عقدوا شدُّوا
وإنْ كانت النُّعْمَى عليهم جَزَوْا بها   وإنْ أنعموا لا كدَّرُوها ولا كَدُّوا
وإنْ قال مولاهُمْ على جُلِّ حادثٍ   من الدَّهرِ رُدُّوا فضلَ أحلامِكُمْ رَدُّوا
وإنْ غابَ عن لأيٍ بغيضٌ كفَتهمُ   على مُعظمٍ، ولا أديمَكُمُ قدّوا
مطاعينَ في الهيجا مكاشيف للدُّجَى   بَنَى لهُمُ آباؤهم وبَنَى الجَدُّ

وقال أيضاً(1):

فدعْ آلَ شمّاسِ بن لأيٍ فإنّهم   على مرقبٍ ما حولهُ هو قاهرُهْ
وفاخِرْ بهم في آل سعدٍ فإنَّهم   مَوَاليك أو كَاثِرْ بهم مَنْ تُكَاثرُهْ
فإنَّ الصَّفَا العادِيَّ لن تَستطيعَهُ   فأَقْصِرْ ولم يَلحَقْ من الشَّرِّ آخِرُهْ
أتحصرُ قوماً أنْ يَجُودوا بمالِهِم   فهلاَّ قتيل الهرمزانِ تُحاصرُهْ
فلا المالُ إن جادُوا به أنتَ مَانِعٌ   ولا العزُّ من بُنيانهم أنتَ عاقرُهْ
ولا هادِمٌ بُنْيَانَ ما شُرِّفَتْ لهُ   قريعُ بن عوفٍ خلفهُ وأكابرُهْ
ألم أكُ مسكيناً إلى اللهِ مسلماً   على رأسِهِ أن يظلمَ الناس زاجرُهْ
فإنْ تَكُ ذا عِزٍّ حديثٍ فإنّهم   لهُمْ إرثُ مجدٍ لم تَخُنْهُ زوافرُهْ
وإنْ تَكُ ذا شَاءٍ كَثيرٍ فإنّهم   ذَوو جامِلٍ لا يَهْدَأُ الليلَ سامِرُهْ
وإنْ تَكُ ذَا قَرْمٍ أزَبَّ فإنَّهُمْ   يُلاقي لهم قرمٌ هجانٌ أباعِرُهْ
لهمْ سَورةٌ في المجدِ لو ترتدي بها   بَرَاطِيلُ جَوَّابٍ نَبَتْ ومَنَاقِرُهْ
قَرَوا جارك العيمان لما تركْتَهُ   وقلَّصَ عن بَردِ الشّرابِ مَشَافِرُهْ
سَناماً ومحضاً أنبتا اللحم فاكتستْ   عِظَامُ امرئٍ ما كان يَشْبَعُ طائِرُهْ
همُ لاحَمُوني بعدَ جَهدٍ وفاقةٍ   كما لاحَمَ العَظْمَ الكسيرَ جبائرُهْ

وقال يمدح آل لأيٍ(2):

ألا هبّتْ أمامة بعد هَدءٍ   على لَوْمِي وما قضَّتْ كَرَاهَا

---

(1) ديوان الحطيئة: 19-25.

(2) ديوان الحطيئة: 63-66.

فبِـــتُّ مُراقبـــاً للـــنَّجمِ حـــتَّى تجلَّـــتْ عـــن أواخرِهـــا دُجاهـــا
فقلـــتُ لهـــا: أمـــامَ دَعـــي عِتـــابي فـــإنّ الـــنفسَ مُبديـــةٌ نثاهـــا
ولـــيس لَهَـــا مـــن الحَـــدَثانِ بُـــدٌّ إذا مـــا الـــدَّهْرُ عـــن عُـــرُضٍ رَماهـــا
فهـــل أخـــبرتِ أو أبصـــرتِ نفســـاً أتَاهـــا في تَلَمُّسِـــهَا مُنَاهَـــا
فقـــد خلَّيتـــني ونجـــيَّ هـــمٍّ تشـــعَّبَ أَعْظُمِـــي حـــتّى بَراهـــا
كـــأنّي ســـاورتني ذاتُ ســـمٍّ نَقِيـــعٍ مـــا تُلائِمُهـــا رُقَاهـــا
لَعمـــرُ الرّاقصـــاتِ بكُـــلِّ فـــجٍّ مِـــنَ الرُّكبـــانِ مَوعِـــدُها مناهـــا
لقـــد شَـــدَّتْ حَبائـــلُ آلِ لأْيٍ حِبَـــالِيَ بَعْـــدَمَا رَثَّـــتْ قُواهـــا
ومـــا تتَّـــامُ جـــارةُ آلِ لأيٍ ولكـــنْ يضـــمنون لهـــا قراهـــا
كِـــرامٌ يَفْضُـــلُونَ قُـــرُومَ سَـــعْدٍ أُولِي أَحْسَـــابِهَا وأُولِي نُهاهـــا
وهُـــمْ فَرَعُـــوا الـــذُّرَا مـــن آلِ سَـــعْدٍ إذا مـــا عُـــدَّ مـــن سَـــعْدٍ ذُراهـــا
ويَبْـــنِي المجـــدَ راحِـــلُ آلِ لأْيٍ علـــى العَوْجـــاءِ مُضْـــطَمِراً حَشَـــاها
ويَسْـــعَى للسياســـة مُـــرْدُ لأْيٍ فتـــدرِكُها ومـــا وصـــلتْ لِحَاهـــا
وخُطَّـــةُ ماجِـــدٍ في آلِ لأْيٍ إذا مـــا قـــام صـــاحبُها قضـــاها
فـــلا نَكـــراءُ بالمعْـــروفِ يومـــاً وغـــاياتُ المكـــارمِ مُنتَهاهـــا
لَعَمْـــرُكَ مـــا تُضَـــيِّعُ آلُ لأْيٍ وثيقـــاتِ الأمـــور إلى عُراهـــا
ومـــا تَرَكَـــتْ حَفَائِظَهـــا لأَمْـــرٍ أَلَمَّ بهـــا ومـــا صَـــغُرَتْ لُهاهـــا
ومَـــنْ يطلـــبْ مســـاعي آلِ لأيٍ تَصَـــعَّدُهُ الأُمُـــورُ إلى عُلاهـــا
إذا اعوجَّـــتْ قَنـــاةُ المجـــد يومـــاً أقامُوهـــا لِتَبْلُـــغَ مُنْتَهَاهـــا
فكـــانوا العـــروةَ الـــوُثقَى إذا مـــا تَصَـــعَّدَتِ الأمـــورُ إلى عُراهـــا
وأحـــلامٌ إذا طُلبـــتْ إلـــيهم ولَيْسُـــوا يُعْجَلُـــونَ لهـــا إناهـــا

ولكنه وتحت إصرار بني أنف الناقة رفع حدّة تعريضه بالزبرقان، من ذلك قوله يمدحهم(1):

شَـــاقَتْكَ أظعـــانٌ لليـــ ـــلى يـــومَ ناظـــرةٍ بـــواكرْ
في الآلِ يحفزُهـــا الحـــدا ةُ كأنَّهـــا سُـــحُقٌ مَـــوَاقِرْ
كظِبَـــاءِ وَجـــرةَ ســـاقهنَّ إلى ظـــلالِ السِّـــدرِ نَاجِـــرْ

(1) ديوان الحطيئة: 31-38.

وقـــــدَتْ بـــــه الشِّـــــعْرَى فألَّـــــ   ـــــفَتِ الخُـــــدُودَ بهـــا الهـــــواجِرْ

يا ليلـــــــــةً قـــــــد بتُّهـــــــا   بجـــدودَ نـــومُ العـــين ســـاهرْ

وَرَدَتْ عَلـــــــــيَّ همومُهـــــــــا   ولكُـــــــــلِّ واردَةٍ مَصَـــــــــادِرْ

وإذا تُبَاشِـــــــــرُكَ الهُمُـــــــــو   مُ فإنَّهـــــــا دَاءٌ مُخَـــــــامِرْ

ولَقَـــــدْ تُقَضِّـــــيها الصَّرِيـــــــ   ـــــمَةُ عنـــك والقَلِـــقُ العُـــذَافِرْ

هَـــــلاَّ غَضِـــبْتَ لِرَحْـــلِ جَـــا   رِكَ إذْ تُنَبِّـــــذُهُ حَضَـــــاجِرْ

أغـــــــررتني وزعمـــــــتَ أنَّـــــــ   ـــــكَ لابِـــنٌ بالصَّـــيفِ تامِـــرْ

فلقـــــد صَـــــدَقْتَ فَهَـــلْ تَخَـــا   فُ بأن تـــدور بـــك الـــدوائرْ

وأمـــــــرتني كيمـــــــا أُجـــــــا   مـــعَ عُصـــبةً فيهـــا مقـــاذِرْ

ولحيتـــــــــــني في معشـــــــــــرٍ   هُـــمْ أَلْحَقُـــوكَ بِمَـــنْ تُفـــاخِرْ

وَلَقَـــــــــدْ سَـــــــــبَقْتَهُمُ إليَّ   فقـــد نزعـــتَ وأنـــت آخِـــرْ

شَـــــغَلُوا مـــــؤازِتي عليـــــــ   ـــــكَ الآنَ فـــابْتغِ مَـــنْ تُـــؤازِرْ

ومنعـــــــت وَفـــــــرَاً جُمِّعـــــــتْ   فيهـــــا مذمّـــــــةٌ خنـــــاجرْ

فكفاكهـــــــا سَمـــــــحُ اليديـــــــ   ـــــنِ بِصَـــالحِ الأخْـــلاقِ مـــاهِرْ

سَمـــــحٌ أخـــــو ثقـــــةٍ شُـــــجا   عٌ لا تُنهنهـــــــــهُ المزاجـــــــرْ

حـــــتَّى إذا حَصَـــــلَ الأُمُـــــو   رُ وصـــارَ للحســـبِ المصـــائرْ

وتـــــبرَّز النُّجُـــــبُ الجيـــــا   دُ وقامـــتِ الكُـــذُبُ المحـــامرْ

وغَرِقَـــــتْ في زَبَـــــدٍ تَعُـــــو   مُ خِـــلالَ لجَّتـــهِ القراقـــرْ

أنشـــأتَ تطلـــبُ مـــا تغـــبَّر   بعـــدما نشـــب الأظـــافرْ

إنِّي نهــــــــاني أنْ أَعيبـــــــــك   ماجـــدُ الجـــدَّين فـــاخرْ

قَـــــرمٌ لقَـــــرمٍ ماجـــــدٍ   مـــا إنْ يُنـــافرهُ المنـــافرْ

هـــو مـــدَّ بيـــت المجـــدِ حيـــ   ـــثُ بنـــاه شمَّـــاسٌ وعـــامرْ

فجـــزى الإلـــه أخـــي بغيـــ   ـــضاً خـــيرَ مـــا يُجـــزَى المعاشِـــرْ

إخْـــوانُ عَلْقَمَـــةَ بـــنِ هَـــوْ   ذةَ كـــلُّ غاليـــةٍ مياســـرْ

الواهـــبُ المائـــةَ الهجَـــا   نَ معـــاً لهـــا وَبـــرٌ مُظـــاهر

وإذا الحُـــــزُونُ وطِئْنَـــــهُ   صـــلَّ الفراســـنُ والكراكـــرْ

وإذ الفصـــــيلُ دعونَـــــهُ   صـــدحتْ لـــهُ منهـــا عشـــائرْ

عطفـــــــوا علـــــــيَّ بغـــــير آ صــــرةٍ فقـــد عَظُـــمَ الأواصِـــرْ
حـــتى وعَيْـــتُ كَـــوَعْي عَـــظْ ـــمِ الســـاقِ لاحَمَـــهُ الجَبَـــائِرْ
يتقـــــرَّبُ المجـــــــدُ البعيــــــ ـــدُ بحيـــث يغضـــب مَـــنْ يُفـــاخرْ
وهُـــــمُ سَـــقَونِي المحْـــــضَ إذْ قلصـــت عـــن المـــاءِ المشـــافرْ
وتفـــرَّعَ الحســـبَ الجسيـــــ ـــمَ إذا يُفـــاخرُ أو يُكـــاثِرْ

وبقي يصون لسانه في الزبرقان، مكتفياً - أحياناً - بالتعريض، حتى أغرى الزبرقان رجلاً من النَّمر بن قاسط يقال له: دثار بن شيبان فهجا بغيضاً فقال فيه:

أرَى إبلـــي بِجَـــوْفِ المـــاءِ حَلَّـــتْ وأَعْوزَهـــا بـــهِ المـــاءُ الـــرَّواءُ
وقـــد وَرَدَتْ مِيَـــاهَ بـــني قُرَيـــعٍ فمـــا وصـــلُوا القرابـــةَ مـــذ أســـاؤوا
تُحَـــلأُ يـــومَ وِرْد النـــاس إبْلِـــي وتَصْـــدُرُ وهـــيَ مُحْنقـــةٌ ظِمَـــاءُ
ألم أكُ جـــارَ شمّـــاسِ بـــنِ لأْيٍ فأســـلَمَني وقـــد نـــزلَ الـــبَلاءُ
فقلـــتُ: تحـــوَّلِي يا أمَّ بَكْـــرٍ إلى حيـــثُ المكـــارمُ والعَـــلاَءُ
وجـــدْنا بيـــتَ بَهْدَلـــةَ بـــنِ عَـــوْفٍ تعـــالى سَمْكُـــه ودَحَـــا الفَنَـــاءُ
ومـــا أَضْـــحى لشَـــمَّاسِ بـــن لأْيٍ قَـــديمٌ في الفَعـــالِ ولا رَبَاءُ
سِـــوَى أن الحطيئَـــة قـــال قَـــولاً فهـــذا مـــن مقالتِـــهِ جَـــزاءُ

فحينئذ قال الحطيئة يهجو الزبرقان ويناضل عن بغيض(1):

ألا أبلـــغَ بـــني عـــوفِ بـــن كعـــبٍ وهـــل قـــومٌ علـــى خُلُـــقٍ ســـواءُ
عُطارِدَهـــا وبهدلـــةَ بـــن عـــوفٍ فهـــل يشـــفي صـــدورَكمُ الشّـــفاءُ
أَلمْ أكُ نائيـــاً فـــدَعَوْتُمُوني فجـــاء بي المواعـــدُ والـــدُّعاءُ
أَلَمْ أكُ جـــارَكم فترَكْتُمُـــوني لِكَلْـــبي في ديارِكـــمُ عُـــوَاءُ
وآنَيْـــتُ العَشَـــاءَ إلى سُـــهَيْلٍ أو الشِّـــعْرَى فطـــالَ بِيَ الأَنَاءُ
فلمَّـــا كُنـــتُ جَـــارَكُمُ أَبَيْـــتُمْ وشَـــرُّ مَـــواطِنِ الحَسَـــبِ الإِبَاءُ
ولمـــا كُنـــتُ جَـــارَهُمُ حَبَـــوْنِي وفـــيكم كـــان، لـــو شـــئتم، حِبـــاءُ
ولَمَّـــا أنْ مَـــدَحْتُ القَـــوْمَ قُلْـــتُمْ: هجـــوتَ ولا يحـــلُّ لـــك الهجـــاءُ
ألم أكُ مُســـلماً فيكـــون بيـــني وبيـــنكمُ المـــودَّةُ والإخـــاءُ

---

(1) ديوان الحطيئة: 53-62.

فلَمْ أَشْتُمْ لكُمْ حَسَباً ولكنْ ... حَدوتُ بحيثُ يُستمعُ الحداءُ

ولا وأبيكَ ما ظلمتْ قريعٌ ... بأن يبنُوا المكارمَ حيث شاؤوا

فلا وأبيكَ ما ظلمتْ قريعٌ ... ولا بَرِمُوا بذاك ولا أساؤوا

بِعثرة جارِهم أن يجبروها ... فَيَغْبُرَ حَوْلَهُ نَعَمٌ وشَاءُ

فيبني مجدَها ويقيمُ فيها ... ويمشي إن أُريد له المشَاءُ

وإنَّ الجارَ مثلَ الضيفِ يَغْدُو ... لوجْهتِهِ وإن طال الثَّواءُ

وإنّي قد عَلِقْتُ بحبلِ قومٍ ... أعانَهُمُ على الكَسبِ الثَّراءُ

هُمُ المتضمّنون على المنايا ... بِمَالِ الجارِ ذلكُمُ الوَفاءُ

همُ الآسونَ أُمَّ الرَّأسِ لما ... تواكلَها الأطبّةُ والإساءُ

همُ القومُ الَّذينَ إذا ألمتْ ... منَ الأيامِ مُظلمِةٌ أضاؤوا

همُ القومُ الَّذين عِلمْتُموهمْ ... لدى الدّاعي إذا رُفِعَ اللّواءُ

إذا نَزَلَ الشّتاءُ بجارِ قومٍ ... تجنَّبَ دارَ بيتِهمُ الشّتاءُ

فَأَبْقُوا، لاَ أَبا لَكُمُ، عَلَيْهم ... فإن مَلامَةَ المولى شَقاءُ

فإنّ أباكُمُ الأَدْنَى أَبُوهُمْ ... وإن صدورَهُم لكُمُ بُرَاءُ

وإن سُعاتُهُمْ لكُمُ سُعاةٌ ... وإنّ نَمَاءَهُمْ لكُمُ نَمَاءُ

وإنَّ سناءَهم لكُمُ سَناءٌ ... وإنَّ وفاءَهُمْ لكمُ وَفاءُ

وإنَّ بلاءَهُمْ ما قد عَلِمْتُمْ ... على الأَيَّامِ إنْ نَفَعَ البَلاءُ

وثَغْرٍ لا يُقَامُ به كَفَوْكُمْ ... ولم يكُ دُونَهم فيكمُ كِفاءُ

بجمهورٍ يَحَارُ الطّرفُ فِيهِ ... يظلُّ مُعضِّلاً منه الفضاءُ

ولَمَّا أنْ دَعَوْتُ أخي بغيضاً ... أتاني حيثُ أسمعهُ الدّعاءُ

فَضَلْتَ بخصلَتينِ على رجالٍ ... وَرِثْتَهُما كما وُرِثَ الوَلاءُ

فجُدتَ بنائلٍ سَبطٍ جَزيلٍ ... تُخالطُهُ الحفيظةُ والحياءُ

فأمضى من سِنان أثْربيٍّ ... طَعَنْتَ به إذا كُرِهَ المِضاءُ

إذا بَهَشَتْ يداهُ إلى كَميٍّ ... فليسَ لهُ وإنْ زُجِرَ انتهاءُ

وقد قالت أمامةُ: هل تعزّى ... فقلتُ: أُمَيْمُ قد غُلِبَ العَزاءُ

إذا ما العَيْنُ فَاضَ الدّمعُ منها ... أَقُوْلُ بها قَذًى وهُوَ البُكَاءُ

لَعَمْرُكَ ما رأيتُ المرْءَ تَبْقَى ... طَرِيقَتُهُ وإنْ طالَ البَقَاءُ

علـــى رَيْـــبِ المنُـــونِ تَدَاوَلَتْـــهُ ... فَأَفْنَتْـــهُ ولـــيسَ لهـــا فَنـــاءُ
إذا ذهـــبَ الشَّـــبابُ فبـــانَ منـــهُ ... فلـــيسَ لِمَـــا مضـــى منـــه لِقـــاءُ
يَصَـــبُّ إلى الحيـــاةِ ويَشْـــتَهِيهَا ... وفي طُـــولِ الحيـــاة لـــه عَنـــاءُ
فمنهـــا أنْ يُقَـــادَ بـــهِ بَعِـــيرٌ ... ذَلـــولٌ حـــين يهـــترشُ الضِّـــراءُ
ومنهـــا أن ينـــوءَ علـــى يديـــهِ ... ويَظْهَـــرَ في تَرَاقِيـــهِ انْحِنَـــاءُ
ويأخـــذُهُ الهُـــداجُ إذا هـــداهُ ... وليـــدُ الحـــيِّ في يـــده الـــرِّداءُ
وينظـــرُ حولَـــهُ فـــيرى بنيـــهِ ... حِـــواءً مِـــنْ ورَائِهِـــمُ حِـــوَاءُ
ويَخْلِـــفُ حَلْقَـــةً لِبَـــنِي بَنيـــهِ ... لأمسُـــوا مُعطِشـــين وهـــم رواءُ
ويأمـــرُ بالجمـــالِ فـــلا تُعشَّـــى ... إذا أمْسَـــى وإنْ قَـــرُبَ العَشَـــاءُ
إذا كـــان الشـــتاءُ فـــأدفئوني ... فـــإنَّ الشـــيخَ يهدمُـــهُ الشِّـــتاءُ
وأمَّـــا حـــينَ يـــذهبُ كـــلُّ قـــرٍّ ... فســـربالٌ خفيـــف أو رِداءُ
تَقُـــولُ لـــهُ الظَّعِينَـــةُ: أَغْـــنِ عَـــنِّي ... بعـــيرَك حـــين لـــيس بـــه غنـــاءُ

ويبدو أن الحطيئة قد دبَّ فيه الحماس، وعلت همَّته للهجاء؛ لاسيما وأن بني أنف الناقة ينفثون فيه، وهذا ما جعله يقذع في هجائه، ويقول في الزبرقان[1]:

والله مـــا معشـــرٌ لامـــوا امـــرأً جُنُبـــاً ... مـــن آلِ لأيِ بـــن شمّـــاسٍ بأكيـــاسِ
عـــلامَ كلَّفتـــني مجـــدَ ابـــن عمِّكُـــمُ ... والعِـــيسُ تخـــرجُ مـــن أعـــلامِ أوطـــاسِ
مـــا كَـــانَ ذَنْـــبُ بَغِـــيضٍ لا أبا لكُـــمُ ... في بائِـــسٍ جـــاءَ يَحْـــدُو آخِـــرَ النَّـــاسِ
لَقَـــدْ مَـــرَيْتُكُمُ لَـــو أنَّ دِرَّتَكُـــمْ ... يَومَـــاً يجـــيءُ بهـــا مَسْـــحِي وإبْسَاسِـــي
وقـــد مَـــدَحْتُكُمُ عَمْـــداً لأُرْشِـــدَكُمْ ... كيمـــا يكـــونَ لكـــم مَتحِـــي وإمراسِـــي
فمـــا ملكـــتُ بأنْ كانـــتْ نفوسُـــكُمُ ... كَفَـــارِكٍ كَرِهَـــتْ ثَـــوْبِي وإلْبَاسِـــي
لمـــا بَـــدَا ليَ مـــنكُمْ غَيْـــبُ أنفسِـــكم ... ولَمْ يَكُـــنْ لجِرَاحِـــي فـــيكُمُ آســـي
أزمعـــت يأســـاً مُبينـــاً مـــن نـــوالِكم ... ولـــن تـــرى طـــارداً للحـــرِّ كاليـــاس
أنا ابـــنُ بَجـــدَتِها عِلمـــاً وتجربـــةً ... فسَـــلْ بِسَـــعدٍ تجـــدني أعلـــمَ النَّـــاسِ
مـــا كـــانَ ذنـــبُ بغـــيضٍ أن رأى رجـــلاً ... ذا فاقـــةٍ عـــاش في مســـتوعرٍ شـــاسِ
جـــارٌ لقـــومٍ أَطَـــالُوا هُـــونَ منزِلِـــه ... وغـــادرُوهُ مقيمـــاً بـــينَ أَرْمـــاسِ

---

(1) ديوان الحطيئة: 105-109.

مَلُّـــــوا قِــــــرَاه وهَرَّتْـــــهُ كلابُهُـــــم وجَرَّحُـــــــوهُ بأنيـــــابٍ وأَضْـــــراسِ
دَعِ المكــــــارمَ لا تَرحَـــــلْ لبُغْيَتِهـــــا واقعُـــدْ فإنــكَ أنــتَ الطَّــاعِمُ الكاسِــي
وابعـــــثْ يســـــاراً إلى وفــــرٍ مُذمَّمَــــةٍ واحــدجْ إليهــا بــذي عَــركينِ قِنعــاسِ
ســيري أُمــامَ فــإنَّ الأكثــرينَ حصًــى والأكـــــرمينَ أباً مــــن آل شمـــــاسِ
مَــنْ يَفْعَــلِ الخَــيرَ لا يَعْــدَمْ جَوَازِيَــه لا يــذهبُ العُــرْف بــين الله والنــاسِ
مــا كــانَ ذنــبي أن فَلَّــتْ مَعَــاوِلَكم مــن آلِ لأْيِ صَــفَاةٌ أصــلُها رَاسِــي
قــد ناضَــلُوكَ فسَــلُّوا مــن كنَــائِنهم مجــداً تَلِيــداً ونَــبْلاً غــير أَنْكــاسِ

فلما بلغت الأبيات الزبرقان . ولا سيما قوله: دع المكارم . استعدى عليه عمر بن الخطاب ﷺ، وأنشده الأبيات وركز على قوله: دع المكارم، فقال له عمر: ما أسمعُ هجاءً، ولكنها مُعاتبةٌ!

فقال: يا أمير المؤمنين! أو ما تبلغُ مروءتي إلا أن آكلَ وأشربَ؟! سل ابن الفريعة — يريد حسان بن ثابت.

فأرسل أمير المؤمنين إلى حسان ﷺ فسأله: ما تقول؟ أهجاه — وعمر يعلم ما يعلم حسان من أنه هجاه، ولكنه أراد أن يُقيم الحجة عليه بقول حَكَمٍ شاعر.

فقال حسان ﷺ: لم يهجه، ولكنْ سَلَحَ عليه[1]! — ويقال: إنه سأل لبيد بن ربيعة فحكم بنفس الحكم.

فقال له عمر ﷺ: يا خبيث! لأشغلنَّك عن أعراض المسلمين. فحبسه في بئر لا ماء فيه.

ولما استقرّ الحطيئة في البئر راجع نفسه، وأراد أن يعتذر عما صدر عنه، فكتب إلى الخليفة يقول[2]:

أمـــينَ الخليفـــةِ بعـــد الرســـولِ وأوفى قـــــريشٍ جميعـــــاً حِبـــــالا
وأطـــــولهَم في النَّـــــدى بَســـــطةً وأفضــــلَهُمْ حــــين عُــــدُّوا فِعــــالا
أَعُــــوُذ بجَـــــدِّكَ إِنِّي امـــــرؤٌ سَــقتْني الأعــادي إليــكَ السِّــجَالاَ
فإنَّـــــكَ خَـــــيرٌ مـــــن الزِّبرقـــــانِ أشـــدُّ نَكَـــالاً وأَرْجَـــى نَـــوَالاَ
تحـــنَّنْ علـــيَّ، هَـــدَاك المليـــكُ، فـــإنّ لكـــلِّ مقـــامٍ مَقَـــالاَ
ولا تأخُـــــذَنِّي بقـــــولِ الوُشَـــــاةِ فـــإنّ لكـــلِّ زمـــانٍ رِجَـــالاَ

---

(1) سلح عليه: أي أخرج ما في بطنه عليه. ويروى: ذَرقَ عليه، وهو بنفس المعنى.
(2) ديوان الحطيئة: 69-70، والأغاني: 187/2.

فـــإن كـــان مـــا زَعَمُـــوا صـــادقاً فسِـــيقَتْ إليـــكَ نســـائي رِجَـــالاً
حَوَاسِـــــرَ لا يشـــــتكينَ الوَجَـــــا يُخَفِّضْـــــــنَ آلاً ويــــــــرفَعْنَ آلا

ولكن ما قاله لم يرقِّق قلب الخليفة عليه، فلم يأبه لكلامه. وكان خطأ الحطيئة أنه خاطب الخليفة عمر ﷺ بما يُخاطب به الملوك، وتغافل ـ أو نسي ـ أنه الخليفة الزاهد العابد الذي لا يأبه للألقاب ولا للأقوال بقدر ما يأبه للأفعال، ولم يخاطب قلبه، ولكن خاطب منصبه!

ويبدو أن الحطيئة أدرك خطأه في التعبير عن حاجته، فغيَّر أسلوبه، وكتب إلى الخليفة بأبياتٍ تذرف دمعاً، وتقطر دماً، فقال(1):

مـــاذا تقـــولُ لأفـــراخٍ بـــذي مَـــرَخٍ زغـــبِ الحواصِـــلِ لا مـــاءٌ ولا شَـــجرُ
أَلقيـــتَ كاســـبَهم في قَعـــرِ مُظلِمـــةٍ فـــاغفرْ عليـــك سَـــلامُ الله يا عمـــرُ
أنـــتَ الإمـــامُ الـــذي مِـــنْ بَعـــدِ صـــاحبِهِ ألقـــى إليـــكَ مَقاليـــدَ النُّهَـــى البَشَـــرُ
لم يُـــؤثِروك بهـــا إذ قـــدَّموك لهـــا لكِـــنْ لأنفسِـــهم كانـــتْ بـــكَ الأُثَـــرُ
فـــامنُنْ علـــى صِـــبيةٍ بالرَّمـــلِ مَســـكَنُهُمْ بـــينَ الأباطـــحِ تَغْشـــاهم بهـــا القِـــرَرُ
أهلـــي فـــدَاؤُكَ كـــم بيـــني وبيـــنهُمُ مـــن عَـــرْض داويـــة تَعْمَـــى بهـــا الخُـــبُرُ

فلمَّا سَمِعَ أمير المؤمنين ﷺ هذه الأبيات رقَّ له، ودمعتْ عينُهُ، فأمر بإطلاق الحطيئة، فجيء به إليه، وقال له: إيَّاكَ وهجاء الناس.

فقال الحطيئة: إذاً يموتُ عيالي جوعاً، هذا مكسبي، ومنه معاشي.

قال: فإياك والمقذعُ من القول.

قال: وما المقذع؟

قال: أن تُخَايرَ بين الناس، فتقول: فلان خيرٌ من فلان، وآل فلان خيرٌ من آل فلان.

فقال الحطيئة: فأنت والله أهجى مني.

ثم قال له عمر: والله لولا أن تكون سنةٌ لقطعت لسانك.

فوعده الحطيئة ألا يعود إلى مثل قوله. وزيادةً في التأكيد على الحطيئة اشترى أمير المؤمنين ﷺ منه أعراضَ المسلمين بثلاثة آلاف درهم، تُغنيه عن المديح والهجاء، وفي ذلك يقول الحطيئة(2):

يا أيُّهـــا الملِـــكُ الـــذي أَمْسَـــتْ لَـــهُ بُصـــرى وغـــزّة سَـــهلُها والأجـــرعُ

---

(1) ديوان الحطيئة: 164-165.

(2) ديوان الحطيئة: 232-234.

ومليكُها وقَسيمها عن أمرِهِ ... يُعطَى بأمرِكَ ما تشاءُ ويمنعُ
أَشْكُو إليك فَأَشْكِني ذُرِّيَّةً ... لا يَشْبَعُونَ وأُمُّهُمْ لا تَشْبَعُ
كَثُرُوا عليَّ فلا يموتُ كبيرُهُمْ ... حتّى الحِسَابِ ولا الصَّغِيرُ المُرْضَعُ
وجَفاءَ مَوْلايَ الضَّنينِ بِمَالِهِ ... ووُلُوعَ نَفْسٍ هَمُّها بِيَ مُوزَعُ
والحرفةَ القُدمى وأنَّ عَشيرنا ... زَرَعُوا الحروثَ وأنّنا لا نزرعُ
فَبُعِثْتَ للشُّعراءِ مَبْعَثَ دَاحِسٍ ... أَوْ كالبَسُوسِ عِقالُها يَتَكَوَّعُ
ومنعتَني شَتمَ البخيلِ فلم يَخَفْ ... شَتمي فأصبحَ آمناً لا يَفزَعُ
وأخَذْتَ أَطْرَارَ الكَلامِ فَلَمْ تَدَعْ ... شَتماً يضرُّ ولا مديحاً ينفعُ
وبُعِثْتَ للدُّنْيَا تُجَمِّعُ مَالَها ... وتَصرُّ جزيتها ودَأباً تجمعُ
ومَنعتَ نفسَكَ فضلَها ومنحتَها ... أهْلَ الفَعال فأنت خيرٌ مُولعُ
حتَّى يجيءَ إليك عِلجٌ نازحٌ ... فيُصِيبَ عَفْوَتَها وعَبْدٌ أوْكَعُ
والعَيْلَةُ الضَّعْفَى ومَنْ لا خَيْرُهُ ... خَيْرٌ ومِثْلُهُمُ غُثَاءٌ أَجْمَعُ
أُمٌّ زَعَمْتَ لهم وماتَتْ أُمُّهُمْ ... في عهدِ عادٍ حين ماتَ التُّبَّعُ
فَلَتُوشِكَنَّ وأنْتَ، تَزْعُمُ، أُمُّهُمْ ... أنْ يَرْكَبُوكَ بِثِقْلِهِم أو يَرْضِعُوا
وأرَى الذين حَوَوْا تُراثَ محمّدٍ ... أفلتْ نجومهمُ ونجمُكَ يسطعُ

وتفصح هذه الأبيات عن عدم رضا الحطيئة عن فعل الخليفة، ولكن ما يفعل؟ عليه القَبول والصمت، وإلا السجن والبئر.

وعاد الحطيئة إلى سابق عَهده بعد وفاة عمر ﷺ، يمدح ويهجو، وكأن شيئاً لم يكن، ولكنَّ الناس تعلَّموا مما قاله في الزبرقان درساً مهماً، وهو أن: المال أهون ما يُذاد به عن الشرف، ويدفع به أذى السفهاء[1].

---

(1) وهذا ما فعلته قريش وسعيد بن العاص حين جاء الحطيئة إلى المدينة في خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ؛ انظر الأغاني: 164/2 و167.

النَّجاشي الحارثي[1]

ترجمته:

هو قيس بن عمرو بن مالك الحارثي، لُقِّبَ بالنجاشي لِشَبهه بأهل الحبشة.

كان من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وكان رقيق الإسلام فاسقاً.

تهاجى مع تميم بن أُبي بن مقبل، فهاجى قومه بني العجلان، فحدَّه عمر على ذلك.

لما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما انحاز إلى عليٍّ، ثم ضُبطَ وهو سكران في الكوفة في شهر رمضان، فحدّه أمير المؤمنين علي ثمانين جلدةً، وزاده عشرين تشنيعاً عليه لإفطاره في رمضان.

فخرج من الكوفة، وانضمّ إلى صفوف معاوية، ومدحه، وقاتل تحت لوائه. وعُمِّر طويلاً.

قصته مع بني العجلان وعمر ﷺ:

تهاجى تميم بن أبي بن مقبل مع النجاشي الحارثي، فهجا النجاشي قوم تميم، وكان يقال لهم بنو العجلان؛ لأن جدّهم عبدُ الله بن كعب اشتُهر بتعجيله القِرَى للضيِّفَان؛ وذلك أن حياً من طيئ نزلوا به، فبعث إليهم بقرَاهم عَبْداً له، وقال له : اعْجَل عليهم، ففعل العبدُ ، فأعتقه لعجلته، فقال القوم : ما ينْبغي أن يسمَى إلاّ العجلان؛ فسمِّي بذلك ، فكان شرفاً لهم. فهجاهم بهذا اللقب وقال:

إِذَا اللَّهُ عَـــــادَى أهْــــــلَ لُــــــؤْمٍ وَرِقَّـــــةٍ ... فَعَــادَى بَــنِي العَجْــلاَنِ رَهْـطَ ابْــنِ مُقْبِــلِ
قُبِيِّلَــــــــةٌ لاَ يَغْــــــــدِرُونَ بِذِمَّـــــــةٍ ... وَلاَ يَظْلِمُـــونَ النَّـــاسَ حَبَّـــةَ خَـــرْدَلِ
وَلاَ يَــــــــرِدُونَ المـــــــاءَ إلا عَشِـــــــيَّةً ... إذا صَـــدَرَ الـــوُرَّادُ عَـــنْ كُـــلّ مَنْهَـــلِ
تَعَـــافُ الكِـــلاَبُ الضَّـــارِيَاتُ لُحُـــومَهُمْ ... وَتَأْكُـــلُ مِـــنْ كَعْـــبٍ وَعَـــوْفٍ وَنَهْشَـــلِ
وَمَـــا سُمِّـــي العَجْـــلاَنَ إلاَّ لِقَوْلِـــهِ: ... خُـذِ القَعبَ واحْلُـبْ أيُّهَـا العَبْـدُ واعْجَـلِ
أولئِــكَ إخْـــوَانُ اللَّعِـــينِ وأسْـــرَةُ الـــ ... هَجِــينِ وَرَهْـــطُ الـــوَاهِنِ المتَـــذَلِّلِ

فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: ما قال فيكم؟ فأنشدوه:

إِذَا اللَّهُ عَـــــادَى أهْــــــلَ لُــــــؤْمٍ وَرِقَّـــــةٍ ... فَعَــادَى بَــنِي العَجْــلاَنِ رَهْـطَ ابْــنِ مُقْبِــلِ

فقال عمر: إنما دعا، فإن كانَ مظلوماً استُجيبَ له، وإن كان ظالماً لم يُستجبْ له.

قالوا: وقد قال أيضاً:

---

(1) الشعر والشعراء: 317-321، والإصابة في تمييز الصحابة: 2026/3-2027، ومجالس ثعلب: 430-431، والعمدة في محاسن الشعر ونقده: 58/1، وجمهرة الأمثال: 81/1، وخزانة الأدب: 231/1-233 و420/10-423.

قُبِيِّلَـــــــــةٌ لاَ يَغْـــــــــدِرُونَ بِذِمَّـــــــــةٍ وَلاَ يَظْلِمُـــونَ النَّـــاسَ حَبَّـــةَ خَـــرْدَلِ

فقال عمر: ليت آل الخطَّاب هكذا!

قالوا: وقد قال أيضاً:

وَلاَ يَـــــــرِدُونَ المـــــــاءَ إلا عَشِـــــــيَّةً إذا صَـــدَرَ الـــوُرَّادُ عَـــنْ كُـــلِّ مَنْهَـــلِ

فقال عمر: ذلك أقلّ للزحامِ.

قالوا: وقد قال أيضاً:

تَعَـــافُ الكِـــلاَبُ الضَّـــارِيَاتُ لُحُـــومَهُمْ وَتَأْكُـــلُ مِـــنْ كَعْـــبٍ وَعَـــوْفٍ وَنَهْشَـــلِ

فقال: يكفي ضياعاً أن تأكل الكلاب موتاهم!

فقالوا: وقد قال:

وَمَـــا سُمِّـــي العَجْـــلاَنَ إلاَّ لِقَوْلِـــهِ: خُـذِ القَعبَ واحْلُـبْ أَيُّهَـا العَبْـدُ واعْجَـلِ

فقال عمر: خيرُ القوم خادمُهُمْ، وكلُّنا عبيدُ الله.

فقال له تميم ـ وكان مع قومه ـ: فسله يا أمير المؤمنين عن قوله:

أولئِـــكَ إخْـــوَانُ اللَّعِـــينِ وأسْـــرَةُ الـــ هَجِـــينِ وَرَهْـــطُ الـــوَاهِنِ المتَـــذَلِّلِ

فقال عمر: أما هذا فلا أعذرك. فأرسلَ إلى حسان بن ثابت وإلى الحطيئة ـ وكان محبوساً عنده ـ يسألهما عن هذا الشعر[1] ـ وهو به عليم ـ فقال له حسان: قد سَلَحَ عليه[2]!

فأمر به أمير المؤمنين فجلده ـ وقيل: حبسه ـ، وتهدَّده إن عاد لمثلها أن يقطعَ لسانه.

وأما بنو العجلان، فلم يعد لقبهم هذا يجلب لهم الفخر بعد أن هجاهم به النجاشي، فأصبح أحدهم لو سُئل عن نسبه قال: كَعبي؛ خجلاً من هجاء النجاشي لهم، واستهزائه بلقبهم. وهذا ما حصل مع نمير حين هجا جرير راعيها، وتعرض لقبيلته التي كانت إحدى جمرات العرب التي لم تنطفئ، فكان الرجل

(1) قد يسأل سائل: كيف لأمير المؤمنين أن يؤول هذه الأبيات، ويخرجها عن حقيقتها، ويجعلها تظهر بمظهر المدح، وهو العليم بالشعر الحافظ له؟ يقول الجاحظ في البيان والتبيين: 240/1 عن هذه الحادثة وحادثة الحطيئة: «قال العائشي (وهو عبيد الله بن محمد بن حفص): كان عمر بن الخطاب ﷺ أعلم الناس بالشعر، ولكنه إذ ابتلي بالحُكم بين النجاشي والعجلاني (يريد تميم بن مقبل) وبين الحطيئة والزبرقان، كَرِه أن يتعرض للشعراء، واستشهد رجالاً للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره ممَّن تهون عليه سِباهم، فإذا سمع كلامهم حكم بما يعلم، وكان الذي ظهر من حكم ذلك الشاعر مقنعاً للفريقين، ويكون هو قد تخلَّص بعرضه سليماً، فلما رآه من لا علم له يسأل هذا وهذا ظنَّ أن ذلك لجهله بما يعرف غيره»اهـ.

(2) سلح عليه: أي أخرج ما في بطنه عليه. ويروى: ذَرَقَ عليه، وهو بنفس المعنى.

يقول ـ قبل الهجاء ـ بشَمَم وشموخ: نميري، أما بعد هجاء جرير لهم، فقد صار الرجل يقول: نميري، ويُخفض صوته استحياءً!

ويبدو أن النجاشي لم يرعوِ عن هجائه، فقد عاد إلى فعله السابق حين هجا أهل الكوفة، لما ضُبط فيها سكراناً، فحدَّه أمير المؤمنين علي ﷺ، فقال في هَجوهم:

إِذَا سَقَى اللهُ قَوْماً صَوْبَ غادِيَةٍ ... فَلا سَقَى اللهُ أَهْلَ الكُوفَةِ المطَرَا

التَّارِكِينَ على طُهْرٍ نِسَاءَهُمُ ... والناكِحِينَ بِشَطَّيْ دِجْلَةَ البَقَرَا

والسارِقِينَ إِذَا ما جَنَّ لَيْلُهُمُ ... والطالِبِينَ إِذَا ما أَصْبَحُوا السُّوَرَا

يزيد بن مفرِّغ[1]

ترجمته:

هو أبو عثمان يزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحميري، حليف قريش ثم حليف آل خالد بن بن أسيد بن أبي العيص بن أمية. ولُقِّب جدّه مفرِّغاً لأنه رَاهَنَ على سِقاء لبن أن يشربه كله، فشربه كله حتى فرّغه؛ فلقب مُفرِّغاً.

وهو شاعر أموي هجَّاء، أُولع بهجاء بني زياد بن أبيه ـ ولا سيما عباد بن زياد ـ والتعريض بنسبهم. وقد أورده هذا الهجاء المهالك، حيث عُذِّبَ وبيعت أملاكه، وطُرِّد من البلاد، حتى عفا عنه الخليفة يزيد بن معاوية، وأطلقه، واستقر أخيراً في الكوفة، وبها كانت وفاته سنة (69 هـ).

قصته مع أبناء زياد بن أبيه:

لما ولي سعيد بن عثمان بن عفان خراسان استصحب يزيد بن ربيعة بن مفرغ، واجتهد به أن يصحبه؛ فأبى عليه، وصَحِبَ عبَّاد بن زياد. فقال له سعيد بن عثمان: أَمَا إذْ أبيتَ أن تصحبني، وآثرتَ عباداً فاحفظ ما أوصيك به: إن عبَّاداً رَجُلٌ لئيمٌ فإياك والدالَّة عليه، وإن دعاك إليها من نفسه فإنها خدعة منه لك عن نفسك، وأقلل زيارتَه فإنه طَرِفٌ مَلُول، ولا تُفاخره وإن فاخرك؛ فإنه لا يحتمل لك ما كنت أحتمله.

ثم دعا سعيد بمال فدفعه إلى ابن مفرغ، وقال: استعن به على سفرك، فإن صَلُحَ لك مكانك من عباد، وإلا فمكانك عندي ممهَّد فائتني.

ثم سار سعيد إلى خراسان، وتخلف ابن مفرغ عنه، وخرج مع عباد، فلما بلغ عبيد الله بن زياد والي العراقين صحبة ابن مفرغ أخاه عباداً شَقَّ عليه لما يعرفه من سوء طبع ابن مفرغ وعجلته، فدعا ابن مفرغ إليه فقال له: إنك سألتَ عبَّاداً أن تصحبه، وأجابك إلى ذلك، وقد شق علي.

فقال له ابن مفرغ: ولِمَ أصلحك الله؟

قال: لأن الشاعر لا يُقنعه من الناس ما يُقنِعُ بعضهم من بعض؛ لأنه يظنّ فيجعل الظن يقيناً، ولا يَعذِر في موضع العذر. وإن عبّاداً يَقدُم على أرض حرب فيشتغل بحروبه وخراجه عنك، فلا تعذره أنت، وتكسبنا شراً وعاراً!

---

(1) الأغاني: 18/254-297، والشعر والشعراء: 1/348-352، ووفيات الأعيان: 6/342-367، وخزانة الأدب: 4/325-334، والأعلام: 8/183.

فقال له: لست كما ظَنَّ الأمير، وإن لمعروفِه عندي لشكراً كثيراً، وإن عندي . إن أغفلَ أمري . عُذراً ممهداً.

فقال عبيد الله: لا، ولكن تَضمنُ لي إن أبطأ عنك ما تُحبّه ألا تَعجَلَ عليه حتى تكتب إلي.

قال: نعم.

فقَدِمَ عبَّاد خراسان، واشتغل بحربه وخراجه، فاستبطأه ابن مفرغ، ولم يكتب إلى عبيد الله بن زياد يشكوه كما ضَمِنَ له، ولكنه بَسَطَ لسانه فذمه وهجاه، وخُلق الإنسان عَجولاً.

وكان عبّاد عظيمَ اللحية كأنها جوالق، فسار يزيد بن مفرغ يوماً مع عباد فدخلت الريح فنفشتها؛ فضحك ابن مفرغ، وقال لرجل من لخم كان إلى جنبه:

ألا لَيْـــتَ اللِّحَـــى كانَـــتْ حَشِيشـــاً   فَنَعْلِفَهـــــا خيـــــولَ المسْـــــلِمينا

فأعلمَ اللخمي عباداً بقول ابن مفرغ، فغضب من ذلك غضباً شديداً وقال: لا يَجْمُلُ بي عقوبته في هذه الساعة مع الصحبة لي، وما أؤخرها إلا لأشفي نفسي منه؛ لأنه كان يقوم فيشتم أبي في عدة مواطن.

وبلغ الخبر ابن مفرغ فقال: إني لأجد ريح الموت من عبّاد.

ثم دخل عليه فقال له: أيها الأمير! إني كنت مع سعيد بن عثمان وقد بلغك رأيه فيَّ، ورأيت جميلَ أثره عليَّ، وإني اخترتُك عليه فلم أحظَ منك بطائلٍ، وأريد أن تأذنَ لي في الرجوع فلا حاجة لي في صحبتِكَ.

فقال له عباد مدارياً: أمَّا اختيارُك إياي فإني اخترتُك كما اخترتني، واستصحبتُك حين سألتني، وقد أعجلتني عن بلوغ محبتي فيك، وقد طلبت الإذن لترجع إلى قومك فتفضحني فيهم، وأنت على الإذن قادر بعد أن أقضي حقَّك.

فأقام عنده ينتظر جائزته. وخلال ذلك بلغ عباداً أن ابن مفرغ سبه وذكره ونال من عرضه. ولما أجرى عباد الخيل فجاء فرسه سابقاً قال ابن مفرغ:

سَـــــبَق عَبَّـــــادٌ وصَـــــلَّت لِحْيَتُـــــهْ   وكـــــان خـــــرَّازاً تَجُـــــور فريتُـــــهْ

عند ذلك، أعمل الحيلة للإيقاع به، ومنعه من الرحيل عنه؛ فدسّ إلى قوم كان لهم عليه دين فأمرهم أن يرفعوا دينه إليه، فلما فعلوا قضى بحبسه، وأضرّ به، حتى اضطره إلى بيع مغنية له اسمها الأراكة، وغلام يدعى برداً، هما عنده بمنزلة الولد، وقد بكى عليهما ابن مفرغ شعراً فقال:

شَـــريتَ بُـــرداً ولـــو مُلِّكـــتُ صَـــفْقَتهُ   لَمَـــا تطلَّبـــتُ في بَيْـــعٍ لـــهُ رَشَـــدَا
لـــولا الـــدَّعِيُّ ولـــولا مـــا تَعـــرَّضَ لي   مـــن الحـــوادثِ مـــا فارقْتُـــهُ أبَـــدَا

يا بُـــردُ مـــا مَسَّـــنَا بَـــرْدٌ أضـــرَّ بنـــا   مـــن قَبْـــلِ هـــذا ولا بِعْنـــا لـــهُ وَلَـــدا
أمّـــــا الأراكُ فكانَـــــتْ مـــــن مَحارِمنـــــا   عَيْشـــاً لَذِيـــذاً وكانـــت جَنَّـــةً رَغَـــدا
كانـــت لنـــا جَنَّـــةً كُنَّـــا نَعِـــيشُ بهـــا   نفـــنى بهـــا إن خَشـــينَا الأَزْل والنَّكَـــدا
يا لَيْتَـــني قبـــلَ مـــا نابَ الزَّمـــانُ بـــهِ   أهلـــي لقيـــتُ علـــى عُدْوانِـــهِ الأَسَـــدا
قـــد خَانَنـــا زَمَـــنٌ لم نَخْـــشَ عَثْرَتَـــهُ   مَـــنْ يأْمَـــنِ اليـــومَ أم مَـــنْ ذا يَعِـــيشُ غَـــدا
لامَتْـــنِيَ الـــنَّفْسُ في بُـــرْدٍ فقلـــتُ لهـــا: لا تَهْلِكِـــي إثْـــرَ بُـــرْدٍ هَكَـــذا كَمَـــدا
كَـــمْ مـــن نَعِـــيمٍ أصـــبْنا مـــن لذاذَتِـــه   قُلْنـــا لـــه إذ تـــولَّى: ليتَـــه خَلَـــدَا

ولم يترك له عباد فرساً ولا سلاحاً إلا باعه تنكيلاً به، وأدّى ثمن كل ذلك إلى غرمائه، وظلَّ عليه بقية من مالٍ فسجنه بها. عند ذلك بكى ابن مفرغ نفسه، وكيف فرّط في حقِّها ففضَّل صحبة عباد، على صحبة سعيد بن عثمان الجواد فقال:

إنَّ تركِـــي نَـــدَى سَـــعِيدِ بـــن عُثمـــا   نَ بـــن عفَّـــانَ ناصِـــري وعدِيـــدِي
واتِّبـــاعي أخَـــا الضَّـــرَاعةِ واللُّـــؤ   مِ لَـــنقصٌ وفَـــوتُ شَـــأوٍ بَعيـــدِ
قلـــتُ واللَّيـــلُ مُطبِـــقٌ بعُـــراه: ليتَـــني مِـــتُّ قبـــل تـــركِ سِـــعيدِ
ليتـــني مِـــتُّ قبـــل تَرْكِـــي أخـــا النَّجْـــ   ـــدةِ والحَـــزْمِ والفَعـــالِ السَّـــديدِ
عَبْشـــميٌّ أبُـــوه عبـــدُ مَنـــافٍ   فـــازَ منهـــا بتاجِهـــا المعقُـــودِ
ثُمّ جُـــودٌ لـــو قِيـــلَ: هـــل مـــن مَزيـــدٍ   قلـــتُ للســـائلينَ: مـــا مـــن مَزيـــدِ
قُـــلْ لقَـــوْمي لَـــدَى الأباطـــح مِـــنْ آل   لُـــؤَيِّ بـــنِ غالـــبٍ ذِي الجُـــودِ:
ســـامَني بعـــدكم دَعِـــيُّ زيادٍ   خُطَّـــةَ الغـــادرِ اللئـــيمِ الزَّهيـــدِ
كـــانَ مـــا كـــانَ في الأراكـــةِ واجتَـــبَّ   بـــبُرْدٍ سَـــنامَ عِيسِـــي وجِيـــدِي
أوْغـــلَ العَبـــدُ في العُقوبـــة والشَّتْـــ   ـــمِ وأوْدَى بطـــارِفي وتَليـــدِي
فـــارحلوا في حلـــيفِكم وأخـــيكم   نحـــوَ غـــوْثِ المسْتَصْـــرِخِين يزيـــدِ
فـــاطلبُوا النَّصـــفَ مـــن دَعـــيِّ زيادٍ   وســـلوني بمـــا ادّعيْـــتُ شـــهُودِي

وعلم ابن مفرغ أنه إذا أقام على ذم عباد وهجائه . وهو في محبسه . زاد نفسه شراً، فكان يقول للناس إذا سألوه عن حبسه: ما سببه؟: رجلٌ أدَّبه أميرهُ ليقوّمِ من أَوَدِهِ، أو يكف من غَرْبِهِ، وهذا لعمري خيرٌ من جَرِّ الأمير ذيلَه على مداهنة لصاحبه.

فلما بلغ عباداً قولَهُ رَقَّ له، وأخرجه من السجن؛ فهرب حتى أتى البصرة، ثم خرج منها إلى الشام، وجعل ينتقل في مدنها، وشرع مِن هناك بهجاء بني زياد، ويعيّرهم بنسبهم الواهي، ويذكر استلحاق معاوية ﵁ لهم[1]، وأشعاره فيهم تَرِدُ البصرة، وتنتشر وتبلغهم، من ذلك قوله:

إذا أَوْدَى مُعَاوِيــــةُ بــــنُ حــــربٍ فبشِّــرْ شَــعْبَ قعْبِــك بانِصِــداعِ
فأشْـــهدُ أن أمَّـــكَ لم تُباشــرْ أبا سُــفيانَ واضــعةَ القِنَــاعِ
ولكــنْ كــان أمــرٌ فيــهِ لَــبْسٌ علــى وَجَــلٍ شــديدٍ وامتنــاعِ

وقوله:

أَلا أبلــغْ مُعاويــةَ بــنَ حَــرْبٍ مُغلْغَلــةً مِــن الرّجــل اليَمــانِي
أتغضــبُ أنْ يُقــال: أبــوك عَــفٌّ، وتَرْضــى أنْ يُقــال: أبُــوك زَانِي
فأشــهدُ أنَّ رِحْمَــكَ مِــن زيادٍ كــرِحْمِ الفيــلِ مــن ولَــدِ الأتانِ
وأشــهدُ أنهــا ولــدتْ زياداً وصَــخرٌ مــن سُمَيَّــةَ غــيرُ دَانِي

وقوله:

إنَّ زِياداً ونافِعــــاً وأبَا بَكْــرةَ عِنْــدِي مــن أعْجَــب العَجــب
إنّ رِجــالاً ثَلاثَــةً خُلِقُــوا في رَحْــمِ أُنْثَــى مــا كُلّهــم لأبِ
ذا قُرَشِــيٌّ، كمــا يَقُــولُ، وذا مَــوْلًى، وهــذا بزَعمــه عَــرَبي

فكتب عبيد الله بن زياد إلى الخليفة يزيد يعلمه بقول ابن مفرغ، وما في ذلك من شتم له وللخليفة، فأمر يزيد بطلبه وسَجْنِه، فألح عبيد الله في البحث عنه، حتى عثر عليه عند المنذر بن الجارود العبدي، فسجنه، وتفنّن في عقابه؛ حيث سقاه نبيذاً حلواً قد خلط معه الشبرم[2]، فأسهل بطنه، وطِيف به وهو في تلك الحال، وقُرن بهرة وخنزيرة، فجعل يَسلَحُ والصبيان يتبعونه، ويقولون له بالفارسية: أين جيست؟ فيقول: آبست نبيذ است، عصارات زبيبست، سمية روسبيد است[3].

وجعل كلما جرَّ الخنزيرة ضجت، فجعل يقول:

ضَــجّتْ سُمَيّــة لَمَّــا لزّهــا قَــرني لا تَجزَعــي إنَّ شَــرَّ الشّــيمةِ الجَــزَعُ

---

(1) انظر قصة استلحاق معاوية ﵁ لزياد، وما قيل فيها في: الكامل في التاريخ: 3/39-42. ولولا خشية التطويل لذكرناها.

(2) الشّبرم: نبات له حب كالعدس، مُسهل.

(3) وترجمة ما قيل بالفارسية: الأولاد يسألون: ما هذا؟ فأجيبهم: هذا ماء نبيذ، هذه عصارة نبيذ، هذه سمية البغيّ.

فجعل يُطاف به في أسواق البصرة، والصبيان خلفه يصيحون به، وألح عليه ما يخرج منه حتى أضعفه فسقط، فعرف ابن زياد ذلك فقيل له: إنه لِمَا به لا نَأمَن أن يموت؛ فأمر به أن يُغسل، ففعلوا ذلك به، فلما اغتسل قال:

يَغســـل المـــاءُ مـــا فعلـــتَ وقَـــوْلِي ... راســـخٌ منـــكَ في العِظـــام البَـــوالي

وأُعيد إلى السجن، فقال يذكر ما عاقبه به عبيد الله، ويذكر قومه وحلفاءه القرشيين الذي تباطؤوا عن نُصرته وإطلاقه:

دَارَ سَـــلْمى بالخَبْـــتِ ذِي الأَطْـــلالِ ... كيـــف نَـــومُ الأســـيرِ في الأغـــلالِ؟
أَيـــنَ مِـــنّي السَّـــلامُ مـــن بَعْـــدِ نَأْيٍ ... فـــارْجعِي لي تَحِيَّـــتي وسُـــؤالِي؟
أَيـــنَ مَـــنّي نَجـــائبي وجِيـــادِي ... وغَـــزالِي سَـــقَى الإلـــهُ غَـــزالِي؟
أيـــنَ لا أيـــنَ جُنَّـــتِي وسِـــلاحي ... ومَطـــايا سَـــيَّرْتُها لارْتِحـــالي؟
هـــدمَ الـــدَّهْرُ عَرْشَـــنا فتَـــداعَى ... فبَلِينـــا إذ كُـــلُّ عَـــيْشٍ بالِي
إذ دعـــانا زَوالُـــه فأجَبْنَـــا ... كُـــلُّ دُنْيـــا ونِعْمـــةٍ لِـــزَوَالِ
أم قَضَـــيْنا حاجاتِنـــا فـــإلى المـــوْ ... تِ مَصِـــيرُ الملـــوكِ والأَقْيَـــالِ
لا وصَـــوْمِي لِرَبِّنـــا وزَكـــاتِي ... وصَـــلاتِي أدعُـــو بهـــا وابْتِهـــالِي
مـــا أتيـــتُ الغـــداةَ أمـــراً دَنِيّـــاً ... ولَـــدَى الله كـــابرُ الأعمـــالِ
أيُّهـــا المالـــك المرهِّـــب بالقَتْـــ ... ـــلِ بَلَغْـــتَ النَّكـــالَ كُـــلَّ النّكـــالِ
فـــاخشَ ناراً تَشْـــوِي الوُجـــوهَ ويَوْمـــاً ... يَقْـــذِفُ النـــاسَ بالـــدَّواهِي الثِّقـــالِ
قـــد تعـــدَّيْتَ في القصـــاصِ وأَدْرَكْـــتَ ... ذُحـــولاً لمِعْشَـــر أَقْتـــالِ[1]
وَكَسَـــرْتَ السِّـــنَّ الصَّـــحِيحةَ مِـــنّي ... لا تُـــذِلَّنْ فمُنْكَـــرٌ إذْلالِي
وقَـــرَنْتُم مـــع الخَنـــازيرِ هِـــرّاً ... ويَميـــني مَغْلُولَـــةٌ وشِمـــالِي
وكـــلاباً يَنْهَشْـــنَني مـــن وَرائِـــي ... عَجِـــبَ النَّـــاسُ مـــا لهُـــنَّ ومَـــالِي
وأَطَلْـــتُم مـــع العُقُوبـــةِ سِـــجْناً ... فكَـــم السّـــجْنُ أو مَـــتَى إرْســـالِي
يَغســـلُ المـــاءُ مـــا صَـــنَعْتَ وقَـــولِي ... راســـخٌ مِنـــكَ في العِظـــامِ البَـــوالي
لـــو قبلـــتَ الفِـــدَاءَ أو رُمْـــتَ مـــالي ... قُلـــتُ خُـــذْه فِـــداءُ نَفْسِـــيَ مـــالي
لـــو بِغَـــيْرِي مـــن مَعْشَـــرِي لَعِـــب الدَّهْـــ ... ـــرُ لَمَـــا ذَمَّ نُصـــرَتِي واحتِيـــالي

---

(1) الذّحول: جمع ذَحل؛ وهو الثأر والعداوة والحقد. الأقتال: جمع قِتْل؛ وهو الشجاع أو المقاتل.

كَــم بَكــاني مــن صــاحِبٍ وخَليــلٍ حــافِظِ الغَيْــب حامِــدٍ للخِصــالِ
ليــتَ أَنِّي كُنــتُ الحَليــفَ لِلَخْــمٍ وجُـــذامٍ أو طيِّـــئ الأجمـــالِ
بَــدَلاً مــن عِصــابَة مــن قُــرَيْشٍ أســلَمُونِي للخَصْــمِ عنــد النِّضــالِ
البَهالِيــلُ مــن بــني عَبْــد شَمْــسٍ فَضَــلُوا النّــاسَ بالعُــلاَ والفِعــالِ
وبَنــو التَّــيْمِ تَــيْمِ مُــرَّة لَمَّــا لَمَــع المــوتُ في ظِــلالِ العَــوالِي
مَنَعُــوا البَيْــتَ بَيْــتَ مَكَّــةَ ذا الحِجْــ ــرِ إذِ الطَّــيْرُ عُكَّــفٌ في الظِّــلالِ
والبَهالِيــلُ خالِــدٌ وسَــعيدٌ شَمْــسُ دَجْــنٍ وَوُضَّــحٌ كــالهِلالِ
في الأرومــاتِ والــذُّرَى مــن بَــنِي العِيــ ــصِ قُــرومٌ إذا تُعَــدُّ المعــالِي
كُنــتُ مــنهُمْ مــا حَرَّمــوا فحَــرَامٌ لم يُرامُــوا وحِلُّهُــم مــن حَــلالِ
وذوو المجــدِ مــن خزاعــةَ كــانُوا أهــلَ وِدِّي في الخصــبِ والإمحــالِ
خــذلُوني وهــم لــذاك دعُــوني لــيسَ حــامي الــذمارِ بالخــذّالِ
لا تَــدَعْني فِــداك أهلِــي ومــالِي إنَّ حَبْلَيْــكَ مــن مَتِــينِ الحِبــالِ
حَسْــرَتا إذ أطَعْــتُ أَمْــرَ غُــواتِي وعَصَــيْتُ النَّصِــيحَ ضَــلَّ ضَــلالِي

وقال يهجو عباد بن زياد ويذكر سعيد بن عثمان:

أيُّهــا الشــاتِمُ جَهْــلاً سَــعِيداً وسَــعِيدٌ في الحَــوادِثِ نَابُ
مــا أبــوكم مُشــبِهاً لأبيــهِ فاســألوا النــاسَ بــذاكم تُجــابُوا
ســادَ عَبّــادٌ ومُلِّــكَ جَيْشــاً سَــبَّحتْ مــن ذاكَ صُــمٌّ صِــلابُ
إنّ عامــاً صِــرْتَ فيــه أمــيراً تَمْلِــكُ النّــاسَ لَعــامٌ عُجــابُ

واتصل هجاؤه بني زياد وهو في الحبس، فرده عبيد الله إلى أخيه عباد بسجستان، ووكل به رجالاً، ووجههم معه. وكان لما هرب ابن مفزع من عباد يهجوه، ويكتب كل ما هجاه به على حيطان الخانات، فأمر عبيد الله الموكلين به أن يأخذوه بمحو ما كتبه على الحيطان بأظافيره، وأمرهم ألا يتركوه يُصلِّي إلا إلى قبلة النصارى إلى المشرق! فكانوا إذا دخلوا بعض الخانات التي نزلها فرأوا فيها شيئاً مما كَتبَه من الهجاء أخذوه بأن يمحوه بأظافره؛ فكان يفعل ذلك ويحكه، حتى ذهبت أظافره، فكان يمحوه بعظام أصابعه ودمه، حتى سلموه إلى عباد فحبسه، وضيَّق عليه، فقال ابن مفرغ:

ألاَ طَرَقْتنــا آخــرَ اللَّيــلِ زَيْنَــبُ ســلامٌ علــيكم هَــلْ لِمَــا فَــاتَ مَطْلَــبُ
أصــابَ عَــذابِي اللــونَ فــاللَّونُ شــاحِبٌ كمــا الــرَّأسُ مِــنْ هَــوْلِ المنيّــةِ أَشــيبُ

قُرِنْتُ بخِنْزِيرٍ وهِرٍّ وكَلْبَةٍ زماناً وشَانَ الجلدَ ضَربٌ مُشدِّبُ
وجُرِّعتُها صَهباءَ من غيرِ لَذَّةٍ تُصعِّدُ في الجُثمانِ ثم تُصوِّبُ
وأُطعِمْتُ ما إن لا يَحِلّ لآكلٍ وصَلَّيْتُ شَرْقاً بيتُ مكَّةَ مَغرِبُ
منَ الطَّفِّ مجنوناً إلى أرضِ كابُلٍ فمَلُّوا وما مَلَّ الأسيرُ المعذَّبُ
فلو أنَّ لَحْمِي إذ هَوَى لَعِبَتْ بهِ كِرامُ الملوكِ أو أُسودٌ وأَذْؤُبُ
لَهَوَّنَ وَجْدِي أو لَزَادتْ بَصِيرَتي ولكنما أَوْدَتْ بلَحْمِيَ أَكْلُبُ
أَعبَّادُ ما لِلُّؤْمِ عنكَ مُحَوَّلٌ ولا لَكَ أُمٌّ في قُرَيْش ولا أبُ
سيَنْصُرُني مَنْ ليس تَنْفَع عِنْدهُ رُقاكَ وقَرْمٌ من أُميَّةَ مُصْعَبُ
وقلْ لعُبَيْدِ الله مالَكَ والِدٌ بحَقٍّ ولا يَدري امرؤٌ كيفَ تُنْسَبُ

فلما طال مقام ابن مفرغ في السجن استأجر رسولاً إلى دمشق، وأمره أن يُلقي هذه الأبيات على جموع اليمانية في الشام:

أبلِغْ لديك بني قَحْطان قاطِبةً عَضَّتْ بأيْر أبيها سادةُ اليَمَنِ
أضحَى دَعِيُّ زيادٍ فَقْعَ قَرْقَرَةٍ يا لَلْعجائب يلهو بابن ذِي يَزَنِ
والحِمْيريُّ طريحٌ وسط مَزْبلةٍ هذا لعَمْرُكمُ غَبنٌ من الغَبنِ
والأجبَهُ ابنُ نُمَير فوقَ مَفْرشهِ يدنُو إلى أحْوَر العَيْنَيْن ذي غُنَنِ
قُوموا فقُولُوا: أميرَ المؤمنين لنا حَقٌّ عليك ومَنٌّ ليس كالمِنَنِ
فاكفُف دَعِيَّ زِيادٍ عن أكارمنا ماذا يُريدُ على الأحقادِ والإحَنِ

ففعل الرسول ما أمره به، فَحَمِيَتِ اليمانية، وغَضِبوا له، ودخلوا على يزيد بن معاوية فسألوا إطلاقه. واتفق أن حلفاءه القرشيين قد جاؤوا دمشق في شأنه أيضاً، فلما رأى يزيد اتفاقهم وغضبهم له؛ وهبه لهم، ووجه رجلاً من بني أسد يقال له خمخام بريداً إلى عبَّاد، وكتب له عهداً، وأمره بأن يبدأ بالحبس فيخرج ابن مفرغ منه ويطلقه، قبل أن يعلم عباد فيمَ قَدِمَ فيغتاله؛ ففعل ذلك به.

فلما خرج من الحبس قُرِّبَتْ إليه بغلة من بغال البريد فركبها، فلما استوى على ظهرها قال:

عَدَسْ ما لعَبَّادٍ عليكِ إمارةٌ نجوتِ وهذا، تَحْمِلينَ، طَلِيقُ(1)
فإن الَّذي نَجَّى منَ الكَرْبِ بَعدَما تَلاحَمَ في دَرْبٍ عليكِ مضيقُ
أتاك بخَمْخامٍ فأَنْجاكِ فالْحَقي بأَهْلِكِ لا تُحْبَسْ عليكِ طَرِيقُ

---

(1) عدس: كلمة زجر للبغل.

لعمْــري لقــد أنجــاكِ مــن هُـــوَّةِ الـــرَّدَى إمـــــامٌ وحَبـــــلٌ لــــلأنامِ وَثِيـــــقُ
سأشـــكُرُ مـــا أوليـــتَ مـــن حُسْـــن نِعمـــة ومِثْلـــــي بشُـــكْر المُنْعِمـــين حَقِيـــقُ

ثم قدم على يزيد بن معاوية، فعاتبه فاستعتب، ثم أكرمه وأعطاه عشرة آلاف درهم، وأخذ عليه أن يكفّ لسانه عن بني زياد.

ثم خرج من الشام فأقام بالموصل زمناً، ثم قدم على عبيد الله بن زياد فاعتذر منه ـ في ظاهر القول، أما قلبه فلم يعتذر، بل تحيّن الفرصة ليعود للثأر منه ـ فحباه، ثم فارقه إلى كرمان، كيلا يتذكر كل واحد ما فعله بالآخر، فأوصى عبيد الله عامله على كرمان بإجازته وإكرامه.

وبقي ابن مفرغ بكرمان حتى هرب عبيد الله من الكوفة سنة (64هـ)، ودخلت العراق في طاعة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما؛ فعاد ابن مفرغ إلى البصرة، وعاود هجاء بني زياد، فقال يذكر هرب عبيد الله وتَرَكَهُ أمه فيها وراءهُ:

أعُبَيـــــدُ هَـــــلاّ كنـــــتَ أَوَّلَ فـــــارسٍ يــــوم الهِيــــاجِ دعــــا بحَتْفِــــك داعِ
أســـــلمْتَ أُمَّـــــكَ والرِّمــــاحُ تَنوشُــــها يا ليتَــــني لــــكَ ليلــــةَ الإفــــزاعِ
إذ تَسْــــتغيثُ ومـــا لنفسِـــكَ مـــانعٌ عَبْـــــدٌ تـــــرِدّدُه بـــــدارِ ضـــــيَاعِ
هــــلاّ عجــــوزُك إذ تُمَــــدُّ بثَـــدْيِها وتَصـــــيح: ألاّ تَنْـــــزِعُنَّ قِنـــــاعِي
أنقـــذتَ مـــن أيـــدي العُلـــوجِ كأنَّهـــا رَبْــــداءُ مُجفِلـــةٌ بـــبطنِ القـــاعِ
فركبـــتَ رأسَـــكَ ثم قلـــتَ: أرى العِـــدَا كَثُـــروا وأَخلـــفَ مَوْعِـــدي أَشْـــياعِي
فـــانْجي بنَفْسِـــك وابتغـــي نَفَقـــاً فمـــا لي طاقَـــةٌ بـــكَ والســـلامُ وَدَاعِـــي
لــــيسَ الكَـــريمُ بِمَـــنْ يُخَلِّـــف أُمَّـــهُ وفَتاتَــــه في المنــــزلِ الجَعجــــاعِ[1]
حَــــذَرَ المِنِيَّــــةِ والرِّمــــاحُ تَنوشُــــهُ لم يَــــرْمِ دونَ نِســــائِهِ بكُــــراعِ
مُتأبِّطــــاً ســــيفاً عليــــهِ يَلْمَـــقٌ مثــــلَ الحمــــارِ أثرتَــــه بيَفــــاعِ
لا خــــيرَ في هَــــذِرٍ يهُــــزُّ لســــانَه بكلامِــــهِ والقلــــبُ غــــيرُ شُــــجاعِ
لابـــنُ الـــزُّبير غَـــداةَ يَـــذْمُرُ مُنْـــذِراً أَوْلى بغايَــــةِ كــــلِّ يــــومِ وِقــــاعِ
وأحـــقُّ بالصـــبرِ الجميـــلِ مـــن امـــرئٍ كُــــزٍّ أناملُــــهُ قصــــيرَ البــــاعِ
جَعْـــدِ اليـــدين عـــن السَّـــماحة والنَّـــدى وعــــن الضَّــــريبةِ فــــاحِشٍ مَنَّــــاعِ
كـــم يا عُبَيْـــدَ الله عنـــدَك مـــن دَمٍ يســــعَى ليُدْرِكَــــهُ بقَتلــــكَ ســــاعِ

---

(1) الجعجاع: الضيّق الخشن الغليظ.

ومعاشـــــرٍ أُنُـــــفٍ أبحْـــــتَ حـــــريمَهم   فَـــرَّقتَهم مـــن بعـــد طُـــول جِمـــاعِ
اذكُـــرْ حُسَـــيْناً وابـــنَ عُـــروَةَ هانِئـــاً   وابـــنَي عَقِيـــلٍ فـــارسِ المِـــرْباعِ

وقال يهجوه ويذكر هربه:

أقَـــرَّ بعيـــني أنَّـــهُ عَـــقَّ أُمَّـــه   دَعَتْـــه فولاَّهـــا اسْـــتَه وهـــو يَهـــرُبُ
وقـــال: عليـــكِ الصـــبرَ كُـــوني سَـــبِيَّةً   كمـــا كنـــتِ أو مُـــوتي فـــذلكَ أقـــرَبُ
وقـــد هتَفـــتْ هنْـــدٌ: بمـــاذا أمـــرتَني؟   أَبِـــنْ لي وحَـــدِّثني إلى أيـــنَ أذهـــبُ؟!
فقـــال: اقْصِـــدِي لـــلأَزْدِ في عَرَصـــاتِها   وبَكْـــرٍ فمـــا إن عَـــنهُمُ مُتَجَنَّـــبُ
أخـــافُ تَمِيمـــاً والمِســـالِحُ دونَهـــا   ونـــيرانُ أعـــدائي علـــيَّ تَلهَّـــبُ
ووَلَّى ومـــاءُ العـــينِ يَغسِـــلُ وَجْهَهـــا   كـــأن لم يكُـــن والـــدَّهرُ بالنـــاسِ قُلَّـــبُ
بمـــا قَـــدَّمَتْ كَفَّـــاك لا لـــكَ مَهْـــرَبٌ   إلى أيّ قَـــوْمٍ والـــدِّماءُ تَصَـــبَّبُ
فكـــمْ مـــن كَـــرِيمٍ قـــد جَـــرَرْتَ جَريـــرةً   عليـــهِ فمَقْبـــورٌ وعـــانٍ يُعَـــذَّبُ
ومـــن حُـــرَّةٍ زهـــراءَ قامـــتْ بسُـــحْرةٍ   تُبكِّـــي قتـــيلاً أو صـــدًى يَتَـــأَوَّبُ
فصـــبراً عُبَيْـــدُ بـــنَ العَبِيـــدِ فإنمـــا   يُقاسِـــي الأُمـــورَ المسْـــتَعِدُّ المجَـــرِّبُ
وذُقْ كالَّـــذي قـــد ذاقَ منـــكَ معاشِـــرٌ   لَعِبْـــتَ بهـــم إذ أَنـــتَ بالنَّـــاسِ تَلعَـــبُ
فلـــو كنـــتَ حُـــرّاً أو حَفِظْـــتَ وَصِـــيَّةً   عطَفْـــتَ علـــى هِنْـــدٍ وهِنْـــدٌ تُسَـــحَّبُ
وقاتلـــتَ حـــتى لا تُـــرِي لـــك مَطْمَعـــاً   بسَـــيْفِك في القـــومِ الـــذينَ تَحَزَّبُـــوا
وقلـــتَ لأُمِّ العَبْـــد أُمَّـــك: إنـــني   وإن كَثُـــرَ الأعـــداءُ حـــامٍ مُـــذَبّبُ
ولكـــنْ أبى قلـــبٌ أُطِـــيرَتْ بَناتُـــهُ   وعِـــرْقٌ لكـــم في آلِ مَيْســـانَ يَضـــرِبُ

ويبدو أن ابن مفرغ أراد شفاء ما في نفسه من غضب وسَخَط على بني زياد الذين أذلوه، وجرَّعوه المرارة، فأطلق للسانه العنان، يلوك نسبهم الواهي به، ليبرِّد بذلك النار المشتعلة في صدره، وزاد على ذلك ـ بعد فرار عبيد الله ـ وصمهم بالجبن والفزع، وحَمَلة الناس جميعاً عليهم بعد طول تجبر وسفك للدماء، وقد عبر عن هذا بقوله:

جـــرَتْ أُمُّ الظِّبـــاءِ بِبَيـــنْ لَيلـــى   وكـــلُّ وِصـــالِ حَبْـــلٍ لانقطـــاعِ
ولا لاَقيـــتُ مـــن أيّامِ بُـــؤْس   ولا أمـــرٍ يَضـــيقُ بـــهِ ذراعِـــي
ولم تَـــكُ شِـــيمتِي عَجْـــزاً وَلُؤْمـــاً   ولم أَكُ بالمضـــلَّل في المسَـــاعي
سِـــوَى يَـــوم الهَجِـــين ومَـــنْ يُصـــاحِبْ   لئـــامَ النـــاس يُغْـــضِ علـــى القـــذاعِ

حَلفتُ بِرَبِّ مَكَّةَ لو سِلاحي ... بكفِّي إذ تُنازعني مَتاعِي
لباشَرَ أُمَّ رأسِكَ مَشرَفِيٌّ ... كذاكَ دَواؤنا وجعُ الصُّداعِ
أَفي أحسابِنا تُزري علينا ... هُبِلْتَ وأنتَ زائدَةُ الكُراعِ[1]؟!
تبغَّيْتَ الذُّنوبَ عَليّ جَهْلاً ... جُنوناً ما جُنِنْتَ ابنَ اللَّكاعِ
فما أسفي على تَرْكي سَعِيداً ... وإسحاقَ بنَ طَلحةَ واتّباعِي
ثَنايا الوَبْرِ عبدَ بَنِي عِلاجٍ ... عُبَيْدةَ فَقْعَ قَرْقَرةٍ بِقاعِ
إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ ... وودَّع أهلُها خيْرَ الوَداعِ
فأيرٌ في استِ أُمِّك من أميرٍ ... كذاكَ يُقالُ للحَمِقِ اليَراعِ
ولا بُلِّغتْ سماؤكَ من أميرٍ ... فبِئْسَ مُعَرَّسُ الرَّكْبِ الجِياعِ
ألم تَرَ إذْ تُحالِف حِلْفَ حَرْبٍ ... عليك غَدَوْتَ من سَقَطِ المَتاعِ
وكِدتَ تَمُوتُ أنْ صاح ابنُ آوَى ... ومثْلُكَ ماتَ من صوتِ السِّباعِ
ويَوْمَ فَتَحتَ سيفَك من بَعيدٍ ... أُضِعْتَ وكلُّ أمرِكِ للضّياعِ
إذا أودَى مُعاويةُ بنُ حَرْبٍ ... فبَشِّرْ شَعْبَ قَعْبِكَ بانْصِداعِ
فأشهدُ أنَّ أُمَّكَ لم تُباشِرْ ... أَبا سُفيانَ واضعةَ القِناعِ
ولكنْ كانَ أَمراً فيه لَبْسٌ ... على عجَلٍ شديدٍ وارْتِياعِ

ولما قَتَلَ إبراهيم بن الأشتر عبيد الله بن زياد يوم الزاب سنة (67 هـ)[2]، هلَّل ابن مفرغ وأعلن الأفراح، فأنشد شامتاً بميته وهزيمته:

إنَّ الذِي عاشَ خَتَّاراً بذِمَّتِهِ ... وعاشَ عَبْداً قَتِيلُ الله بالزَّابِ
العَبْدُ للعبدِ لا أصْلٌ ولا طَرَفٌ ... ألْوَتْ به ذَاتُ أظْفارٍ وأنْيابِ
إنّ المنايا إذا ما زُرْنَ طاغِيةً ... هَتَكْنَ عنهُ سُتوراً بينَ أَبْوابِ
هَلاّ جُموعُ نِزارٍ إذ لقِيتَهُمُ ... كنتَ امرَأً من نِزارٍ غيرَ مُرتابِ
لا أنتَ زاحَمْتَ عن مُلْكٍ فتمَنعَهُ ... ولا مَدَدْتَ إلى قَوْمٍ بأَسْبابِ

---

(1) الكراع من كل شيء: طرفه.

(2) لقي إبراهيم بن الأشتر عبيد الله منهزماً فضربه فقتله، وجاء إلى أصحابه فقال: إني ضربت رجلاً فقددته نصفين؛ فشَرَّقتْ يداه، وغرَّبت رجلاه، وفاح منه المسك؛ وأظنه ابن مرجانة. وأومأ لهم إلى موضعه، فجاؤوا إليه، وفتشوا عليه فوجدوه كما ذكر؛ وإذا هو ابن زياد.

مـــا شُـــقَّ جَيـــبٌ ولا ناحَتْـــك نائِحَـــةٌ ولا بَكَتْـــكَ جِيـــادٌ عنـــد أســـلابِ
لا يـــــتركُ اللهُ أنْفـــــاً تَعْطِسُــــون بهــــا بـــني العَبِيـــدِ شُـــهوداً غـــيرَ غُيَّـــابِ

وهكذا شفى موت عبيد الله نفس ابن مفرغ، إلا أنه لم يلبث بعده طويلاً، إذ مات بعد ابن زياد بسنتين.

عمران بن حطان[1]

ترجمته:

هو عمران بن حِطّان بن ظَبيان السَّدوسي البَكري. من كبار شعراء الخوارج، ودُعاتهم، والمقدّمين في مذهبهم، وكان من القَعدة عن القتال، مكتفياً بالدعوة؛ لأنه حينَ انخرط في سِلك الخوارج كان قد شاخ وكبر. وكان إذا خطبَ ثارت الخوارج إلى سلاحِها.

سَمِعَ الحديث من بعضَ الصحابة كأم المؤمنين عائشة وأبي موسى الأشعري وابن عباس ﷺ. وكان مِنْ أصحِّ أهل الأهواء حديثاً.

ولما اشتُهر بمذهبه ودعوته طلبه الحجاج، مما اضطرّه إلى التنقل في أحياء العرب، خوفاً منه. إلى أن أدركته المنية وهو على تخفّيه سنة أربع وثمانين للهجرة.

وقد انعكس صدقه في رواية الحديث على شعره، فجاء مشرقاً وضّاءً، لا كذبَ فيه، مما جعل شعراء عصره يحسدونه عليه، ويَحمَدُون الله أنه أوقف شعره على الصِّدق؛ لأنه لو دخل ميدان الخيال والكذب الفني لبزَّهم جميعاً. يقول الفرزدق: عمران بن حطان من أشعر الناس، لأنه لو أراد أن يقول مثلنا لقال، ولسنا نقدر أن نقول مثل قوله.

لما مر عمران بالفرزدق، وهو ينشد، والناس حوله، وَقَفَ عليه وقال:

أيُّهـــــا المـــــادِحُ العِبـــــادَ ليُعْطَـــــى ... إنَّ لِلَّهِ مـــــا بأيْـــــدِي العِبـــــادِ

فاســـــألِ اللهَ مـــــا طلبـــــتَ إلـــــيهِمْ ... وارجُ فضـــــلَ المقسِّـــــم العَـــــوَّادِ

لا تقُـــــلْ في الجَـــــواد مـــــا لـــــيسَ فيـــــهِ ... وتُســـــمِّي البخيـــــلَ باســـــم الجَـــــوادِ

فقال الفرزدق: لولا أن الله عز وجل شَغَلَ عنَّا هذا برأيهِ لَلَقِينا منه شراً.

وقال عنه المرزباني: كان عمران شاعراً مُفلقاً مُكثراً.

ومن شعره الذي ذهب مَذهب الأمثال قوله:

أرى أَشـــــقياءَ النَّـــــاسِ لا يَســـــأَمُونَها ... علـــــى أَنَّهُـــــمْ فِيهـــــا عُـــــراةٌ وجُـــــوَّعُ

أراهـــــا، وإن كانَـــــتْ تُحِـــــبّ، فإنهـــــا ... ســـــحابةُ صـــــيفٍ عـــــن قَليـــــلٍ تَقَشَّـــــعُ

كركـــــبٍ قَضـــــوا حَاجـــــاتِهم وتَرحَّلـــــوا ... طَـــــريقُهم بادي العلامـــــةِ مهيـــــعُ

وقوله:

---

(1) كتاب المتوارين عن الحجاج: 62-74، والكامل في اللغة والأدب: 1083-1088، والأغاني: 109/18-120، وخزانة الأدب: 355/5-363، وسير أعلام النبلاء: 214/4-216.

لم يُعجـــزِ المـــوتَ شـــيءٌ دونَ خالقـــهِ — والمـــوتُ فَـــانٍ إذا مـــا غَالـــهُ الأَجَـــلُ
وكـــلّ كـــربٍ أمـــامَ المـــوتِ مُنْقَطِـــعٌ — بالمـــوتِ، والمـــوتُ فيمـــا بعـــدُه جَلَـــلُ

قصّته مع الحجاج:

كان عمران أول أمره من أهل السنة والعلم، ولكنْ.. حَدَثَ أمرٌ قَلَبَ عليه كيانَهُ، وبدَّل ما في نفسه تبديلاً:

لقد تزوَّج بابنة عمٍّ له خارجيةٍ، وأراد صرفها عن مذهبها، وإعادتها إلى الحق مذهب أهل السنة. ولكنَّ جمال هذه المرأة، ودمامته هو، جعل حجَّتها تقوم عليه، وأدلته تسقط بين يديه؛ فانقلبَ إلى مذهبِها، وأصبحَ ينافحُ عن معتقدِها.

ويبدو لي أن زوجته ما قبلتْ به إلا امتحاناً لنفسها في الصبر على المنكر، ورغبةً منها إلى ضمّ مؤيّدٍ إلى مذهبها، ولو لم ترَ رغبةَ عمران فيها، وإصراره في طلبها، لما قبلته؛ لا سيما وأنّ الخوارج الشراة كانوا يرونَ كلّ مخالف لمذهبهم كافراً مستباح الدمِ، لا يحلّ لهم تزويجه ولا إبقاؤه!

ومما يؤيد ما أقول: أن زوجته نظرتْ إلى زوجها مرةً معجبةً به، مبتسمةً له، فسألها عمران عن سبب ابتسامها، فقالت: أنا وأنت في الجنة، لأنَّكَ أُعطيتَ فَشَكَرتَ، وابْتُلِيتُ فَصَبَرْتُ.

إذنْ، أُتِي عمران من مأمنِهُ، فأصبح بعد زواجه من بنت عمه خارجياً، لوقوعه في هواها.

ولكنْ، هل يلتحق بالخوارج الحرورية المقاتِلة وقد كبرتْ سنّهُ، وشاب رأسهُ؟

لا.. لا.. لا طاقةَ له بهذا... إذنْ كيف يفعل؟

لقد اكتفى عمران بالتحريض على الخروج، وإقناع الناس بنبل الهدف الذي يسعى إليه الخوارج.. لقد اختار أن يكون من الخوارج الصُّفرية الذين يحرِّضون، ولا ينهضون، ويُثيرون، ولا يَثورون، جاعلاً من لسانه بوقاً لدعوة الخوارج، يذكر أعلامهم، ويبكي رجالَهم، ويشيد بانتصاراتهم.

ولما كَثُرتْ أشعارهُ في الدعوة للخوارج والذّبِّ عنهم، وكانت العراق في حرب ضَروس معهم؛ طلبه الحجاجُ، ونصبَ العيونَ للإيقاع به، وكتب إلى الخليفة وإلى الولاة بشأنه.

ولعلَّ مما أثار عليه غضبَ الحجّاج، حتى ألحَّ في طلبه، ما قالهُ فيه يعيِّره بخروجه من الكوفة لما دخلها شبيب الحروري وزوجته غزالة، حيث قال:

أَســـدٌ علـــيَّ، وفي الحـــروبِ نعامـــةٌ — فَتخـــاءُ تفـــزَعُ مـــن صـــفيرِ الصَّـــافِرِ
هـــلاَّ بـــرزتَ إلى غزالـــةَ في الـــوَغى — بـــل كـــانَ قَلبُـــكَ في جنـــاحيْ طـــائِرِ
ذَعـــرتْ غزالـــةُ قَلبَـــهُ بفـــوارسٍ — تركـــتْ فوارسَـــهُ كـــأمسِ الـــدَّابِرِ

وخرج عمران من العراق هارباً، وأخذَ ينتقل في القبائل، فكان إذا نزل في حي انتسب نسباً يَقرُبُ منه، ففي ذلك يقول:

نَزَلْنـــا في بَـــنِي سَـــعدِ بْـــنِ زَيـــدٍ ... وفي عَـــكٍّ وعَـــامِرِ عَوثَبَـــانِ[1]

وفي لَخْـــمٍ وفي أُدَدِ بـــنِ عَمـــرٍو ... وفي بَكـــرٍ وحَـــيِّ بَـــنِي العَـــدَانِ

وأخيراً، دخل الشامَ، واستجار بسيد جُذام روح بن زنباع، أحد كبار مستشاري الخليفة عبد الملك بن مروان ومسامريه، وكان يقري الأضياف ويكرمهم، وانتمى له من الأزد.

وكان رَوحٌ لا يسمع شعراً نادراً ولا حديثاً غريباً عند عبد الملك فيسأل عنه عمران بن حطان إلا عرفه، وزاد فيه. فذكر ذلك لعبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين! إنَّ في أضيافنا رَجُلاً ما سمعتُ منك حديثاً قطُّ إلا حدَّثني به، وزاد فيما ليس عندي. وهو بعدُ رجلٌ عابدٌ، كثير الصلاة.

قال: ممَّنْ هُوَ؟

قال: من الأزد.

قال: إني لأسمعُكَ تَصِفُ صِفةَ عمران بن حطان، لأنني سمعتُكَ تَذكُرُ لُغةً نزاريةً، وصلاةً وزهداً، وروايةً وحفظاً؛ وهذه صِفته.

فقال رَوح: وما أنا وعمران؟

ثم دعا عبد الملك بكتاب الحجاج فإذا فيه: «أما بعد، فإن رجلاً من أهل الشِّقاقِ والنِّفاقِ قد كان أَفسدَ عَليَّ أهلَ العراق، وحبَّبهم بالشِّراية. ثم إنِّي طَلبتُهُ، فلما ضَاقَ عليه عملي تحوَّل إلى الشام، فهو ينتقل في مدائنها. وهو رجل ضَربٌ طُوالٌ أَفوهُ أَروقُ».

فقال روح: هَذه والله صِفةُ الرجل الذي عندي.

ثم إنَّ عبد الملك أنشد يوماً قول عمران يمدح عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله، لقتله علي بن أبي طالب ﷺ:

يا ضَـــرْبةً مـــن تَقِـــيٍّ مـــا أرادَ بهـــا ... إلا لِيَبْلُـــغَ مـــن ذي العـــرشِ رضـــوانا

إِنِّي لأذكـــرُهُ يَومـــاً فَأَحْسَـــبُهُ ... أوفى البريَّـــةِ عنـــدَ اللهِ ميـــزانا

أَكـــرِمْ بقـــومٍ بطـــونُ الطـــير أقـــبرُهُمْ ... لم يَخلطُـــوا ديـــنَهمْ بغيـــاً وعُـــدوانا

ثم قال عبد الملك: مَنْ يَعرِفُ منكم قائلُها؟

فسكت القوم جميعاً، فقال لِرَوح: سَلْ ضَيفَكَ عن قائلها؟

---

(1) عامر عوثبان: قبيلة من الأزد.

قال: نعم، أنا سائلُهُ، وما أُراه يَخفى على ضيفي، ولا سألتُهُ عن شيءٍ قطّ فلم أجده إلا عالماً به.

وراح رَوحٌ إلى أضيافه، فقال: إن أمير المؤمنين سألنا الذي يقول:

يا ضَـــرْبةً مــــن تَقِـــيٍّ مـــا أرادَ بهـــا   إلا لِيَبْلَـــغَ مــــن ذي العـــرشِ رضـــوانا

ثم ذكر الشعر، وسألهم عن قائله، فلم يكن عند أحدٍ عِلمٌ. فقال له عمران: هذا قولُ عمران بن حِطّان في ابن ملجم قاتل علي بن أبي طالب.

فقال له روحٌ: فهل فيها غير هذه تفيدنيه؟

قال: نعم، وأنشده:

لله دَرُّ المـــــرَادِيِّ الـــــذي سَــــفَكتْ   كَفَّـــاه مُهْجَـــةَ شَـــرِّ الخَلْـــقِ إنســـانا

أمســـــى عَشِــــيّةَ غشَّـــاهُ بضَــــرْبَتِه   ممّـــا جَنـــاهُ مــــن الآثامِ عُـــرْيانا

فغدا رَوح، فأخبر عبد الملك، فقال: مَنْ أَخبرَك بذلك؟

فقال: ضيفي.

قال: أظنه عمران بن حطان، فَأَعْلِمْهُ أني قد أمرتُك أن تأتيني به.

قال: أفعل.. فراحَ رَوحٌ إلى أضيافه، فأقبل على عمران، فقال له: إنِّي ذكرتُكَ لعبد الملك فأمرني أن آتيه بك.

قال: كنتُ أحبّ ذلك منكَ، وما منعني من ذِكرِهِ إلا الحياءُ منك، وأنا مُتَّبِعُكَ فانطلق.

فدخلَ رَوحٌ على عبد الملك، فقال له: أين صاحبُك؟

فقال: قال لي: أنا مُتَّبعُك.

قال عبد الملك: هذه بعض خِدع أهل العراق. أظنُّك - والله - سترجع فلا تجده.

فلما رجع روح إلى منزله إذا عمران قد مضى، وإذا هو قد خَلَّف رُقعةً في كوة عند فراشه، وإذا فيها يقول:

يا رَوحُ كــمْ مــن أخِــي مَثْــوًى نَزَلْــتُ بــهِ   قــد ظــنَّ ظنَّــكَ مــن لخــمٍ وغسَّــانِ

حــــتى إذا خِفتُــــهُ فارقــــتُ منزِلَــــهُ   مــن بعــدِ مــا قِيــلَ: عمــرانُ بــنُ حِطَّــانِ

قــد كُنــتُ ضــيفَك حَــولاً لا تُــروِّعُني   فيــه الطــوارِقُ مــن إنْــسٍ ولا جــانِ

حــــتَّى أردتَ بِيَ العُظْمــــى فأوحَشَــــني   مـا أوحـشَ النـاسَ مـن خَـوفِ ابـنِ مَـرْوانِ

فاعــذِرْ أخــاكَ ابــنَ زِنْبــاعٍ فــإنّ لــهُ   في الحــــادثاتِ هَنــــاتٍ ذاتَ أَلْــــوانِ

يومـــاً يَمـــانٍ إذا لاقيـــتُ ذا يَمَـــنٍ   وإن لَقِيــــتُ مَعَــــدِّياً فعَــــدْنانِي

لــــو كنــــتُ مُســـــتغفِراً يومـــاً لطاغيــةٍ كُنـــتَ المقـــدَّم في سِـــرّي وإعـــلاني
لكـــــنْ أَبَـــــتْ ذاكَ آياتٌ مُطَهَّــــــرةٌ عنـــدَ الـــتِّلاوة في طَـــهَ وعِمـــرانِ

ثم أتى عمران بن حطان الجزيرةَ الفراتية، فَنَزَلَ بزفر بن الحارث الكلابي بقرقيسيا، فأقامَ عندهُ زماناً، وهو ينتسبُ إلى حي من اليمن هو الأوزاع، وهم أخوال زفر. حتَّى قَدِمَ على زفر رجلٌ من أهل الشام، وكان قد رأى عمران بن حطان عند روح بن زنباع فصافحه وسلَّمَ عليه، فقال زفر للشامي: أتعرفُهُ؟

قال: نعم، هذا شيخٌ من الأزدِ.

فقـال لـه زفـر متعجِّباً: أَزديٌّ مَـرةً، وأوزاعـيٌّ أخـرى؟! إنْ كُنـتَ خائفـاً أَمَّنَّـاكَ، وإن كنـت عَـائِلاً أَغنيناك.

فنظر إليه عمران فضحكَ وقال: إن الله هو المؤوي السَّائر.

وأُولـعَ بـه فتيـانُ زفـر وشباب مـن بني عـامر، وكـان كثير الصلاة، وان إذا صلَّى يهزلـون، ويقولـون: أخبرنا يرحمُكَ الله. فلمَّا أكثروا عليه، ارتحلَ عنهم، وقال:

إن الَّـــتي أصـــبحَتْ يَعْيَـــا بهـــا زُفَـــرٌ أعْيَـــتْ عَيَـــاءً علـــى رَوْحِ بـــن زِنبـــاعِ
أمســــى يُســـائِلُني حَـــولاً لأُخْـــبِرَهُ والنـــاسُ مـــن بـــينِ مَخْـــدوعٍ وخَـــدَّاعِ
حـــتَّى إذا انْجَـــذَمَتْ مِـــنِّي حَبائِلُـــهُ كَـــفَّ السُّـــؤالَ ولم يُولَـــعْ بإهـــلاعِ
فـــاكْفُفْ كمـــا كَـــفَّ رَوْحٌ إنَّـــني رَجُـــلٌ إمّـــا صَـــرِيحٌ وإمّـــا فَقْعَـــةُ القَـــاعِ
أمَّـــا الصَّـــلاةُ فـــإنِّي غـــيرُ تارِكِهـــا كـــلُّ امـــرئٍ للَّـــذي يُعـــنَى بـــه ســـاعي
واكفـــفْ لِســـانَكَ عـــن هَـــزِّي ومَسْـــألتي مـــاذا تُريـــدُ إلى شـــيخٍ لأوزاعِ
أكـــرِمْ بـــرَوْحِ بـــنِ زِنبـــاعٍ وأُســـرتِهِ قومـــاً دَعـــا أوّلِـــيهم للعُـــلا داعـــي
جـــاورتُهم ســـنَةً فيمـــا دَعـــوتُ بـــهِ عِرضِـــي صَـــحيحٌ ونَـــوْمي غـــيرُ تَهجـــاعِ
فاعمَـــلْ فإنـــك مَنْعِـــيٌّ بحادِثَـــةٍ حَسْـــبُ اللَّبيـــبِ بهـــذا الشَّـــيبِ مـــن ناعِـــي

ثم خرج فنزل بعُمان بقوم يُكثرون ذكرَ أبي بلال مرداس بن أُدَيَّة الخارجي، ويثنون عليه، ويذكرون فَضلَهُ، فأظهر فضلَه، ويسَّر أمره عندهم، ومما قاله في أبي بلال:

يا عـــينُ بَكِّـــي لمـــرداسٍ ومَصـــرَعِهِ يا ربَّ مـــرداسٍ اجعلـــني كَمـــرداسِ
تَـــركْتَني هَائِمـــاً أَبكِـــي لَمَـــرْزَئَتِي في منـــزِلٍ مُـــوحشٍ مـــن بَعـــدِ إينـــاسِ
أنكـــرتُ بعـــدَكَ مَـــنْ قـــد كنـــتُ أعرفُـــهُ مـــا النـــاسُ بَعـــدَكِ يا مـــرداسُ بالنـــاسِ
إمَّـــا شَـــربتَ بكـــأسٍ دارَ أَوَّلهـــا علـــى القـــرونِ فـــذاقُوا جَرعـــةَ الكـــاسِ

فكـــلُّ مَـــنْ لم يَــذُقْها شَـــارِبٌ عَجِـــلاً   مِنهـــا بأنفـــاسِ وِردٍ بعـــدَ أنفـــاسِ

وبلغ الحجاج مكانَه فطلبه، فهربَ فنزل في روذميسان ـ وهي طَسُّوج من طساسيج السواد إلى جانب الكوفة ـ على قوم من الأزد، فقال في ذلك:

نَزلـــتُ بحَمْـــدِ الله في خَـــيْرِ أُســـرةٍ   أُسَـــرُّ بمـا فـيهم مـــن الإنْـــسِ والخَفَـــرْ
نزلـــتُ بقـــومٍ يجمَـــعُ اللهُ شملَهـــم   ومـا لهـم عُـودٌ سِـوَى المجْـدُ يُعْتَصـرْ
ومـــن الأَزْدِ، إنَّ الأزْدَ أكـــرمُ أُســـرةٍ   يمانيـــةٍ طـــابُوا إذا نُسِـــبَ البَشَـــرْ
وأصـــبحتُ فـــيهم آمِنـــاً لا كَمَعْشَـــرٍ   بَــدَوْنِي فقــالوا: مــن ربيعــةَ أو مُضَــرْ
أو الحـــيِّ قَحْطـــانٍ وتلْـــكَ سَـــفاهةٌ   كمـــا قـــال لِي رَوْحٌ وصـــاحِبُهُ زُفَـــرْ
ومـــا مِـــنهمُ إلا يُسَـــرُّ بنســـبةٍ   تُقَـــرِّبني مـــنهم وإن كـــان ذا نَفَـــرْ
فـــنحن بَنـــو الإســـلام والله واحـــدٌ   وأولى عِبـــاد الله بالله مَـــن شَـــكَرْ

وبقي عمران متخفياً لاجئاً عند الأزديين حتى مات، وهو على ذلك، سنة أربع وثمانين للهجرة.

علي بن الخليل(1)

كان علي بن الخليل - وهو مولى معن بن زائدة المتوفى سنة (151 هـ) - مصاحباً لصالح بن عبد القدوس، وملازماً له، فلمَّا اشتدَّ المهدي ثم الرشيد في طَلَبِ الزنادقة، طُلِبَ معهم، ففرَّ وتوارى.

ولما كان عليٌّ متيقّناً من براءته ممَّا اتُّهم به،لم يجد بُدَّاً من إظهار براءته سوى قَصد الخليفة هارون الرشيد، ووضع يده في يده، مظهراً له أن البريء لا يخاف من التُّهَمة؛ لأن الحق إلى جانبه، ولا يمنعه خوف الموت - وهو الشيخ الطاعن في السن - من إظهار الحقيقة ودحض الدعوى الباطلة.

ولهذا، تزيَّا بأفضل زيٍّ لديه، وتوجَّهَ إلى هارون الرشيد، وكان في الرقّة على شاطئ الفرات، فدخل مَجلسَهُ، وهو يتوكَّأ على عصا، حاملاً معه رقعةً فيها قصيدة يمدح بها الرشيد، فلما رآه أمر بأخذ الرقعة منه، فقال له: يا أمير المؤمنين! أنا أحسنُ عبارةً لها، فإن رأيتَ أَنْ تَأذَنَ لي في قراءتها فعلتُ.

فقال الرشيد: اقرأها. فاندفع ينشده هذه القصيدة:

يا خـــيرَ مَـــن وَخِـــدَتْ بأَرْحُلِـــهِ ... نُجُـــبٌ تخُـــبُّ بِمَهْمَـــهٍ جَلْـــسِ(2)
تَطـــوِي السَّباسِـــبَ في أزمَّتِهـــا ... طَـــيَّ التِّجـــارِ عمـــائمَ الـــبُرْسِ(3)
لمـــا رأتـــكَ الشَّـــمسُ إذ طلعـــتْ ... كُســـفتْ بوجهِـــكَ طَلعـــةُ الشـــمسِ
خـــيرُ الخلائـــفِ أنـــتَ كلِّهِـــمُ ... في يومِـــكَ الغـــادي وفي أمـــسِ
وكـــذاك لـــن تنفـــكَّ خـــيرَهُمُ ... تُمسـي وتُصـبحُ فـوقَ مـا تُمسـي
لله مـــا هـــارون مـــن مَلِـــك ... بَـــرِّ الســـريرة طـــاهرِ الـــنَّفسِ
ملـــكٌ عليـــه لربّـــه نِعَـــمٌ ... تـــزدادُ جِـــدَّتُها علـــى اللُّـــبسِ
تحكـــي خلافتُـــهُ ببهجتهـــا ... أنَـــقَ السُّـــرورِ صـــبيحةَ العُـــرْسِ
مـــن عِـــترةٍ طابـــتْ أَرومَـــتُهُمْ ... أهـــلِ العفـــاف ومنتهـــى القُـــدْسِ
نُطُـــقٍ إذا احتُضِـــرتْ مجالسُـــهم ... وعـــن السَّـــفاهةِ والخنـــا خُـــرسِ
إنِّي إليـــكَ لجـــأتُ مـــن هَـــربٍ ... قـــد كـــانَ شَـــرَّدني ومِـــن لَـــبسِ
واخـــترتُ حكمَـــك لا أجـــاوزُهُ ... حـــتى أوسَّـــدَ في ثَـــرَى رَمْســـي

---

(1) الأغاني: 14/174-186، وأمالي المرتضى: 1/162-162.

(2) وخدت: أسرعت. نُجُب: جمع نجيب؛ الناقة الخفيفة السريعة. المهمَه: القَفر. الجلس: الغليظ من الأرض.

(3) السَّباسب: جمع سَبسب؛ وهي الفلاة. التِّجار: جمع تجر؛ جمع تاجر.

لما استخرتُ الله في مَهَلٍ ... يَمَّمتُ نحوَكَ رحلةَ العَنْسِ[1]
كم قد قطعتُ إليك مُدَّرِعاً ... ليلاً بَهيمَ اللَّونِ كالنّقسِ
إن هاجني من هاجسٍ جَزَعٌ ... كانَ التَّوكلُ عندَهُ تُرسي
ما ذاك إلا أنني رجل ... أصبو إلى بَقَرٍ من الإنسِ
بقرٍ أوانسَ لا قُرونَ لها ... نُجْلِ العيونِ نواعِمٍ لُعْسِ[2]
رَدْعُ العَبيرِ على ترائبِها ... يُقبِلْنَ بالتَّرحيبِ والخَلْسِ
وأشاهدُ الفتيانَ بينهمُ ... صفراءُ عند المِزْجِ كالوَرْسِ
للماءِ في حافاتِها حَبَبٌ ... نُظُمٌ كرَقْمِ صحائف الفُرْسِ
والله يعلمُ في بقيتِهِ ... ما إن أضعْتُ إقامَةَ الخَمْسِ

فاستحسنها الرشيد، وقال له: مَنْ أنتَ.

قال: أنا علي بن الخليل، الذي يُقال فيه: إنه زنديق.

فَضَحِكَ الرشيد وقال له: أنتَ آمنٌ. وأمر له بخمسة آلاف درهم، وخُصَّ به بعد ذلك، وأكثرَ مَدحَهُ.

---

(1) العَنس: الناقة الصُّلبة.

(2) اللُّعس: جمع لَعساء؛ وهو سواد شفة المرأة البيضاء، وقيل: هو سواد مع حمرة.

عمر أبو ريشة

ترجمته[1]:

ولد عمر أبو ريشة في مدينة منبج، شمال شرق مدينة حلب، عام 1908م.

تعلم في مدارس مدينة حلب، وأتم تحصيله الثانوي في جامعة بيروت الأمريكية عام 1924م. بعد ذلك أوفده والده إلى إنكلترا لدراسة صناعة النسيج، ولكنّه تحول عن هذا الاتجاه، واستجاب لنزعته الفنية، وميله إلى الشعر.

عمل مديراً لدار الكتب الوطنية بحلب، ثم سفيراً لسورية؛ في البرازيل، ثم في الأرجنتين والشيلي، ثم الهند، ثم في الولايات المتحدة الأميركية، ثم في الهند ثانيةً. وتقاعد عن العمل الدبلوماسي سنة 1970م.

نال العديد من الأوسمة في سوريا وفي البلدان التي سفر لها فيها.

كانت وفاته بالرياض سنة 1990م، بعد معاناة مع المرض، ونقل فدفن في مسقط رأسه بناء على وصيته.

امتاز شعره بروح التجديد، فقد عدل على مجاراة القدماء في طرقهم الفنية، وجنح إلى الإبداع، وعبَّر على الذات بحرية... ليعدّ بذلك رائد من رواد الرومانسية الشعرية.

قصته:

لما وقعت نكبة فلسطين سنة (1367هـ/1948م) تألم الشاعر الكبير عمر أبو ريشة، كغيره من الناس، لما نَزلَ بالأمة العربية والإسلامية، فنظم قصيدة ناريّة ألقاها في مبنى المكتبة الوطنية في حلب التي كان مديرها، وألقى فيها على الحكام العرب جميعاً مسؤولية هذه النكبة، فقال[2]:

أُمَّـــتي هـــل لـــكِ بـــينَ الأمـــمِ ... منـــــــبرٌ للســـــــيفِ أو للقلـــــــمِ

أتلقَّــــــاكِ وطـــــــرفي مطـــــــرقٌ ... خَجــــلاً مــــن أمسِــــكِ المنصــــرمِ

ويكــــادُ الـــــدَّمعُ يهمـــــي عابثـــــاً ... ببقــــــــــــايا كـــــــــــــبرياءِ الألمِ

أيـــنَ دُنيـــاكِ الـــتي أوحـــتْ إلى ... وَتَـــــري كـــــلَّ يَتِـــــيمِ الـــــنَّغَمِ

كـــم تخطَّيـــتُ علـــى أَصــــدائِهِ ... ملعـــبَ العـــزِّ ومَغـــنى الشَّـــمَمِ

وتهاديـــــتُ كـــــأنِّي ســـــاحبٌ ... مِئـــزري فـــوقَ جبـــاهِ الأنجـــمِ

حُلـــمٌ مـــرَّ بأطيـــافِ السَّـــنا ... وانطـــوى خلـــف جفـــونِ الظُّلَـــمِ

---

(1) تتمة الأعلام: 2/74-76.

(2) مختارات عمر أبو ريشة: 97-100.

أمَّتي! كم غصَّةٍ داميةٍ ... خَنَقتْ نجوى عُلاكِ في فَمي
أيُّ جرحٍ في إبائي راعفٌ ... فاتَهُ الآسي فلم يَلْتَئِمِ
ألإسرائيلُ تعلو رايةٌ ... في حِمى المهدِ وظِلِّ الحَرَمِ؟!
كيفَ أَغضَيتِ على الذُّلِّ ولم ... تنفُضي عنكِ غبارَ التُّهمِ
أوما كُنتِ إذا البغيُ اعتدى ... موجةً من لَهَبٍ أو من دمِ؟!
كيف أقدمتِ وأحجمتِ ولم ... يشتفِ الثأرُ ولم تنتقمي
أسمعيني نوحَ الحزانى واطرَبي ... وانظري دمعَ اليتامى وابْسَمي
ودَعي القادةَ في أهوائِها ... تتفانى في خَسيسِ المغْنَمِ
رُبَّ «وامعتصماهُ» انطلقتْ ... ملءَ أفواهِ البناتِ اليُتَّمِ
لامستْ أسماعَهم لكنَّها ... لم تُلامسْ نخوةَ المعتَصِمِ
أمَّتي! كمْ صَنَمٍ مجَّدتِهِ ... لم يكنْ يَحمِلُ طُهرَ الصَّنَمِ
لا يُلامُ الذِّئبُ في عُدوانِهِ ... إن يكُ الرَّاعي عدوَّ الغَنَمِ
فاحبسي الشَّكوى فلولاكِ لَما ... كانَ في الحُكمِ عبيدُ الدِّرهمِ
أيُّها الجُنديُّ يا كَبشَ الفِدا ... يا شُعاعَ الأملِ المبتسمِ
ما عرفتَ البخلَ بالروحِ إذا ... طَلَبَتْها غُصصُ المجدِ الظَّمي
بُوركَ الجرحُ الذي تحمِلُهُ ... شرفاً تحتَ ظلالِ العَلَمِ

وقد سُجن على إثر هذه القصيدة الفاضحة، وإن كان شَرُفَ بعدها بتمثيل بلاده مراراً؛ اعترافاً من الحكام بوطنيته، وإيماناً منهم بإخلاصه وصدقه.

الفصل الثالث

الشعراء المحرّضون على القتل أو العقاب

الشّموس بنت عباد[1]

إنَّ هذه القصة هي قصة الشَّريفِ الذي انتصفَ لشرفِه، والعزيزِ الذي هبَّ بعد طولِ ذلٍّ، وذي النخوةِ التي استيقظتْ بعد فترة من سبات... إنها قصة الكرامة السَّلبية..

إنها قصة امرأة من العرب البائدة سُلب شرفها على الرغم منها، مع رضا قومها الخانعين، فهبَّت صارخةً في وجوههم، مثيرةً النخوةَ فيهم؛ حتى أيقظتها؛ فنالوا من ظالمهم وغريمهم.. والحقّ غالب.

* * *

كان طسم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وجديس بن عابر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام؛ ابني عمٍّ، وكانت منازلهم في موضع اليمامة، وكان اسمها حينئذ جوًّا, وكانت من أخصبِ البلادِ وأكثرها خيراً. وكان ملكهم رجل من طسم يدعى عمليق.

وكان عمليق في أول مملكته قد تمادى في الظلم والغُشم والسيرة بغير الحق.

فمن ظلمه: أن امرأةً من جديس كان يقال لها: هزيلة، وكان لها زوج يقال له: قرقس؛ فطلقها، وأراد أخذ ولدها منها. فخاصمته إلى عمليق، فقالت: يا أيها الملك إني حملْتُهُ تسعاً، ووضعتُهُ دَفعاً، وأرضعتُهُ شَفعاً؛ حتى إذا تمَّت أوصالُهُ، ودنا فِصالُهُ؛ أراد أن يأخذه مني كرهاً، ويتركني من بعده وَلْها[2].

فقال لزوجها: ما حجَّتُكَ؟

قال: حُجَّتي ـ أيها الملك ـ أني قد أعطيتُها المهر كاملاً، ولم أُصب منها طائلاً؛ إلا وليداً خاملاً، فافعل ما كنتَ فاعلاً.

فأمر بالغلامِ أن يُنزعَ منهما جميعاً، ويُجعل في غلمانِهِ. وقال لهزيلة: ابغيه ولداً، ولا تنكحي أحداً، واجزيهِ صَفَدَا[3].

فقالت هزيلة: أمَّا النكاح فإنما يكون بالمهرِ، وأمَّا السِّفاحُ فإنما يكون بالقهرِ، وما لي فيهما من أمرٍ.

فلما سَمِعَ ذلك عمليق أَمَرَ بأن تُباع هي وزوجها؛ فيعطى زوجها خُمسَ ثَمَنِها، وتعطى هُزيلة عُشرَ ثَمَنِ زوجِها. فأنشأت تقولُ:

أتينـــا أخـــا طَســـمٍ لِـــيَحكُمَ بَيْنَنـــا	فأنفـــذَ حُكمـــاً في هُزيلـــةَ ظالمـــا

---

(1) مروج الذهب: 2/118-121، والأغاني: 11/164-168، والكامل في التاريخ: 1/321-324.

(2) الوَلهاء: الحزينة، الذاهبة العقل لفقدان حبيبها.

(3) الصَّفَد: العطاء.

لَعَمْـــرِي لقــــد حُكِّمْــــتَ لا مُتَوَرِّعـــاً   ولا كُنــــتَ فيمـــا تُـــبرمُ الحكـــمَ عالمـــا
نَـــــدِمتُ ولم أَنْـــــدَمْ وأنِّي بَعَثْــــرِتي   وأصـــبحَ بعلـــي في الحكومـــةِ نادِمـــا

فلمَّا سَمِعَ عمليق قولَها أمر ألاَّ تزوَّجَ بِكرٌ من جَديسٍ، وتُهدى إلى زوجها؛ حتى يَفترِعَها هو قبل زَوجِها. فلقوا من ذلك بلاءً وجهداً وذلاً. فلم يزل يفعل هذا حتى زُوِّجت الشموسُ، وهي عَفيرة بنت عباد، فلما أرادوا حَملَها إلى زوجها؛ انطلقوا بها إلى عمليق لينالها قَبلَهُ، ومعها القيان يتغنَّينَ:

اِبــــدَيْ بِعِمْليــــقٍ وقُــــومِي فــــارْكَبِي   وبَادِرِي الصُّــــبْحَ لأمــــرٍ مُعْجِــــبِ
فســــوف تَلقَــــيْنَ الــــذي لم تَطلُــــبِي   ومــــا لِبِكْـــرٍ عنـــدهُ مـــن مَهْـــرَبِ

فلمَّا أن دَخَلَتْ عليه افترَعَها، وخلَّى سبيلها. فخرجت إلى قومها في دمائها، شاقَّةً دِرعَها من قُبُلٍ ومن دُبُرٍ، والدم يسيل، وهي في أقبح منظر، تريد أن تثير نخوتهم ليأخذوا بحقها وحق بنات قبيلتها من هذا الظالم، فصرخت في قومها قائلة:

لا أحـــــــدٌ أذَلَّ مـــــــن جَـــــــدِيسِ   أهكــــــــذا يُفْعَـــــــلُ بالعَــــــرُوسِ
يرضَــــى بــــذا يا قــــوْمِ بعــــلٌ حُــــرُّ   أَهْــدَى وقــد أعطَــى وسِــيقَ المهْــرُ
لأخـــــذةُ المـــــوتِ كـــــذا لنفسِـــــهِ   خـــيرٌ مِـــنَ انْ يُفْعَـــلَ ذا بعِرْسِـــهِ

وتابعت هازئةً من سكوت المخنَّثين من الرجال، المعتزين بفحولتهم، الراضين بذلهم، علَّهم يهبوا من غفوتهم، وينفضوا غبار عارهم، فيأخذوا على يد عمليق الظالم الغاشم؛ تقول:

أَيَجْمُـــلُ مـــا يُـــؤْتَى إلى فَتَيَـــاتكم   وأنـــتُم رجـــالٌ فـــيكم عَـــدَدُ النَّمْـــلِ
وتُصْـــبِحُ تمشِـــي في الـــدِّماءِ عَفِـــيرةٌ   جِهـــاراً وزُفَّـــتْ في النســـاء إلى بَعـــلِ
ولـــو أنَّنـــا كُنَّـــا رجـــالاً وكنـــتُمُ   نســـاءً لَكُنَّـــا لا نُقِـــرّ بـــذا الفِعـــلِ
فموتُـــوا كِرامـــاً أو أَميتُـــوا عَـــدُوَّكم   ودِبّـــوا لنـــارِ الحـــربِ بالحَطَـــبِ الجَـــزْلِ
وإلاَّ فَخلُّـــــوا بطنَهـــــا وتحمَّلـــــوا   إلى بَلَـــدٍ قَفْـــرٍ ومُوتـــوا مـــن الهُـــزْلِ
فَلَلبـــينُ خـــيرٌ مـــن مُقَـــامٍ علـــى أذًى   ولَلْمَـــوْتُ خـــيرٌ مـــن مُقَـــامٍ علـــى الـــذُّلِّ
وإن أنـــتُمُ لم تغضَـــبُوا بعـــدَ هـــذه   فكونُـــوا نســـاءً لا تُعـــاب مـــن الكُحْـــلِ
ودونَكُـــمُ طِيـــبَ العـــروسِ فإنَّمـــا   خُلِقـــتُمْ لأثـــواب العـــروس وللغِسْـــلِ
فبُعْـــداً وسُـــحْقاً للَّـــذي لـــيس دافعـــاً   ويختـــالُ يمشـــي بيننـــا مِشْـــيةَ الفَحْـــلِ

فلما سمع الأسود أخوها ذلك، وكان سيداً مطاعاً، أخذته الحمية[1] فقال لقومه: يا معشر جديس! إنَّ هؤلاء القوم ليسوا بأعزَّ منكم في دارِكم، إلاَّ بما كان من مُلكِ صاحبهم علينا وعليهم، ولولا عجزُنا وإِدهانُنا[2] ما كان له فَضلٌ علينا، ولو امتنعنا لكان لنا منه النَّصَف[3].. فأطيعوني فيما آمرُكم به، فإنَّهُ عِزُّ الدهر، وذهابُ ذلِّ العمرِ، واقبلوا رأيي..

وأحمى جديساً ما سمعوا من قولها، فقالوا: نُطيعُك.. ولكنَّ القوم أكثرُ وأحمى وأقوى.

قال: فإني أصنعُ للملك طعاماً، ثم أدعوهم له جميعاً، فإذا جاؤوا يَرفُلون في الحُلَل ثُرنا إلى سيوفنا وهم غارُّون فأهمدناهم بها[4]، فانفردت أنا بالملك، وانفرد كل رجل منكم برجل منهم.

قالوا له: فافعل ما بدا لك. واجتمع رأيهم عليه.

فقالت عفيرة لأخيها الأسود: لا تفعل هذا؛ فإن الغدر فيه ذِلَّة وعارٌ، ولكن كابدوا القوم في ديارهم تظفروا أو تموتوا كراماً.

قال: لا، ولكن نَمكُرُ بهم، فيكون ذلك أمْكَنَ لنا من نواصيهم، وأبلغ في الانتقام منهم.

فصنع طعاماً كثيراً، وخرج به إلى ظهر بلدِهم، ودعا عمليقاً، وسأله أن يتغدَّى عنده هو وأهل بيته؛ فأجابه إلى ذلك، وخرج إليه مع أهله يرفلون في الحليّ والحلل، حتَّى إذا أَخَذُوا مجالسَهم، ومدّوا أيديهم إلى الطعامَ؛ أخذوا سيوفَهم من تحت أقدامِهم، فشدَّ الأسود على عمليق فقتله، وكل رجل منهم على جليسه حتى أماتوهم.

فلما فَرَغوا من الأشراف شدّوا على السِّفلة فلم يدعوا منهم أحداً، فقال الأسود في ذلك:

ذُوقِي ببغيِكِ يا طَسْمٌ مجلِّلةً ... فقد أتيتِ لَعَمْرِي أعجبَ العَجبِ
إنّا أبينا فلم ننفكَّ نقتُلُهم ... والبَغْيُ هيَّجَ منّا سَورةَ الغَضبِ
ولن يعودَ علينا بغيُهم أبداً ... ولن يكونوا كذي أنْفٍ ولا ذنبِ
وإن رَعَيْتُم لنا قُرْبَى مُؤَكَّدةً ... كنَّا الأقاربَ في الأرحامِ والنَّسبِ

---

(1) ما أشبه اليوم بالبارحة، مع فارق النصرة والإغاثة.. أخوتنا وأخواتنا في فلسطين وفي كثير من أصقاع العالم الإسلامي، ينادون ويستغيثون ويستصرخون، ولكننا صم بكم عمي.. أهمَّتنا حياتنا، وهان علينا حيوات إخوتنا، ونسينا أن المسلمين كالجسد الواحد؛ فلما هان علينا إخواننا هنَّا على أعدائنا، ولمَّا نسينا نصرهم أبعد الله نصره عنا.. إلا عن بعض المخلصين منا، وقليلاً ما هم.

(2) الإدهان: المصانعة واللِّين.

(3) النَّصف: إعطاء الحقّ، مثل النَّصفة والإنصاف.

(4) يرفُلون في الحلل: يجرون حللهم، ويتبخترون في سيرهم. غارّون: غافلون. أهمدناهم: أمتناهم.

ثم إن بقية طسم لجؤوا إلى حسان بن تبع، فغزا جديساً فقتلها، وأخربَ بلادَها؛ وبذلك فنيت طسم وجديس

لبيد بن ربيعة[1]

قالت العرب: الحق أبلج، والباطل لجلج. وقال النبي ﷺ: «إن من البيان لسحراً».

فكما أن كل ما يقال ليس بالضرورة صحيحاً، فكذلك ليس كل دفاع بمقبول، وإن كان حقاً؛ إذا لم يُحسن عَرضه وصوغه. وهذا ما حصل في قصتنا!

فإن بطلنا فتًى عظيمُ الفعال، شديدُ المقال، لا يوحي صغره وضآلة جسمه بما يخفيه من قلب هَصور، ولسان قؤول، بل كان حريصاً على إخفاء ذلك إلى حين الحاجة، تواضعاً وتعقّلاً. ولله در القائل: «إنما المرءُ بأصغريه: قلبِه ولسانِه». وكأن معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب المعروف بمعوّد الحكماء كان يقصده بقوله[2]:

تـــــرى الرَّجــــلَ النحيــــفَ فتزدريـــــهِ ... وفي أثوابِـــــهِ أَسَـــــدٌ هَصـــــورُ
بُغـــــاثُ الطَّــــيرِ أَطولُهـــــا رِقـــــاباً ... ولم تَطــــلِ البُـــــزاةُ ولا الصُّـــــقورُ
خشــــاشُ الطَّــــيرِ أَكثرُهـــــا فراخـــــاً ... وأمُّ الصـــــقرِ مِقـــــلاتٌ نَـــــزورُ
ضِـــعافُ الأُســــدِ أَكثرُهـــــا زَئـــيراً ... وأصــــرمُها اللـــــواتي لا تزيــــرُ
وقـــد عَظُـــمَ البَعـــير بِغـــيرِ لُـــبٍّ ... فلـــم يَســـتغنِ بالعِظَـــمِ البَعـــيرُ
يُنَـــــوَّخُ ثم يُضــــــرَبُ بالهــــــراوى ... فـــلا عُـــرفٌ لديـــهِ ولا نَكِـــيرُ
يُقَــــوِّدهُ الصـــــبيُّ بكــــلِّ أرضٍ ... وينخــــرُهُ علـــى الـــتُّربِ الصَّـــغيرُ
فمـــا عِظَـــمُ الرِّجـــالِ لَهُـــمْ بِـــزَينٍ ... وَلكــــنْ زَيـــنُهُمْ كَـــرَمٌ وخَـــيرُ

ولا يبعد أن يكون معاوية قد قصدهُ؛ إذ فتانا ابن أخيه، وهو حامي حمى عامر، والمنافح عنها في الشدائد والمنازلات.

ترجمة الشاعر:

إنه لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن عامر بن صعصعة. كان يُقال لأبيه: ربيعُ المقترين؛ لجوده وسخائه. وقد قتلته بنو أسد في الحرب التي كانت بينهم وبين قومه بني عامر.

---

(1) الأغاني: 15/363-366 و17/183-187، وأمالي المرتضى: 1/197-202، وخزانة الأدب: 4/11-13 و9/548-552، والبصائر والذخائر: 6/239، وجمهرة الأمثال: 1/116-118، وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال: 89-92، ومجمع الأمثال: 2/493-495، والعمدة في محاسن الشعر ونقده: 1/56-57.

(2) أمالي القالي: 1/48، وسمط اللآلي: 54.

قال الشعر في صغره، إلا أنه كان ينهى عن نشره وإظهاره؛ لأنه ـ فيما يبدو ـ لم يقتنع بما جاء به. حتَّى قال المعلَّقة الميمية فطار صيته، وأظهر شعره، ومطلعها:

عَفَـــتِ الـــدِّيَارُ مَحَلُّهـــا فَمُقَامُهـــا بِمِـــنىً تَأَبَّـــدَ غَوْلُهـــا فَرِجَامُهَـــا

وأدرك لبيدٌ الإسلامَ فأسلمَ، بعد أن عاش نحو مئة سنة في الجاهلية. وكان النبي ﷺ يقول: «أَصدقُ كلمةٍ قالَها الشّاعرُ كلمةُ لبيدٍ: ألا كلّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ»[1].

وانصرف لبيد في أواخر حياته عن الشعر إلى تلاوة القرآن[2]، مما جعل أمير المؤمنين عمر ﷺ يزيد في عطائه.

وتوفي لبيد في الكوفة عام الجماعة سنة (41)هـ، وقيل غير ذلك[3]. وكان من المعمَّرين؛ حيث عاش نحو مئة وأربعين سنة.

وقد كان قويَّ الشعر، حاضر البديهة، فارساً مقداماً.

ولعل أهم مشاركاته مع قومه، دعمه لهم في محضر النعمان بن المنذر، بعد أن كادت وفادتهم أن تبوء بالفشل. ولكنَّ عنفوان الشباب، والموهبة المصقولة بعد طول مِران؛ قد نفع قومه، وقضى حوائجهم، وردَّ كيد الأعداء، وقلب لهم ظهر المِجَنِّ، وردَّ السحرَ على الساحر.

قصته مع الربيع بن زياد والنعمان بن المنذر:

وَفَدَ أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة في رَهطٍ من بني جعفر، ومعه لبيد بن ربيعة ومالك بن جعفر وعامر بن مالك عمّ لبيد، على النعمان أول ما مَلَكَ، لأجل أُسارى لبني عامر يشترونهم منه، فوجدوا عنده عمارة وأنساً وقيساً والربيع بني زياد، وأمه فاطمة بنت الخرشب الأنمارية[4].

---

(1) أخرجه البخاري (الحديث 3841)، ومسلم (الحديث 2256)، وأحمد: 393/2 و470؛ عن أبي هريرة ﷺ.

(2) تكثر كتب الأدب من الزعم أن لبيداً لم يقل في الإسلام إلا بيتاً أو بيتين، ثم يختلفون في تحديده. وأرى أنهم ينسون ما كان ينظمه عند كل عقد بعد السبعين سنة يتذمر من حياته الطويلة، وإذا أضفنا إليها قصيدته التي أوصى بها ابنتيه بالبكاء عليه حولاً؛ لاجتمع عندنا نحو أربعة عشر بيتاً قاله في الإسلام. مما يعني أن القرآن قد شغله فعلاً عن قول الشعر، وهذا ما صرَّح به لعمر بن الخطاب ﷺ.

(3) انظر ترجمته في: أسد الغابة: 482/4-485، والشعر والشعراء: 266/1-277، والأغاني: 361/15-379.

(4) فاطمة بن الخَرشب الأنمارية: وهي التي ولدت لزياد العبسي الكَمَلَة: ربيعاً الكامل، وعُمارة الوهاب، وقيس الحِفاظ، وأنس الفوارس. وقيل لها: أيُّ بنيكِ أفضل؟ فقالت: ربيعٌ، بل عُمارة، بل قيس، بل أنس، ثكلتُهم إنْ كنتُ أعلمُ أيّهم أفضلُ، واللهِ إنهم لكالحلقةِ المفرغة لا يُدرى أينَ طرفاها.

وكان الربيع نديماً للنعمان، مع رجل من تجار الشام يقال له: سرجون بن توفيل، وكان حريفاً للنعمان يبايعه، وكان أديباً حسن الحديث والندام؛ فاستخفه النعمان، وكان إذا أراد أن يخلو على شرابه بعث إليه وإلى النطاسي ـ متطبب كان له ـ وإلى الربيع بن زياد فخلا بهم. وكان الربيع قد تقدَّم مَنْ سواه بتلك المنادمة، حتى دُعي بالكامل؛ لِشَطاطِهِ[1] وبياضِهِ وكَمالِهِ.

فلما قَدِمَ أبو براء ضرب له النعمان قبةً، وأجرى عليه وعلى مَنْ كان معه النُّزلَ، فكانوا يحضرون النعمان لحاجتهم، فافتخروا يوماً بحضرته، فكاد العبسيونَ يغلبون العامريين، وكان الربيع إذا خلا بالنعمان طَعَنَ فيهم، وذَكَرَ معايبَهم؛ ففعل ذلك مراراً لعداوته لبني جعفر؛ لأنهم أسروه, فصدَّ النعمان عنهم، حتى نزع القبة عن أبي براء، وقطع النُّزل.

ودخلوا عليه يوماً، فرأوا منه جفاء، وقد كان يكرمهم ويقرّبهم، فخرجوا غضاباً، وهمُّوا بالانصراف، ولبيد مُتخلِّف في رِحالهم، يَحفَظُ متاعَهم، ويغدو بإبلهم كلَّ صباح يرعاها. فأتاهم ذات ليلة وهم يَتَذَاكرون أمر الربيع، فسألهم عنه فكتموه، فقال: والله لا حفظتُ لكم متاعاً، ولا سرحتُ لكم بَعيراً؛ أو تخبروني فيمَ أنتم؟

وإنما كتموه لمكان أم لبيد؛ إذ كانت عبسيةً نشأت في حجر الربيع، فخشوا أن يرعى جانب أخواله، لذا قالوا له: خَالُك قد غَلَبَنا على الملك، وصَدَّ عنا وَجهَهُ.

فقال لهم: فما يمنعُكم من معارضته؟

قالوا: لحسنِ منزلته عند النعمان.

فقال لبيد: هل تقدرونَ على أن تَجمَعُوا بيني وبينه، فَأَرجُزَهُ عنكم بقولٍ ممضٍّ، ثم لا يلتفتُ إليه النعمان أبداً.

فقالوا: وهل عندك من ذلك شيءٌ؟

قال: نعم. قالوا: فإنا نبلوك.

قال: وما ذاك؟ قالوا: تشتمُ هذه البقلةَ ـ وقدَّامهم بقلة دقيقةُ القُضبان، قليلةُ الورق، لاصقةٌ بالأرض، تُدعى التَّرِبة.

فاقتلعها من الأرض وقال: هذه التَّرِبة التَّفِلة الرّذلة، التي لا تذكي ناراً، ولا تُؤهِل داراً، ولا تستر جاراً. عُودُها ضئيلٌ، وفَرعُها ذَليلٌ، وَخَيرُها قليلٌ. أقبحُ البقولِ مرعًى، وأقصرُها فَرعاً، وأشدُّها قَلعاً. بلدُها

---

(1) الشَّطاط: استواء القامة وحسنُها.

شاسعٌ، وآكلُها جائعٌ، والمقيمُ عليها قانعٌ..فحرباً لجارها، وجدعاً. القوا بي أخا عبسٍ، أردّه عنكم بِتَعسٍ، وأتركه من أَمره في لَبسٍ.

قالوا: نصبح ونرى فيك رأينا.

فقال عامر: انظروا إلى غلامكم هذا ـ يعني لبيداً ـ فإن رأيتُموه نائماً فليس أمره بشيء؛ إنما هو يتكلَّم بما جاء على لسانه، وإن رأيتموه ساهراً فهو صاحبه.

فرمقُوه فوجدوه وقد رَكِبَ رَحلاً وهو يكدُم وَسَطَهُ(1) حَتَّى أَصبَحَ. فقالُوا: أنتَ ـ والله ـ صاحبُهُ.

فعمدوا إليه، فحلقوا رأسه، وتركوا له ذؤابتين، وألبسوه حلةً. ثم غدا معهم، وأدخلوه على النعمان، فوجدوه يتغدَّى ومعه الربيع بن زياد، وهما يأكلان لا ثالث لهما، والدار والمجالس مملوءةٌ من الوفود. فلما فرغ من الغداء أَذِنَ للجعفريين فدخلوا عليه، والربيع إلى جانبه، فذكروا الذي قَدِمُوا له من حاجتهم، فاعترض الربيع بن زياد في كلامهم فقام لبيد وقد دَهَنَ أحد شِقَّي رأسِهِ، وأرخى إزارَهُ، وانتعل نعلاً واحداً ـ وكذلك كانت الشعراء تفعل في الجاهلية إذا أرادت الهجاء ـ فقال للنعمان: أبيتَ اللعنَ! إنْ رأيتَ أنْ تأذنَ لي في الكلامِ. فأذنَ له، فأنشدْ:

يا رُبَّ هيجا هي خَيرٌ من دَعَهْ ... أكلَّ يومٍ هامتي مُقَزَّعَهْ(2)

نحن بنو أمّ البنينَ الأربعهْ ... ونحنُ خيرُ عامرِ بن صَعْصَعَهْ(3)

المطعمونَ الجَفْنَةَ المدَعْدَعهْ ... والضَّاربونَ الهامَ تحتَ الخَيْضَعَهْ(4)

يا واهبَ الخيرِ الكثيرِ مِنْ سَعَهْ ... مهلاً، أبيْتَ اللَّعْنَ، لا تأكلْ معَهْ

إنَّ استَه من بَرَصٍ مُلمَّعهْ ... وإنَّهُ يُدخِلُ فيها إصْبَعَهْ(5)

يُدخِلها حتّى يُواري أَشْجَعَهْ ... كأنّهُ يطلُبُ شيئاً ضَيَّعَهْ(6)

فرفع النعمان يده من الطعام، ونظر شَزَراً إلى الربيع وقال: كذلكَ أنتَ؟

---

(1) يكدم وسطه: يضرب وسط الرحل حتى أثر فيه، أو أثَّر الضرب في رجلِهِ.

(2) هامة مقزَّعة: رأس أصلع تساقط منه الشعر.

(3) أم البنين: هي ليلى بنت عمرو بن عامر بن ربيعة، وكانت تحت مالك بن جعفر، فولدت له: عامراً، وطفيلاً، وربيعة، وعبيدةَ، ومعاويةَ. وأبناء أم البنين هم خمسة وليسوا أربعة، وإنما جعلهم أربعة لأجل القافية. أو إنه لم يقل «الخمسة»؛ لأنَّ ربيعة أباه دخل تحت قوله: «نحن بنو» فلو قال الخمسة لكان بمنزلة أن يقول: ربيعة بن أم ربيعة، لأن ربيعة حينئذ يكون من جملة الخمسة.

(4) الجفنة المدَعدَهة: المملوءة. الخيضعة: أصوات وقع السيوف، أو البيضة التي تُلبَس على الرأس، أو الغبار.

(5) الململَّع: الذي يكون في جسده بقع تُخالف سائر لونه.

(6) الأشجع: العرق والعصب الذي على ظهر الكف.

قال: لقد كَذَبَ عليَّ ابن الحَمِقِ اللئيم.

فقال النعمان: أُفٍّ لهذا الغلام، لقد خَبَّث علي طعامي.

فأقبل الربيع على النعمان فقال: أبيتَ اللعنَ! أَمَا إني قد فعلت بأمه كذا وكذا.

فقال له لبيد: أنتَ لهذا الكلامِ أَهْلٌ، وهي من نساء لم يَكُنَّ فواعلَ ما ذكرتَ، وأنتَ المرءُ فعلَ ذلكَ بيتيمة في حجرِهِ؟!

فأمرَ النعمانَ بهم جميعاً فأُخرجوا، وأعادَ إلى أبي براءٍ القبَّةَ، وقضى حوائج الجعفريين، وصرفهم.

أما الربيع بن زياد فإنه مضى إلى منزله من وقته، فبعث إليه النعمان بضِعفِ ما كان يَحْبُوهُ، وأمره بالانصراف إلى أهله.

فعلم الربيع أنَّ اتهام لبيد قد تمكَّنَ في نفس النعمان، فكتب إليه: إني قد عرفتُ أنَّهُ قد وَقَعَ في صدرِكَ ما قال لبيد، وإنِّي لستُ بارحاً حتَّى تبعثَ إليّ مَنْ يُجَرِّدُني فيعلمَ مَنْ حَضَرَك من الناس أني لستُ كما قال لبيد.

فأرسل إليه: إنكَ لستَ صانعاً بانتفائك مما قال لبيد شيئاً، ولا قادراً على رَدِّ ما زَلَّت به الألسن، فالحقْ بأهلك.

فلحق بأهله، ثم أرسل إلى النعمان يقول:

لَـــئِن رَحَلـــتُ جِمـــالي لا إلى سَـــعةٍ ... مـــا مثلُهـــا سَـــعَةٌ عَرْضـــاً ولا طُـــولا
بحيـــثُ لـــو وُزِنَـــتْ لخـــمٌ بأَجْمَعِهـــا ... لم يَعــدِلوا ريشــةً مــن رِيــشِ سَمْــويلا[1]
ترعـــى الـــرَّوائمُ أحـــرارَ البقـــولِ بهـــا ... لا مثـــلَ رَعْـــيِكمُ مِلحـــاً وغَسْـــوِيلا[2]
فاثبُـــتْ بأرضـــك بعـــدي واخـــلُ متكئـــاً ... مـــع النّطاســـيّ طـــوراً وابـــن تُـــوفيلا

فأجابه النعمان بقوله:

شَـــرِّدْ برحلِـــكَ عـــنّي حيـــثُ شِـــئْتَ ولا ... تُكثِـــرْ علـــيَّ وَدَعْ عنـــكَ الأباطـــيلا
فقـــد ذُكِـــرْتَ بشـــيءٍ لســـتُ ناسِـــيَهُ ... مـــا جـــاورتْ مصـــرُ أهـــلَ الشّـــام والنّـــيلا
فمـــا انتفـــاؤُكَ مِنـــهُ بعـــد مـــا جَزَعَـــتْ ... هُـــوجُ المطـــيّ بـــه أكنـــاف شِملِـــيلا[3]
قـــد قِيـــلَ ذلـــك إنْ حَقّـــاً وإنْ كـــذباً ... فمـــا اعتـــذارُك مـــن قـــولٍ إذا قِـــيلا

---

(1) سمويل: طائر. وقيل: بلدة كثيرة الطَّير.

(2) الرَّوائم: التي ترأم أولادها؛ أي: تعطف عليهم. أحرار البقول: ما رقَّ منها ورطب. الغَسويل: نبت ينبت في السِّباخ.

(3) جزعت: قطعت. الشِّمليل: بلد.

فـــالحقْ بحيـــثُ رأيـــتَ الأرضَ واســـعةً   فانْشــرْ بهـا الطَّـرْفُ إنْ عَرْضـاً وإن طُـولا

وهكذا، استطاعت أبيات لبيد أن تزرع الفرقة بين الربيع والنعمان، لا سيما وأن العربَ تتطير من البرص؛ فعزف مهجيته على هذا النغم، فانتصر لقومه، وفرَّق وساد.

وقد كان هذا الموقف الذي وقفه لبيد نصرةً لقومه، ميلاداً لشاعر جَهبذ فَخرت به بنو عامر؛ وعلا فيها نَجمه، وازداد فيها قَدراً على قدرٍ.

عويف القوافي

ترجمته[1]:

هو عُويف بن معاوية بن عقبة الفَزاري. لُقب بعويف القوافي لقوله:

سأكذبُ من قد كان يزعم أنَّني ... إذا قلتُ قولاً لا أُجيدُ القوافيا

وهو شاعر أموي مقل، مدح من الخلفاء: الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز. وكان من أشراف قومه بالكوفة. توفي نحو سنة (100هـ).

القصة:

قصتنا لا دخل لعويف فيها إلا من ناحية شعره؛ إذ هو لم يكن حياً حين وقعت، ولكن شعره كان عاملاً حاسماً فيها.

إنها قصة أحد أحفاد الحسن بن علي ﷺ، ويدعى إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالبٍ ﷺ[2]، وكان قد خرجَ على أبي جعفر المنصور في البصرة سنة 145 هـ بعد أن أخفقت ثورة أخيه بالحجاز؛ انتصر أولاً، ثم كانت الدائرة عليه. ولما تكاثرت الهموم على صدره، طلب من رفيق دَربِه المفضِّل الضبي أن يُعينَهُ ويسلِّيه بأبيات من الشعر.

فلما رأى الصاحب إقدامَ صاحبه، ورهافةَ حسِّه، ولُطفِ طَبعِه، أنشده ـ من غير أن يقصد ـ أبياتاً للعويف نفخت الحمية في صدر الثائر؛ فحبَّبت إليه القتال، وأرخصت له الموت، فاندفع إلى الميدان لا يلوي على شيء إلا قراع الأقران، فأصابه الموت فقُتل.

وإليكم خبر مقتله على لسان صاحبه المفضِّل الضَّبي الذي قضى له الله أن يحيا بعد إبراهيم، ويكون معلِّماً لابن الخليفة المنصور، أعني بذلك المهدي.

يقول المفضّل الضبي[3]:

خرجت مع إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن، فلما صار بالمِربَد وقف على رأس سليمان بن علي بن عبد الله بن العبَّاس، فأُخرج إليه صبيانٌ من ولده، فضمَّهم إليه، وقال: هؤلاءِ والله مِنَّا، ونحن منهم، إلا أن آباءَهم فَعَلُوا بنا، وصنعوا – وذكر كلاماً يعتد عليهم فيه بالإساءة، ثم توجَّه لوجهه، وتمثَّل:

مَهْلاً بَني عَمِّنا ظَلامتَنا ... إنّ بنا سَوْرَةً من القَلَقِ

---

(1) الأغاني: 19/184-210، والأعلام: 5/97.

(2) انظر تفاصيل خروجه سنة 145 هـ ومقتله فيها، في: الكامل في التاريخ: 5/135-145.

(3) الأغاني: 19/191-193، وأمالي القالي: 1/262.

لِمِثْلِكم نَحمِلُ السيوفَ ولا … تُغمَزُ أحسابُنا من الدَّقَقِ[1]
إِنّي لأَنْمِي إذا انتَمَيْتُ إلى … عِزٍّ عزيزٍ ومَعْشَرٍ صُدُقِ
بيضٍ سِباطٍ كأنّ أعينَهم … تكحَلُ يوم الهِياجِ بالعُلُقِ[2]

فقلتُ: ما أفحلَ هذه الأبياتَ، فلمن هي؟

قال: لضِرار بن الخطاب الفِهْري قالها يوم الخندق، وتمثَّل بها علي بن أبي طالب عليه السلام يوم صِفِّين، والحسين بن علي يوم قُتِلَ، وزيد بن علي عليهم السلام.

ولَحِقَ القوم، ثم مضى إلى باخمرى، فلما قَرُبَ منها أتاه نعي أخيه محمد فتمثَّلَ:

نُبِّئْتُ أنَّ بني رَبيعةَ أَجْمَعُوا … أمراً خلالهُمُ لِتقْتُلَ خالِدَا
إنْ يَقْتُلوني لا تُصِبْ أَرماحُهم … ثأرِي ويَسْعَى القَومُ سَعْياً جاهِدا
أرمِي الطَّريقَ وإن صُدِدتُ بِضِيقِهِ … وأُنازِلُ البطَلَ الكَمِيَّ الجاحِدَا

فقلت: لمن هذه الأبيات؟

فقال: للأحوص بن جعفر بن كلاب، تمثَّل بها يوم شِعبِ جَبَلة، وهو اليوم الذي لَقِيَتْ فيه قيس تميماً.

وأقبلت عساكرُ أبي جعفر، فقُتِلَ من أصحابه، وقَتَلَ من القوم، وكاد أن يكونَ الظَّفَرُ لهُ، فقال لي: حَرِّكني بشيء. فأنشدته أبيات عويف القوافي:

ألا أيُّها النَّاهِي فَزارَةَ بعد ما … أَجدَّتْ بسَيْرٍ إنما أنتَ حالِمُ
أَبى كُلُّ حُرٍّ أن يَبِيتَ بِوِتْرِهِ … ويُمنعَ منه النَّومُ إذا أنتَ نائِمُ
أقولُ لِفِتيانِ العَشِيِّ تَروّحُوا … على الجُردِ في أفواهِهِنَّ الشّكائمُ[3]
قِفُوا وَقْفَةً مَنْ يَحْيَ لا يَخْزَ بعدَها … ومن يُخْتَرَمْ لا تَتَّبِعه اللّوَائِمُ
وهل أَنتَ إن باعَدْتَ نفسَكَ منهمُ … لتَسْلَمَ فيما بعد ذلك سالِمُ؟!

فقال لي: أَعِدْ.. فتنبَّهتُ وندمتُ، فقلتُ: أَوَ غيرَ ذلك؟

---

(1) الدَّقَق: جمع داقٍّ؛ وهم المظهرون عيوب الناس.

(2) العُلُق: جمع عَلوق؛ وهي المنيَّة.

(3) الجُرد: جمع أجرد؛ وهو الفرس السبَّاق. الشَّكائم: جمع شَكيمة؛ وهي الحديدة المعترضة في فم الفرس من اللِّجام، على شكل الحرف (H).

فقال: لا، أَعِدْها.. فأعدتُها، فتمَّطى في ركابَيْه، حتَّى خِلتُهُ قد قَطَعَهُما، ثم حمل فكان آخر العهدَ به.

المصادر والمراجع

❖ الأصمعيات: تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، ط7، 1993م.

❖ أُسد الغابة في معرفة الصحابة: عز الدين ابن الأثير. تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424هـ/2003م.

❖ أسماء المغتالين (ضمن نوادر المخطوطات): محمد بن حبيب. تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

❖ أشعار الشعراء الستة الجاهليين: الشنتمرى. دار الجيل، بيروت.

❖ الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني. تحقيق خليل شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط1.

❖ إعتاب الكتَّاب: ابن الأبَّار. تحقيق د. صالح الأشتر، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1380هـ/1961م.

❖ الأعلام: خير الدين الزِّرِكلي. دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.

❖ الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2.

❖ أمالي القالي: أبو علي القالي. دار الجيل، بيروت. مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

❖ أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد): الشريف المرتضى. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1425هـ/2004م.

❖ البداية والنهاية: إسماعيل بن كثير. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1422هـ/2001م.

❖ البيان والتبيين: أبو عثمان الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

❖ البصائر والذَّخائر: أبو حيان التوحيدي. تحقيق د. وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط4، 1419هـ/1999م.

❖ تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي. تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1422هـ/2001م.

❖ تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر. تحقيق عمر العمراوي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1418هـ/1997م.

❖ تاريخ الملوك والأمم (تاريخ الطبري): محمد بن جرير الطبري. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.

❖ تاريخ اليعقوبي: أحمد بن إسحاق اليعقوبي البغدادي. علق عليه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1423هـ-2002م.

❖ تتمة الأعلام: محمد خير يوسف. دار ابن حزم، بيروت، ط2، 1422هـ/2002م.
❖ تزيين الأسواق: داود بن عمر الأنطاكي. تحقيق د. محمد التونجي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1413هـ/1993م.
❖ الجامع الصحيح: البخاري. تح خليل شيحا، المعرفة، ط1، 1425هـ-2004م.
❖ جمهرة الأمثال: أبو هلال العسكري. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، ط2.
❖ جمهرة أشعار العرب: القرشي. تح علي البجاوي، دار نهضة مصر، 1981م.
❖ خِزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادي. تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1417هـ/1997م.
❖ دلائل النبوة: البيهقي. تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م.
❖ ديوان الأعشين (أو الصبح المنير في شعر أبي بصير والأعشين الآخرين)، طبع في مطبعة آدلف هلزهوسن، بيانة، 1927م.
❖ ديوان بشر بن أبي خازم: تحقيق د. عزة حسن، دار الشرق العربي، حلب.
❖ ديوان الحطيئة شرح أبي سعيد السكري، دار صادر، بيروت، 1401هـ/1981م.
❖ ديوان طرفة بن العبد، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1424هـ/2003م.
❖ ديوان لبيد بن ربيعة ﷺ، دار صادر، بيروت.
❖ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: علي بن بسام الشنتريني. تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1417هـ/1997م.
❖ زَهْر الآداب وثَمَر الآداب: أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيراوني. دار الجيل، بيروت، بلا تاريخ.
❖ سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: جمال الدين بن نباتة المصري. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، 1419هـ/1998م.
❖ سَمط اللآلي في شرح أمالي القالي: أبو عبيد البكري. تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت.
❖ سنن الترمذي: تحقيق خليل شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1423هـ/2002م.
❖ سنن أبي داود: تحقيق خليل شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1422هـ/2001م.
❖ سنن ابن ماجه: تح خليل شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1419هـ/1998م.
❖ سنن النسائي، دار المعرفة، بيروت، ط6، 1422هـ/2001م.

- السيرة النبوية: ابن هشام الحميري. تحقيق مصطفى السقا ورفيقيه، دار الخير، دمشق، ط4، 1420هـ/1999م.
- سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذَّهبي. تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين أسد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1417هـ/1996م.
- شرح ديوان المتنبي: عبد الرحمن البرقوقي. راجعه وفهرسه يوسف البقاعي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1425هـ/2005م.
- الشعر والشعراء: ابن قُتيبة. تحقيق أحمد شاكر. دار الحديث، القاهرة، 1423هـ/2003م.
- صحيح مسلم: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار ابن حزم، بيروت.
- طبقات الشعراء: ابن المعتز. تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، دار المعارف، القاهرة، ط3.
- طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام. تح محمود شاكر، دار المدني، جدة.
- الطبقات الكبرى: محمد بن سعد بن منيع. تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.
- العصر الجاهلي: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط5.
- العقد الفريد: ابن عبد ربّه الأندلسي. اعتنى به مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1404هـ/1983م.
- العُمدة في محاسن الشعرِ وآدابه: الحسن بن رشيق القَيراوني. تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ/2001م.
- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال: أبو عبيد البكري. تحقيق د. إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1403هـ/1983م.
- القاموس المحيط: مجد الدين الفيروز آبادي. ضبط وتوثيق يوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت، 1420هـ/1999م.
- الكامل في التاريخ: ابن الأثير. تحقيق د. عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 2004.
- الكامل في اللغة والأدب: محمد بن يزيد المبرّد. تحقيق د. محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1997م.
- لسان العرب: ابن منظور. تحقيق عامر حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ/2003م.

- المتنبي: محمود شاكر، دار المدني، جدة، 1407هـ/1987م.
- المتوارين عن الحجاج: عبد الغني بن سعيد الأزدي. تعليق مشهور حسن سليمان، دار القلم، دمشق، ط1، 1410هـ/1989م.
- مجالس ثعلب: ثعلب. تحقيق عبد السلام هارون، المعارف، القاهرة، ط5، 1987م.
- مجمع الأمثال: الميداني. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت.
- مختارات عمر أبو ريشة: وزارة الثقافة، دمشق، 2003م.
- مروج الذهب ومعادِن الجوهر: علي بن الحسين المسعودي. عُني به محمد هشام النعسان وعبد المجيد طعمة حلبي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1426هـ/2005م.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي. تحقيق جاد المولى وآخرون، الجيل والفكر.
- مصارع العشاق: السراج القارئ. تحقيق محمد إسماعيل، الكتب العلمية، ط1، 1998.
- المصون في الأدب: أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري. تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ودار الرفاعي، القاهرة والرياض، ط2، 1402هـ/1982م.
- معجم الأدباء: ياقوت الحموي. تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1, 1993م.
- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة. المكتبة الإسلامية، استانبول.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تَغْري بَرْدي. قدَّم له وعلّق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ/1992م.
- نشب قريش: مصعب الزبيري. تحقيق ليفي برفنسال، دار المعارف، القاهرة، ط4.
- نَفْح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب: أحمد بن المقّري التلمساني. تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 2004م.
- الوافي بالوَفَيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفدي. تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1420هـ/2000م.
- وَفِيَات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان: ابن خَلِّكَان. تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت.

المحتويات

الموضوع الصفحة

* **مقدمة المؤلف**

* **الفصل الأول: الشعراء المقتولون**

- طرفة بن العبد
- عبد عمرو بن عمار الطَّائي
- المنخَّل اليشكري
- حيَّة بن حباب الطَّابخي
- أبو عزة الجُمحِي
- كَعب بن الأشرف
- سالم بن دارة
- هُدبة بن الخَشرم
- سُحيم عبدُ بني الحسحاس
- أعشى همدان
- الأُقيشر الأسدي
- كعب بن معدان الأشقري
- سُديف بن ميمون
- حمَّاد عجرد
- صالح بن عبد القدوس
- الحلاَّج
- أبو الطيب المتنبي
- عمر بن حسن الهَوزني
- ابن الأبَّار

* **الفصل الثاني: الشعراء المعاقبون**

- بِشر بن أبي خازم
- النابغة الذبياني

- أبو شجرة بن عبد العُزّى السُّلمي
- ضابئ بن الحارث البُرجمي
- كعب بن زهير
- الحطيئة
- النَّجاشي الحارثي
- يزيد بن مفرّغ
- عمران بن حطّان
- علي بن الخليل
- عمر أبو ريشة

* **الفصل الثالث: الشعراء المُحرِّضون على القتل أو العقاب**
- الشموس بنت عبّاد
- لبيد بن ربيعة
- عويف القوافي

* **المصادر والمراجع**
* **المحتويات**